ثعالب خلف الجدران

٨١٣ /٩٢
ع ٢٩٤ العبيدي ، سعد
ثعالب خلف الجدران / رواية / سعد العبيدي
بغداد – دار ضفاف للنشر / ٢٠٢٢
(٢٧٧) ص، ٢٢ سم
١- القصص العربية / العراق أ- العنوان

م. و
٢٠٢٢/٨٣٠

المكتبة الوطنية/ الفهرسة اثناء النشر
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٨٣٠) لسنة ٢٠٢٢

سعد العبيدي

ثعالب خلف الجدران

رواية

الكتاب: ثعالب خلف الجدران

المؤلف : سعد العبيدي

الصنف: رواية

الطبعة الأولى ٢٠٢٢ – حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الناشر: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع

basimalyasiri100@gmail.com

الإدارة: الدكتور باسم الياسري

- قطر: الدوحة ٠٠٩٧٤-٥٥٨٩٨١٨٦

- العراق – بغداد ٠٠٩٦٤٧٧٣٨٠١٠٧٠٢

- تركيا - ٠٠٩٠٥٣٧٢٤٣٣٢٩٩

- الإمارات العربية المتحدة: الشارقة ص. ب: ٤٢٩٣

- **تصميم الغلاف: دار ضفاف للنشر**
- **وكيلنا مكتبة الضياء/ نوري السلطاني ج: ٠٧٩٠١٨٧٠١١٧**

*** الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.**

*** لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدما.**

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in anymeans,electronic, mechanical, photocopying ,recording ,or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٨٣٠ لسنة ٢٠٢٢

تسلسل الكتاب في الدار: ٣٦٨

إهداء

الى أولادي الثلاثة
الذين وزعتهم الهجرة القسرية على ثلاثة أوطان،
ووالدتهم في وطنها الرابع.
أقدم اعتذاري

(١)

عاد أمجد من مدرسته غاضباً على غير عادته، وجدني جالساً في مشغل، أعددته آخر حديقة المنزل كوخاً من الخشب، لتخزين المعدات، سأل بامتعاض:

- ما أصل القصة؟
- عن أي قصة تسأل؟

أجاب والغضب بادٍ على سحنات وجهه المدور، قصة الوصول الى ألمانيا من العراق بلدنا الأصلي، مسوغاً سؤاله حرجاً عن عدم المعرفة، شعر به قاسياً بين زملاء المدرسة، جعله أطرشاً في زفة عرس، يتألم على نحو مكبوت، ولمزيد من التسويغ، قال عن صديقه الأفغاني موسى، قد حكى تفاصيل مجيء والديه، قبل عشر سنين، بجوازات سفر مزورة، وأسماء غير أسمائهم، وحكى الليبي كنان مغامرة أسرته، أوان مغادرتها طرابلس ليلاً، في قارب مطاط الى جزيرة مالطا، ومنها في سفينة بضائع الى قبرص، حتى وصولهم هامبورغ في سفينة حاويات عملاقة.

لقد سألا معاً عن قصتنا، حز في النفس القول، عدم المعرفة.

كل ما موجود من معرفة، ولادة في هذه المدينة، وأجداد يقيمون في لندن، وآخرين للوالدة أتراك يعيشون بين هامبورغ وبورصا التركية، وأصول عراقية بقيت في عالم
افتراضي لا يمكن تلمسها.

لغزٌ محيّر، لا يريد العيش وسطه، ولا يريد استمرار في النظر اليَّه، صغيراً بين الزملاء.

لكني لم أكن لأنويَّ حكاية القصة قبل بلوغ النضج، قلت مخاطباً وأضفت، لقد اتخذت هذا القرار لكثرة ما فيها من شجن، كما لا يروقني حملك أعباء ضغوط تفوق قدرة عمرك على التحمل.

لكن موسي حكى، وهو يلوك حزنه ضحكاً باهتاً، عن خفقات قلبٍ لوالدته يتذكر وقعها يوم كان في الثالثة من العمر، وصفها كأنها ضرب طبل ناشز، على أذنيه الملتصقة على صدرها خوفاً يوم ذاك، لَمّا تقدمت الى الضابط لختم الجوازات في آخر عطفة من إجراءات المطار، وعن تفاصيل المشهد الباقية في الذاكرة، وصراخ القلب.

ومن كنان سمع حكايات حرق لبيتهما الفاخر في جنزور، واغتصاب شقيقته الكبرى من تابعي أجهزة القائد الاستخبارية، يوم انتشروا في العاصمة طرابلس، إبان القصف الجوي الأمريكي لمقره العامر في العزيزية، ومبيتهم ليالٍ بين البضائع في عنبر السفينة العملاقة، وأكلهم نشارة خشب.

توقف أمجد قليلاً كأنه يفكر، ثم أكمل قائلاً لقد امتلأ اليوتيوب بالقصص من كل الأنواع، يشاهد منها العشرات يومياً، حتى بات عمره وأقرانه ملائماً كي يسمعوا، ويشاهدوا الأقسى من وجهة نظر الآباء، لكن الآباء كالعادة لم يعترفوا أن طفولتهم تختلف عن طفولة أبنائهم، وهو الأمر الطبيعي لهذه الحياة؟

تكلم بطريقة، كأنه يعطي درساً في علم الأجناس.

حل مساء ذاك اليوم شتوياً قارصاً، بدأت السماء تندف ثلجاً، دلف أمجد الى فراشه في تمام الساعة الثامنة هو الوقت المحدد

مساءً للتوجه الى النوم أيام الدراسة، واضعاً لحافاً من الصوف درعاً لوقايته من البرد.

أمسك جهازاً لوحياً إعتاد امساكه، قبل الاستسلام الى النوم كي يتصفح، وهو ما زال يتصفح، ضربتُ بأطراف أصابعي على واجهة الباب ضرباً خفيفاً، استئذاناً بالدخول، ومن بعد الإذن، فتحتُ الباب مبتسماً، سألته فيما إذا كان لديه الاستعداد الكافي لسماع القصة كما هي؟

أبدى استعداداً لسماعها، واضعاً شرطه الوحيد أن تكون كما هي، بلا تحوير أو تزويق كي يفهم.

مددت جسدي على متن كرسي هزاز، مضفور من القش جوار السرير، أخذتُ وضع الاسترخاء طويل الأمد، تنهدت بلا قصد مني، وكأن في محاولتي السرد الكامل للقصة، سعي لفتح صمام الذاكرة، كان وكأنه قد صدئ لطول زمن الكبت الذي حبس في وعائه قسراً، مقادير هائلة من الآهات، رافقتني خزيناً في أعماق الذاكرة لأعوام، وبدأت القول:

كنت طالب هندسة مجداً في جامعة بغداد، وكانت السنة الأولى محملة بالأمل، وأحلام التحقيق الوافي للذات مهندساً في علم الطيران، في آخر أيامها قبل أداء الامتحانات النهائية بأيام، تخلخل وقع الحلم فجأة، صار مشوهاً بعد التيقن من قول الوالد السابق، من أن البلاد لم تعد صالحة للعيش الآمن.

لم أكن واثقاً من ذاك القول بداية، كنت أتخيله موقف انحياز في السياسة، ولم أكن مستعداً لترك دراستي التي أحببتها تحت أي اعتبار ذي صلة بالسياسة.

لقد قاومت كل ضغوط الأهل، والحاحهم بضرورة الالتحاق بهم الى طرابلس الجماهيرية الليبية حيث استقروا، تعرضت أو عرضت نفسي لاختبار استعداد حقيقي، لما كنت لاعباً في منتخب الشباب لكرة السلة، سافرت مع الفريق الى الأردن إيفاداً، كانت فرصة سانحة لترك الفريق والالتحاق بالأهل، لكني تمنعت، التزمت بوعد قطعته الى المدرب الذي كفلني ألّا أهرب.

تصرفت بشكل مسؤول، كانت تجربة ما زلت اعتز بها، يوم كان توقيع الضمان ضرورياً في حالات السفر والايفاد، لمن تقيم أسرهم في الخارج خصوصاً، لكني بعد أسابيع من عودة الأردن، وطعم الفوز على فريقهم باقياً مذاقه حلواً تحت اللسان، تأكدت من ظني وصحة القول: إن البلاد تحكمها جوقة وحوش، جعلته غير صالح للعيش الآمن، لحظة دخول زمرة من الأمن قاعة الدراسة دون استئذان لاقتياد أستاذ يحاضر الى وكر من أوكارهم السرية.

كانوا قساة جهلة، لا يعيرون اهتماماً للعلم، ولا يأبهون لمنزلة الأستاذ وأهمية المحاضرة، حتى أن هذا العالم الوقور الذي استهدفوه، وعلى الرغم من أن منتمٍ الى حزب البعث الحاكم تماشياً، لم يجيبوا على سؤاله عن أسباب الاقتحام بالشكل المطلوب، إذ رد قائدهم بشكل منفر متعال، تحسسنا قساوته نحن الطلاب، وهو يتكلم في جهازه اللاسلكي الصغير: (خليك في محاضرتك، هذا أمر لا يعنيك).

لقد تجاهل هذا الضابط الشاب أستاذاً جامعياً قديراً، أخل بقدسية المحاضرة وتمادى كثيراً، كمن ركل شهادة الامتياز التي حصل عليها من جامعة أكسفورد بحذاء قذر، فأسقط قيمة النوط

الذي كان يفتخر به شجاعةً، إبان الالتحاق بقاعدةٍ للجيش الشعبي محسوبة على الجامعة. والأكثر ايلاماً ما أثاره في داخلنا طلاباً خوفاً من الدولة، وعتباً عليها لا ينسى، عندما تجاهل الأستاذ وسار مباشرة الى حسام الجالس الى جانبي، كمن يعرفه شخصياً، ويعرف مكان جلوسه الثابت.

لقد مسكه من ياقة قميصه، سحبه كقصاب ينحر ذبيحته خارج المسلخ حلم حسام مثلي بالهندسة، والعمل وغد أفضل للعراق، وكنا مع زملاء آخرين ندندن أوقات الفراغ بكلمات، وأفكار بعضها عن الديمقراطية، والديكتاتورية، وغدٍ يناسب أهل العراق.

.....

في اليوم التالي، لم أقوَ على الذهاب الى الكلية، كنت عاجزاً، خائفاً من الاستهداف شخصياً، قصدت العم حازماً صديق الوالد، ضابطاً بدرجة قائد، كان قد أوصى الذهاب اليه فقط أوقات الشدة، قلت ها قد حل وقت الشدة، وعرضت مخاوفي وطبيعة العلاقة الفكرية مع حسام وآخرين، وخشية تكرار الموقف معي ذبحاً على الطريقة الحكومية، وختمت بالرغبة الملحة لترك البلاد على أعتاب السرعة، سأل عن بعض التفاصيل، فقصصت الواقعة كما حصلت.

تحول بعد اكتمال قصها من موقف العم الى وضع الأب، وصار يصدر الأوامر تباعاً:

جلب جواز السفر.

امهاله اسبوعاً واحداً.

الذهاب على الفور الى عيادة مستشفى مدينة الطب الخارجية في طابقها الأرضي، السؤال عن الدكتور جواد، الطبيب المقيم الأقدم، الذي سيتكفل باللازم.

- ما اللازم؟

ضحك مازحاً، قال لا تجادل، ثم عاود القول على طريقته في المزاح، لكنك مدني لا تنطبق عليك الأوامر، القصة وما فيها تحسبٌ مسبق، إذ سيكون الصف، وربما الكلية الهندسية برمتها، مراقبة من الأمن لقياس الرجع والأثر، وردود الفعل، وقال أيضاً أن الغياب بلا سبب يفسر أثراً غير مباشر يجلب له الشبهة:

- أخذ إجازة مرضية لأسبوع، يكفي تدبر الأمر، وابعاد الشبهة.

أعاد العم حازم جواز السفر مع تأشيرة نافذة، ومعهما خمسمائة دولار نقداً، لكني لا أحتاج هذا المبلغ، فجدي الذي أعيش معه وجدتي تكفلا بمصاريف الطريق، قلتها بلا تفكير بالأمر، فابتسم راضياً عن ردة الفعل هذه، قال إنها ليست من عنده، لقد ترك الوالد ألف دولار أمانة طوارئ، وها قد حلت الطوارئ، دفعَ منها خمسمائة دولار، رشوة لختم التأشيرة، وإبطال إشارة منع كانت قد وضعت إزاء الاسم، بسبب وجود الأسرة في الخارج، والباقي مصاريف طريق ظن انها تكفي. بدأ مصافحة الوداع، وقبل إتمامها، قال لاءاته المشهورة:

لا تتطرق لفظاً، أو تنويها عن موضوع السفر.

لا تذكر أي تفصيل عن النوايا، لأي أحد.

لا تودع الزملاء داخل أروقة الجامعة، وفي البيت، اقتصره وداعاً على الأقرب.

أتم لاءاته، وهم بالانصراف، توقف ليصدر أمراً آخراً:

أخذ الحقيبة خفيفة، والتوجه الى ساحة حافظ القاضي في الغد.

كرر كلمة الغد لمرتين اثنتين تأكيداً، واستمر بتفصيل أمره السري غير قابل للجدل قائلاً، كنْ هناك بعد آذان المغرب، عند موقف سيارات الأجرة الى العاصمة عمان، ستجد سيارة تويوتا زرقاء اللون موديل (١٩٩٠) سائقها اسمه جاسم، يبدو أكبر من عمره على الرغم من انه لم يتجاوز الأربعين، أسمر البشرة، ذو لحية بيضاء، يرتدي عقالاً جنوبياً، وجلابية رصاصية نظيفة، ينتظر مع ركاب ثلاثة، دفعوا أجرة سفرهم معه صباح اليوم.

كانت التعليمات والأوامر صارمة، اقتصر التبليغ عن السفر على هداها عشرة، هم أصدقاء الطفولة، والمحلة والدراسة الثانوية.

حضروا الى حديقة بيت الجد رشيد في حي المغرب صباح اليوم الذي تلا استلام التعليمات، تباعاً وخلسة، كمن يحضر محفلاً ما سونياً في عاصمة عربية ثورية، وكانت الحديقة في وقتها ذات سياج عال، وأشجار من النارنج دانية القطوف، تساعد في تحقيق الخلسة.

بدأوا احتفال الوداع بعد اكتمال العدد بطاقته القصوى، يتحركون، يرقصون، يندبون الحظ بكاءً، كأنهم يخففون عن أنفسهم وقع فراق، أحسوه طويلاً.

عبر عنه غسان، بألم بلا عودة، ونذير شؤم قد يجرهم من بعده الى سلسلة فراق لن تنتهي، وقال عنه أيهم، لأنه بلا عودة، ولأنه يتحسس أنفاس الوحشة، وفقدان الأمل بتحقيق الأفضل، سيلحق في أقرب وقت أينما ترسوا السفينة.

هكذا كان المشهد مرحاً، وصحون طعام تأتي من الجدة فائزة، يعاد ملؤها كلما مُسحت بالألسنة ضحكاً على الشراهة المتعمدة، وهكذا كانت الحاجة فائزة صديقة، وراعية لأولئك الأصدقاء الشباب من أيام الطفولة، تغضب لصخبهم، يلاطفونها عندما تغضب، أسمتهم من كثر المعزة بالحبابات، وهكذا مرت ساعات النهار سريعة محفوفة بألم الفراق، حتى آذان المغرب.

خرجنا من البيت الى ساحة حافظ القاضي، وكأننا في زفة عرس، كسرنا طوق التعليمات تحت بند المشاكسة الشبابية، وقفنا على رصيف الشارع حتى ظهور السائق جاسم، وركابه الثلاثة الذين احتلوا الكراسي الخلفية من السيارة، تعانقنا طويلاً، دمعت عيوننا جميعاً كأنها النهاية، وقبل الصعود الى السيارة، دس غسان ورقة في حقيبة الظهر قال أمانة، لا تقرأها الا بعد الوصول الى مدينة عمان الشقيقة.

أدار جاسم محرك سيارته واثقاً، وقبل التحرك طلب وضع الحاجيات المهمة والمصوغات، والنقود في شنط اليد، والتمسك بها جيداً، لأن القائمين على الحدود غير مؤتمنين، باتوا طوال سني الحصار يخطفون الكحل من العين، ثم قصدني راجياً وضع تكة سكائر (ڤايسوري)، وخلاط مغاسل كروم، في حقيبة الظهر التي أخذت لها مكاناً بين الحقائب الأخرى، في شنطة السيارة. سوغَ

رجاءه بتعليمات الجمارك التي لا تسمح الا بواحدة من كل صنف، وقد جلب هو منها اثنين يتربح من بيعهما في عمان؛ لأن أجور النقل وحدها لا تكفي لسد الحاجة.

سار قليلاً في شارع الرشيد، وسار من بعده الحبابات بسيارات أربع، زفة عرس أخرى من نوع آخر الى حدود بغداد، عند بوابتها من جهة أبي غريب أدوا تحية الوداع، بأصوات المنبه لسيارات عادت الى قواعدها بطريقة فوضوية.

جال جاسم بنظره بيننا أربعة ركاب، حال استقرار سيارته النظيفة نسبياً على طريق سريع، لم تحدد على سطحه السرعة.

السرعة على طرق العراق السريعة وغير السريعة، تركتها السلطات المعنية في الدولة الى الموت، يتحكم بها من أبواب التقدير الشخصي لمخاطر السرعة.

تفحص الوجوه، ثلاثة هم أسرة فيها الأب سيداً بغدادياً، وزوجة يغطي الوقار هيأتها العامة، وابنة يافعة بوجه أسمر حنطي، لم تتجاوز سني المراهقة بعد، ورابعهم أنا بابلي نصفي بغدادي حالم.

رحب بعد اتمامه التفحص، وتمنى السلامة، ودرج في السير ثلاث ساعات متواصلة، سأل من بعدها عن الرأي في التوقف عند مدينة الرطبة لتناول العشاء.

أجاب السيد رب الأسرة بإيمائة من يده نفياً، أيدتهُ بالنفي قولاً، وكذلك فعلت السيدة، وكأننا متفقين مسبقاً على عدم التوقف، وعلى عدم تناول العشاء لفقدان الشهية، لكن الابنة الشابة لم تفتح فمها، وكأن الأمر لا يعنيها، أو أنها كانت مشغولة بأفكار منعتها

من الرد، وربما لم تكن مثلنا ملهوفة للتخلص من ضغط الوقت، والخوف من الفشل في اجتياز الحدود.

كان لنا حق الخوف، إذ أن نسب الفشل في عبور المواطنين حدود بلدهم العراق عالية يومذاك، بسبب قسوة إجراءات الأمن، وتعمد غالب الموظفين إحداث فعل التأخير، والتدقيق والمنع تجنباً لتحمل تحمل المسؤولية.

لقد انحاز الموظف في تلك الأيام الى ذاته، في عملية التحسب القلق، على حساب الحالة النفسية للمواطن، وحقه في اجتياز الحدود مطمئناً، وقد امتهن الخشية صفة سائدة، لحماية نفسه من الأثر السلبي المرتد، ووضع مصالحه النفسية درجة هي الأولى، ومصالح المواطن والوطن بعدها ثانية وثالثة.

لكن جاسم توقف بسيارته بعد اجتياز مدينة الرطبة قسراً، إثر ارتفاع درجة حرارة المحرك، قال (أنا أشاء وانتم تشاؤون ويفعل الله ما يشاء)، فأوصلتنا المشيئة الى طريبيل نقطة الحدود بوقت اقترب فيه الفجر من البزوغ.

.....

ترجلوا من السيارة مع حاجياتكم، ضعوها جانباً للتفتيش، ومن بعد وضعها توجهوا الى الجوازات لختمها مغادرة، قال جاسم واستمر واقفاً الى جوار السيارة، حارساً لحقائب السفر.

نظر الضابط في الجواز، وأعاد النظر ثانية بتمعن يثير الريبة، كل نظرة منه في صفحة من صفحات الجواز، كانت تضاعف في داخلي ضربات القلب، تقربه حساً من الحنجرة. سأل:

- أين الوجهة؟
- عمان، لمراجعة طبيب بسبب إصابة الركبة جراء لعب في كرة السلة، مع فريق المنتخب الأردني قبل أسابيع.
- ألاعب كرة سلة أنت؟

ولما هززت رأسي علامة الايجاب، أخذ زمام المبادرة، قائلاً عن نفسه كان لاعباً لكرة السلة في كلية الشرطة، ثم مسك التقرير الطبي للإصابة، الذي أوصى حمله العم حازم تحسباً، وختم الجواز ختم المغادرة، بلا تمعن بما مكتوب في المتن.

خرجت من القاعة مسروراً، وكأن نصف أبواب العالم قد فتحت، مرحبة لتحقيق الحلم، وباق من النصف الآخر أمتاراً للعارضة التي تتحكم بالحدود.

وصلتُ السيارة، والحقائب مازالت مرصوفة، وقف الى جانبها موظف الجمارك يفتش نبشاً في كل محتوياتها، وصل الحقيبة الأخيرة في الصف، سأل نابشاً يقلب محتوياتها بين أصابعه كأنه حافر قبر ، فتقدمت منه إثباتاً لعائديتها، واستمر في التفتيش نبشاً فوجد قطعة نقود ورقية من فئة المائة دينار بين الملابس المحشورة، مكتوب عليها بخط اليد، سأل عن الكتابة؟

لم يكن لي علم بما مكتوب، قلتها واثقاً من نفسي، فنظر اليها نظرة تملؤها الريبة، أعقبتها غمغمة كلمات حال القلق المستثار لحظتها من غير فهمها كما يجب، ومع هذا أدركت مغزاها شكاً، أفسد فرحة فتح الأبواب التي تمتعت بها قبل دقائق، بعد اتمام الختم مباشرة.

ذراعي الأيمن، أحكم قبضته، كمن عثر على وثائق مؤامرة على

الحزب والثورة، قال تعال معي الى الداخل، جرني بعنف، كأنه المكلف الوحيد بتنفيذ العقاب على المجرمين، المتآمرين على الحزب والثورة.

كان في داخل البناية غرفة حبس وتحقيق، مدهونة جدرانها باللون الأصفر الفاقع، حيطانها الأربعة بلا شبابيك، موقعها أول الممر الطويل المغلق، أثاثها طاولة حديدية، وكرسي يطوى. وقفتُ بمواجهة الكرسي، في مقابل موظف أربعيني قد تربع على قاعدته بملابس مدنية نظيفة بعض الشيء.

قلبَّ الجواز ورقة بعد أخرى، قرأ الاسم مرات عدة، فتح سجلاً يقبع وحيداً على الطاولة من جهة اليمين، كان قد تهرأ من كثر الأصابع التي مرت عليه تقليباً لصفحاته، فصار أسمالاً بالية، يخشى تمزقها باللمس. قارن الاسم بأسماء أخرى، متشابهة منها، وغير متشابهة.

مشكلة العراق، أو واحدة من مشاكل أهل العراق في الجوازات والسفر، تلك الأسماء المتشابهة، وقد تكدست آلافاً في السجلات طوال سني العهود الجمهورية، لا يجرؤ أحداً مسح احداها، وإن أكدت المعلومات موت صاحبه، موثقاً بشهادة وفاة.

حمدت الله في السر، معزة بالاسم أرشد، هذا الذي منحتني إياه الأسرة قليلاً تكراره في العراق. ترك الاسم والتقليب، وصفحات سجل تعامل معها رحيماً كي لا تتهرأ، ومسك أطراف الشك وتفسير النوايا، وسيل من أسئلة لم يكن فيها رحيماً، كمن يعوض فيض الرحمة بالسجل شكاً، بالكتابة التي جاءت على الورقة النقدية، وضعها أمامه على الطاولة، وعاد يسأل عن الوجهة، وعمل الوالد

والأسرة، والغاية من السفر، ومهنة الوالدة وعشيرتها، والموقف من الحزب والثورة، بطريقة السعي الى الإيقاع شكاً بدوافع الكتابة على الورقة النقدية.

هذا الموظف رجل مخابرات، ينظر نظرة سوء يفترض المقابل مذنباً، أو معاد حتماً، ثم يسعى الى تأكيد صحة فروضه، يستمر بالضغط ما أوتي من قوة، لإثبات كل فرض على حدة. وكنت طوال ضغوطه أتذكر توصية العم حازم، إنهم ليشكون حتى في المشي، والنظرة والابتسامة في غير محلها، وقد يكون الشك بعيداً عن الموضوع الذي يجري الحديث عنه، وبأن التجاوز السليم لشكوكهم فقط، من خلال الاستمرار على إعادة الرواية الأولى التي تروى إجابة على السؤال الأول، وكانت روايتي عن الكتابة هي الصحيحة: (صديق أثناء التوديع رغب كتابة أسماء المودعين من أجل الذكرى، لم يجد ورقاً يكتب عليه، فاستعاض بهذه الورقة النقدية، وضعها في الحقيبة لما كانت على ظهري، طلب عدم قراءتها الا في عمان).

حرصت ان تكون هذه الرواية، محور إجاباتي على الأسئلة التي صارت تسقط على رأسي متواصلة، مثل زخات مطر يهوى ثقيلاً، وأبقى هو سوء النية ماثلاً لإثبات احتمالات الإساءة العمدية، الى الذات الرئاسية، ومعاداة كامنة لقيادة الحزب والثورة.

غالبية رجال الأجهزة الاستخبارية والأمنية آنذاك، مثله لا يفترضون حسن النية، حتى إنه ولما انتهى من الأسئلة، وأفرغ جعبته العقلية من الشك، هان عليه انهاء التحقيق لتسوية فروض الشك، وإطلاق السراح لعدم وجود تهمة، أو قضية، فعاد الى

التركيز على أصل النيّة. فحص الورقة من جديد، دقق في كل حرف مكتوب بخط اليد، قرأها مرة وثانية وثالثة، استشاط غضباً، قال حرف الراء هذا كانت نهايته عند رتبة السيد الرئيس القائد حفظه الله ورعاه.

- دعني أرى.

وافقته التشخيص عن هذا الحرف، الذي جاءت نهايته ناشزاً عند رتبة السيد الرئيس.

انفتحت أساريره فرحاً للحصول على اعتراف صريح، بهذه الحقبة الزمنية الموجزة، ولما تأمله انجازاً أمنياً يمكن تسجيله في الاضابير الخاصة، راح أبعد باتجاه حسم موضوع التسجيل، وسأل:

- ألم يكن هذا عمداً للانتقاص من الرتبة؟
- لِمَ تفسر هذا انتقاصاً من الرتبة، ولا تحسبه اقتراناً بين قيمة الذكرى، وعظمة الرتبة؟

هكذا أراها، وهكذا حتماً يراها صديقي الذي أراد الاحتفاظ بها، عملة ورقية مكتوب عليها ذكرى، تحمل صورة السيد الرئيس القائد حفظه الله ورعاه، واحتفاظنا بها شباب في حلنا وترحالنا، هو الأسمى، صديقي الذي دس الورقة مصراً على عدم قراءتها الا في عمان، يمتلك عقلية فنان، يتحسس هكذا ارتباطات اقتران عقلية.

من أين أتيت بهذا التفسير؟

وجه سؤالاً بانفعال غضب واضح، ثم حرك شفتيه بطريقة أنتجت ابتسامة باهته فيها قدر من الشماتة. قال إنها إساءة

عمدية، وإنه سيمنعني من السفر، ويعيدني الى بغداد. قالها بطريقة سد فيها منافذ الأمل، ودفع الى التفكير بالأسوأ. وفي لحظة التفكير حدث ضجيج خارج الغرفة والممر.

ترك رجل المخابرات المنهمك بالتحقيق مكانه، خرج يتابع ذلك الصوت الذي يستنفر الهمم، سمعت أحدهم يحث الموظفين على التهيؤ، لاستقبال السيد النائب عائداً من جهة الأردن.

لحظة، ماذا تقصد بالسيد النائب؟

سأل أمجد بتعجب.

- إنه نائب رئيس الدولة آنذاك، عزت الدوري.

انتظرت قليلاً وفجأة وبلا أي جهد للتفكير، لملمت أوراقي، أخذت جوازي المرمي على الطاولة، ابتلعت الورقة النقدية، فوجدت قدمي تركبان الهواء الى السيارة بلا خوف، ولا الرغبة بالتراجع، انتقلت اليّ عدواها من أب عمل طوال حياته عسكرياً، يحث الخطى مستعجلاً لتنفيذ قراراته.

تزايد ضجيج الأصوات، صار الموظفين، والشرطة قادة يصدرون الأوامر لسائقي السيارات الموجودة في الساحة، في أن يتحركوا على الفور.

قال جاسم أين كنت يا رجل، ربما أعادوك الى بغداد، كعادتهم كثيراً.

- تحرك !!

سمع صوتي بلهجة الأمرة، فمر من أمام جدارية الرئيس في وضع التحية، لم يوقفه الشرطي الماكث الى جوارها مكلفاً بمهام التأكد من وجود الختم الخاص بالمغادرة، كآخر إجراء في آخر متر من

أرض العراق، بل حثه على المرور سريعاً، توافقاً مع الأوامر الصادرة لأخلاء المنطقة، بغية تهيئتها أمنياً لمرور السيد النائب، حال عبورها علامة فارقة لاجتياز الحدود، أيقنت أني قد طويت سني عمري العشرين كلها، وبدأت صفحة جديدة، وحياة جديدة، لن تكون نسخة عن تلك التي فاتت بأي حال من الأحوال.

.....

استجمع السيد رب الأسرة أطراف كبريائه لحظة عبور الجدارية للحديث مع جاسم، فقال هل لك أن توقف سيارتك للحظات كي أرمي على حدود البلد العزيز سبع حجارات، تأكيداً على عدم العودة اليه ثانية، ما دام الرئيس باقياً في الحكم، فجاء صوته متهدجاً كمن غص بكرامته.

راح جاسم بعيداً في خوفه قائلاً بلهجته البغدادية (استر علينه يمعود).

هذا الذي أقوله واتمناه، الوقوف في الحال، بعد التخلص من غيمة الخوف التي كانت تمطر على الأسرة سماً طوال الأشهر الماضية، كاد يخنقهم في كل لحظة. قالها الرجل رب الأسرة، وبقيَّ في حال انتظار.

لكن جاسم لم يمهله في الاستمرار بالكلام، فسأله:

- ماذا تريد؟

وعندما لم يتلقَ الإجابة، قال لنفسه سيعود الى العراق في الغد، لا يريد الموت عفناً في أحد السجون لخوفه من الله، ولا يمكنه الوشاية، وتنفيذ مطالب الأمن من السائقين كتابة تقارير عن الحالات التي تشبه هذه الحالة.

عندها أفصح الرجل قائلاً لا تخف، فإنه قد نجا من مصيبة قبل أسابيع، قرر إثرها مغادرة البلاد الى الأبد، ومن جانبي قلت كذلك لا تخف، فأنا الآخر قد نجوت من مصيبة قبل دقائق، كادوا يعيدوني الى بغداد، لعثورهم على ورقة نقدية كتبَ عليها صديق بعض ذكريات، شكّوا بالصيغة استهدافاً (للذات الرئاسية)، لأن حرف الراء اقترب من رتبة الرئيس.

الذات الرئاسية هي المشكلة، قال الرجل وقدم نفسه، الدكتور ماهر أستاذ جراحة الجملة العصبية في كلية طب الجامعة المستنصرية، ثم استمر القول أنه كان يلقي محاضرة ومن عادته تعزيز محاضراته ببعض الأمثلة، وتلطيف الأجواء بطرفٍ نادرة زيادة في التشويق، وتثبيت التركيز. تكلم في تلك المحاضرة عن تأثيرات مواد التخدير على الجهاز العصبي، مسبباً تداعي الأفكار بشكل غير مسيطر عليها في بعض الأحيان، وضرب مثلاً عن رئيس دولة أفريقية، (نسيَّ اسمه) خضع الى تخدير عام لإجراء عملية الزائدة الدودية، وبدأت أفكاره طوال مفعول التخدير بالتداعي شريطاً لا يتوقف، عن فتوة كان فيها ريفياً متمرداً، يسرق دجاج الجيران، وعن شباب قضاه في المدينة، شقاوة يطارد بنات المحلة، يتنقل في الليل قفزاً على بيوت الجيران. ضحك الطلاب في حينها، وبعد أسبوع من المحاضرة حضرت مفرزة من الأمن، اقتادته الى دائرة أمنية في منطقة السعدون، لا يعرف تبعيتها، سأله شاب منتسب اليها، تبدو لكنته من شمال بغداد، عن القصد في موضوع الرئيس الذي قهره المخدر، واستمر في مواصلة الكلام

بقصد التقليل من قدره استاذاً، وطبيباً اختصاصياً. رد على كلامه القاسي إنها واقعة سمعها من أستاذ طب الاعصاب في محاضرة بمستشفى جامعة لندن، قبل عشرين عاماً، نسيَّ اسمه.

لم يقتنع رجل الأمن، قال إن هذا الكلام في المحاضرة دساً، واهانةً يراد من ورائها استهداف الرئيس القائد، فهو قد أجرى عملية لرفع الزائدة الدودية قبل سنوات، لكن المخدر لم يقهره، أنه العظيم الذي لا يقهر، ومع هذا حاول إقناعه مرة ثانية بعدم وجود علاقة بين الموضوعين، لكنه فشل، إذ طلب بإصرار غريب ذكر اسم الطبيب المحاضر، وتحديد مصدر الطرفة التي قالها من أجل التشويق، وتلطيف الأجواء. ولما أعاد القول إنها رواية في محاضرة منسيّة، زاد غضباً صبه على رأسه عذاب شهرين تعليقاً في السقف، وإغراقاً في حوض ماء بارد، كان طوالها يعيده الى التحقيق يومياً، ويعيد هو من جانبه الحكاية كما هي حرفياً.

ولما حاولت نوال زوجته الاتصال بالرئيس، عن طريق هاتف زودته إياها سيدة من الأسرة كانت تطببها مجاناً، رد أحد المرافقين، ساومها في أثناء المقابلة على البيت الذي يسكنوه، إرث الوالد لقاء تصديق الرواية، واطلاق السراح على الفور، اضطروا الى التسليم بالقدر الحاكم، والأمر الواقع، فضلّوا شراء الحرية بما يملكونه بيتاً على دجلة من جهة الأعظمية. كانت بمثابة رشوة، أعقبتها رشوة أخرى لضابط في دائرة الجوازات العامة، لإصدار جوازاً له يختلف فيه الاسم لمنعه أصلاً من السفر، وتأشيرة رسمية على جواز نوال، وسلوى، وحيدتهم في هذه الدنيا.

سكت وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فنطقت سلوى بعد صمت طوال الساعات التي انقضت، كأن تياراً كهربائياً مجهولاً سرى في شراييها المتيبسة، وصار وجهها الحنطي محمراً كمن داهمتها الحمى، ونزلت الدموع من عينيها غزيرة، وكأنها كسرت حاجز الخوف الذي كبلها طوال الطريق. جففت مآقيها بطرف منديل ورقي، أخرجته من حقيبة والدتها اليدوية، ثم نظرت ملياً الى وجه أبيها ابتسمت بامتنان، قالت شكراً.

أما نوال الطبيبة النسائية المختصة، فهي بلا مشاعر، اكتفت بالبكاء طوال المسافة المتبقية الى الجوازات الأردنية، بكاءَ ذعرٍ بلا صوت.

لقد تلبدت الأجواء بعد تقديم الدكتور لنفسه بمشاعر، اختلط فيها الحزن بالفرح.

قلت من أجل تغيير الأمزجة، أنا مثلكَ دكتور تمنيت الأمنية ذاتها بالوقوف ورمي الحجارة السبع، لكني لم أجرؤ على التصريح بها بعد سماع قصتك، أخذت على نفسي وعداً بالتنازل اليك الأولى في رميها عني وعنك، بل وعن أهل لنا صارت بلادهم مصنعاً لإنتاج الألم، لا أخفي شعوري وانا اتنفس هواء الحرية الآن، وكأني ولدت تواً، ولا أنكر رائحة الهواء الخالي من العفن، ولا أخفي انبساط مزاجي، حتى أني احسست نشوة غريبة، وكأني قد أخذت جرعة مخدر أفقدتني السيطرة على ذاتي المتعبة.

ضحك الدكتور، وأفراد الأسرة.

شعرت بعد تغير المزاج، كأن أبواب الأمل قد فتحت من أمامي ثانية لتحقيق الحلم، دراسة في المكان الذي أريد، وفي الوقت الذي

أريد، كذلك قول الذي أريد، والتصرف بالشكل الذي يمليه علي العقل.

بدأت من بعد هذا الشعور السار، دفقة آمل تتراءى على شكل صور تأملية، ملأت المخيلة مثل شريط سينمائي، أوقفها جاسم بإيماءة الترجل من أجل التوجه الى الجوازات الأردنية. فتحتُ الباب لأترجل، حال وضعي القدم اليمنى على الأرض الأردنية، وقبل استقرارها تماماً تملكني إحساس غريب، خيل اليَّ في لحظة ما أني أدخل عالماً آخر لم اعتده.

.....

(٢)

استعرض الدكتور ماهر وجوه الاكداس البشرية سائلاً:

- لم هذا الازدحام في مركز جوازات الكرامة؟

أجبته وأنا مثلك أرى أسراب المغادرين قد تضاعفت أعدادها، أظن أنها صارت هكذا، منذ أن فرض الحصار، وتعطل الطيران خنقاً، وأضفت باستهزاء:

حمداً لله استثناء الأمريكان هذا المنفذ، وإبقاء أبوابه مفتوحة نزولاً عند رغبة الرئيس الأمريكي إنصافنا أبناء الرافدين. لقد جعل الرجل من عمان بإنصافه العتيد، عقدة تواصل واتصال، من على أرضها نفترق في بقاع العالم، نعرض خدماتنا رخيصة تؤهلنا منافسة الآخرين من معوزي أفريقيا وآسيا وباقي البلدان، لم ينسَّ الرجل الأب انصاف المهاجرين وطالبي اللجوء، ومكاتب فتحت دكاكينها، وتوسعت في العاصمة عمان، تُوصل بعضاً، وتترك غيرهم في شِبْاك المهربين يتمرغون بوحل القدر، وباعة أرصفة، يعرضون بضاعتهم وأنفسهم رخيصة كي يعيشوا، وقد لا يعيشون، فيدرجون أسماءهم في قوائم المتسولين.

وقفتُ بينهم في الصف الأول على اليمين، يجاور صفوفاً لهم تفضي الى ضباط جوازات، ظننت ان فض الزحام سيقتطع من النهار نصفه، وظننت أنه لم يبق أحد في العراق، الا حزم حوائجه، واقفاً في الدور سعياً لمغادرة البلاد.

دقائق لم تتجاوز العشرين مددت يدي اليمين لاستلام الجواز مختوماً، نظرت الى تفاصيل الختم تحت ضغط الوسواس، أيقنت

حال النظر اليه أني لذاهب بلا عودة.

خرجت من تلك القاعة المكتظة مزهواً بالنصر على تاريخ قراءته في صفوف الدراسة بعضه محرفاً، وعلى حاضر جله مشوهاً، وجدت الدكتور قد قرر نيابة عني أخذ استراحة طريق، قال انه يحتاج وقتاً لخفض التوتر، كاد ينفجر من فرط الكتمان.

اعتذرَ حثه السائق التحرك من غيري، لمّا تأخرت في غرفة التحقيق، نوه الى أنه كان يعاني ضغطاً شديداً، لأن جوازاتهم مزورة، ولأن الأسرة معه جعلته يفقد التركيز.

ابتسمتُ راضياً متسامحاً، فالرجل وقور يلزم المقابل تقديم الاحترام. قلت لا تأبه فإني مثلك قلق، والموقف السائد في نقطة طربيل، لا يتحمل البطولات.

سأل عن الوجهة والأصل والنية، ثم دعاني الى مائدة الافطار، متأملاً عدم الممانعة، ولتأكيد تلبية الدعوة تصرف بدافع العمر الذي يفرض عدم الممانعة فهو يكبرني بعقود.

لا أعرف لماذا فعل ذلك، لكنه أضاف، أن فراق الأسرة يثير شوق الجلوس على مائدة إفطار عائلية. أعطى عن نفسه مثالاً يوم كان طالباً يدرس الطب، في لندن عاصمة الضباب.

نُصبتْ مائدة الفطور العامرة بأصناف الطعام، طلبها الرجل بسخاء، طال أمد تناولها أو بالأحرى تناول قسماً منها ساعة زمن مضغوطة، لم يسكت عن ذكر السجن بهتاناً بتهمة المس بالذات الرئاسية، وعن طبع له ليس فيه ميل الى الذم أو الانتقاد.

اعترف من خزين ذاكرته القريبة ألما، وحكايات عن التعذيب والكوابيس.

حاولت الدكتورة التدخل، لمنعه عن ذكر التفاصيل أكثر من مرة، تنبه في آخرها، أوجز قائلاً إن ما حدث نمط من أنماط السلوك السادي، أصيب به رجال الأمن عدوى انتقلت الى نفوسهم من الرئيس، الذي لا يستطيع التعامل مع مشكلاته النفسية الخاصة، الا من باب السلوك العدواني المنحرف، صار اتباعه ساديين، يستشعرون لذة الحياة بتعذيب الآخرين عذاباً، يرونه أكثر قسوة من القتل. ختم حديثه وسأل:

- بلد يتسلى أهله بذكريات قهرهم، وخيبة أملهم المتكررة !!!

بادلت حكايته بحكاية سجن الوالد، كذلك وشاية وكتابة تقرير، بغية تغيير المسار الخاص بذكر التفاصيل.

تنهد بقوة، نوه عن قرار في داخله التوجه الى بريطانياً، فهو خريج جامعاتها، وعضو في جمعياتها الطبية، سبق له العمل بعد تخرجه اختصاصياً للجملة العصبية بمستشفى سانت ميري في لندن، قبل عودته لخدمة البلاد، أكد أن له في المستشفى زملاء أخبروه، عدم حلول اختصاصي بكفاءته في المكان حتى هذه اللحظة.

وكيف ستتجاوز مشكلة الجواز الذي فهمت حصولك عليه مزوراً بغير اسمك؟

سألته بسذاجة.

ضحك بانشراح، قال عنها المرحلة الأسهل في طريقه الوعر، إذ أن لديه عنوان رجل عراقي في عمان، يأتي الجواز الذي يريد والاسم

الذي يختار، الى الفندق الذي يقيم، على هذا سيحصل على جواز مزور، فيه الاسم والمهنة صحيحان، والله يحب المحسنين.
صاح جاسم من مكانه خلف مقود السيارة، علينا التحرك، فامتثلنا لصيحته، وكأنه ولي أمرنا طوال الطريق.

سرنا الأربعة معاً صوب السيارة التي وقفت هادئة، على حافة الشارع القريب، تباطأت سلوى في سيرها محمرة الخدين متوردة، تأخرتْ خطوة الى الوراء كأنها متعمدة، همست بابتسامة جميلة خجلة من أن والدها طيب القلب ودود، تغيّرَ مزاجه بعد سجنه بلا سبب، وخسارته البيت والعيادة، وما أدخر من مال.

سكتت قليلاً كمن تداري خجلها، وأكملت مستفسرة عن كثر المودعين من الشباب، قبل ركوبنا السيارة في حافظ القاضي وما بعدها، وعن طبيعة العلاقة بهم، ومقدار التعلق بصداقات من هذا النوع.

أجبت مسروراً، هم أصدقاء الطفولة، والدراسة في كلية بغداد، والسكن معاً في محلة المغرب، وعدم الافتراق منذ الدراسة الابتدائية، فراقهم كان فيه غصة وألم.

من هيأتك وسيرة كلامك تبدو مهاجراً مثلنا بلا عودة، سألت بتردد.

أجبتها ستكون هجرتي مثل هجرتكم، أشعر وكأني زعلان على بلدي، أو إنه قد خذلني شاباً لم أحقق ذاتي، أتخيل بلدي جنة اغتصبها الأعداء في غفلة من أمره، سيحولونها صحراء قاحلة، لا أحب العيش في الصحراء، وسوف لن أعيشها مكرهاً أو بإرادتي.

- أين وجهتك الأولى؟

- ليبيا، حيث تقيم الأسرة.

لم يتوقف سيل الأسئلة عن الدراسة والدولة وبريطانيا.

لكني فارقت أسرتي التي أحبها من سنتين، الفراق الأول في حياتي، فتكونت لي أولويات أقربها الالتحاق بهم، اشباع حاجة الانتماء اليهم، ومن هناك سأحدد الوجهة التي أقصدها دراسة الهندسة، الأهم من بين باقي الأولويات. قلتها بوضوح، فسكتت قليلاً كأنها تفكر في اختيار الكلمات التي تريد وعاودت القول، انها قد نجحت الى الصف السادس الثانوي في اعدادية المتميزات، كانت الأولى على الصف والمدرسة طوال سني الدراسة، اضطرت الى تركها، مقتنعة بآراء والدها لما يتعلق بحتمية تركها لخطورة العيش في العراق، بعد تجربة صعبة، لا يريد معاودة المرور بها ثانية، ولا يريد مواجهتها "موقفاً"، تكون فيه محل مساومة، بعد أن قص لها عن المساومة والسقوط الآسن، قصصاً لعوائل معروفة وضياع بنات، يقترب وقعها من الخيال، حتى أصيبت بسبب تكرار ذكرها بالرعب، وتجنب الاختلاط، وتكوين دافع ذاتي قوي الى الهجرة مشفوعة بوعد إكمال الدراسة في مجال الطب.

بادلتها الابتسامة كذلك شجناً، أشرتُ الى دراسة تركتها، وحلم راودني منذ الصغر، والى حدوث هذا التحول تحت وقع القلق الآتي من اضطراب الأمن، والمستقبل المجهول، وضغوط الوالد المستمرة على تركها، والالتحاق بالأسرة الى طرابلس العاصمة الليبية، تفادياً لغضب النظام، ختمتُ الإشارة تنويهاً عن تشاركنا نحن الشباب العراقيون، الأسباب ذاتها لتنفيذ نوايا الهجرة لتحقيق الذات.

ردت، وقد تعثرت بمشيتها المتهادية، من أنها تشعر كذلك بتحول في حياتها، ورغبة في تحقيق الذات، لكنها باتت تحس الغربة من الآن منذ اللحظة التي ختم فيها الضابط جوازها خروجاً من أرض العراق، حتى أنها أدارت وجهها صوب الشرق حسرة حال عبور الجدارية، شمّت رائحة العراق، من جنوبه الى الشمال، فدمعت عيناها غصباً، على الرغم من فرحة النجاة.

إنها مشاعر أحسبها مؤقتة ستنتهي حال الاستقرار، والعودة الى صفوف الدراسة، قلت غير واثق من النتيجة، أجابت بصوت خافت في نبرته خدش، هي تتمنى ذلك، وهي سعيدة سماع هذا الكلام الذي يبعث على الطمأنينة، لمستقبل تخشى أن يكون مجهولاً.

نظرتُ اليها نظرة إعجاب وأجبت بتأن، من يدري قد نلتقي في جامعة واحدة أو في بلدة واحدة، لنكسر طوق المجهول.

ردت وما زال الكلام بين شفتيها يتعثر، يا رب.

.....

توقف جاسم عند المرآب القريب من الساحة الهاشمية، وقرص الشمس تحول الى بيضة محاطة بألوان الشفق الأحمر، وهي تقترب من الأفق البعيد لتختفي في العتمة، بدت الرحلة طويلة من بغداد الى عمان، قضينا ثلاثاً وعشرين ساعة من القلق والخوف والترقب، جعلتنا نقف في مكان الترجل دقائق، لإعادة فاعلية العضلات التي تيبس بعضها كسلاً، ومساعدة القلب على انتظام الضرب دفعاً لمسير الدم في الشرايين، وتجديد النشاط.

قال انظروا الى المرآب كيف يبدو مزدحماً، وكأنه نسخة طبق الأصل لمركز الكرامة الحدودي، لكنه أكثر إثارة لمعاني الانبساط، يقارب الشبه ساحة من سوح بغداد المكتظة بعابري السبيل، وطالبي الرزق الحلال، رفع يده ملوحاً لسائق سيارة (GMC) وقفت خلف سيارته مباشرة، قادمة هي أيضاً من العراق، صعد الى أعلاها واحد من ركابها شاب عشريني، رفع الحقائب واحدة تلو أخرى، يسأل عن صاحبها يناوله إياها بهدوء. كانت حقيبته الأخيرة، لوح بها متأرجحة بين الأعلى والأسفل، ثم رماها وهو يضحك:

- (مودعة بالله).

نظر الى من في الساحة، عدّل من وقفته منتصباً أعلى قمرة السيارة، كأنه يمثل دوراً جاداً على خشبة مسرح، التفت الى زملائه الركاب وآخرين يتابعون، أخرج من جيبه نظارة شمسية سوداء حجبت عيناه، رفع يده اليمين عالياً، حيا الجمهور تقليداً لتحايا الرئيس. تجمع حول السيارة المسرح جمهور عراقي خليط من كل الأجناس، حاول بعضهم التماهي بحركاته في التعبير عن الحرية، وانتقاد الرئيس.

مسكت سلوى يد والدها بحركة طفولية، طالبة البقاء قليلاً لإتمام المشاهدة، ضحكت بملء شدقيها فبان جمالها الطبيعي الأخاذ، التفَتَتْ من بعدها نحوي مؤكدة أن العرض هذا فأل خير، فالتمتع بالحرية شيء جميل.

أجبت بلا تأخير أن الحرية هي الأسمى والأجمل.

بقيّ الشاب في وضع يحييّ فيه جمهور زاد تفاعله فرحاً بالحرية، ونحن الأربعة واقفون مثل الآخرين فرحين أيضاً، بالحرية وبجرأته على كسر حواجز الخوف، تقدم في هذه الأثناء شاب عراقي آخر، قال مازحاً بلهجة بصرية واضحة، (للحائط آذان، وللساحة روادها من رجال المخابرات العراقية، يسجلون صوتاً وصورة)، توقف الممثل الجريء عند أداء الدور الكوميدي، دخل في حالة شرود لثوان وكأن تياراً كهربائياً أفقده الوعي، نزل من بعده بطيئاً نادماً، أخذ حقيبته، وضعها على ظهره المنتصب عمودياً، وانسحب يفتش عن فندق قريب.

أشر الدكتور إليه وهو ينسحب من المكان، بالقول إنه يعبر عن واقع العراقيين جميعاً، نخاف خيال الرئيس، تمنى التخلص من هذا الخوف المقيّد للحرية، ثم ألقى التحية مودعاً، كذلك فعلت الدكتورة منال، ومثلهما فعلت سلوى التي انفتحت أساريرها أملاً بمستقبل خال من القيود، قالت بدعابة حلوة وهي تحث الخطى، سأدرس الطب، وتحديداً في لندن مهما طال الزمن، وكثرت العقبات، أجبتها وأنا ماش بلا هدى باتجاه يقع عكس اتجاههما، وأنا سأدرس الهندسة مهما كان.

عجت الساحة الهاشمية بالعراقيين، وكانت الفنادق القريبة منها مفتوحة لعموم القادمين من بعيد، أسعار المبيت فيها معقولة تبدأ من خمسة دنانير أردنية الى الخمسين ديناراً، استغرق الوقت ساعة، كانت كافية للحصول على غرفة بسرير مفرد وبسعر خمسة دنانير .

وضعتُ حقيبتي على سرير يجاور الشباك، ووضع محمود حقيبته على السرير الآخر. محمود نتاج تعارف الساحة الهاشمية، شاب موصلي يكبرني بأربع سنوات، لقد بدا لي كأنه وجودي، لا يؤمن بتفسير نشأة الكون الديني، لا أدري ان كان ملحدا بالفعل أو أنه يتصرف هكذا بدافع الشعور بالعجز والخواء الداخلي، أنهى دراسته الجامعية في العام الماضي، تدل هيئته عيشاً مترفاً، وتدل ألفاظه أثناء الكلام، اجتهاداً في تشكيل عبارات التسفيه، وكأن على أطرف لسانه ملقن ماهر، يلهمه ابتداع أصول النقد، والانتقاص من قدر الآخرين. أفرج في أول خطوة عن نواياه الذهاب الى ليبيا لملاقاة ابن عم له، يُجهزُ خطة خروجهما تهريباً الى أوربا، لم يذكر التفاصيل، يبدو من طبعه عدم الاهتمام بالتفاصيل.

قلت انتظرني في الأسفل لديّ اتصال هاتفي، مع الوالدة التي وعدتْ تجلس أمام الهاتف في بيت صديق للأسرة، ليبي لأطمئنها. جاء الصوت عن طريق البدالة دافئاً، تملؤه عبارات حنان، تمنيت البقاء في حال السماع، لكنها كسرت طوق السماع بسؤال عن الصحة، وكأنها هي تريد الأخرى الركون الى السماع، فأوجزت بكلمة واحدة، نجحت، ثم عاودتُ التكرار بلهفة مشتاق: لقد نجحت يا أمي في عبور الحدود، تخلصت من كل الأعباء، سأكون في طرابلس قريباً، محتاج ذاك الحضن الدافئ، وفطور صباح من يد هي الأحلى، والأحن في هذا الكون. أجابت عبر الأثير، سأعد الساعات في انتظار الوصول، سوف لن أنام، حلمت بك ليلة أمس مرتدياً رداء التخرج من الهندسة، وقبعة لم تكن سوداء.

.....

بلغ القيض أوجه، وكان جو عمان في الليل معتدلاً، كأنه لا ينتمي الى ذاك القيض، شوارعها القديمة نظيفة، والمشي على سطوحها منعش، هذا الليل مناسب جداً للتخلص من قيود الاحتباس داخل حدود العراق، ونفض بقايا الغبار، شعرت للمرة الأولى اني قادر على ان أتكلم بوضوح منتقداً بعض معالم السلوك الأمني، ثم استحضرت في نفسي حكاية الأستاذ، والأمن الذي اقتحم المحاضرة، قشة قسمت ظهر البقاء الى الأبد.

ضحك محمود استهزاءً، قال هذه لا تساوي ثمن قصها أمام حكاية حصلت لأستاذ في جامعته الموصل، كان إبان حدوثها طالباً في السنة الأخيرة لدراسة التاريخ، وكان المحاضر استاذاً في التاريخ العباسي، بدأ محاضرته واصفاً ذلك العهد، قال وعلى الرغم من التطور والرقي الذي وصل اليه، والوصف الذي استحقه عصراً ذهبياً في تاريخ الأمة العربية، الا إنه لا يخلو من المجون، فقد اعتاد بعض خلفاؤه احاطة أنفسهم بجمع من شعراء مدّاحين، ومغنيين وجوار وغلمان، واعتادوا إباحة مال المسلمين عطايا وهبات، تطرق في المحاضرة ذاتها الى تعلق الخليفة المهدي بالجارية جوهر، المشهورة بجمالها والدهاء والفطنة، وكيف صارت حظوتها عنده عالية، وكيف اكتسبت سلطة تأثير لا تدانيها سلطة في ذاك الزمان، وعن المستعصم بالله آخر خلفائهم، قال مولعاً بالذهب أكثر من اهتمامه بالرعايا، رفض تخصيص رواتب للجند من ماله المكنوز، وتمنع عن الدفع من ذهبه قسماً بسيطاً

الى جيش اقتراحه ليكون قادراً على حماية الخلافة من المغول، خاتماً محاضرته بالتشكيك في الرواية العباسية عن ابن العلقمي.

انتهت المحاضرة الأولى، وجاءت الأخيرة في سلسلة محاضرات ذاك اليوم، امتحان لشعبتي التاريخ في المدرج الأرضي، وبعد توزيع الأسئلة بدقائق، والطلاب منهمكون في التفتيش بين العقول عن الإجابات المناسبة، دخل أربعة مسلحين بملابس زيتوني، تتقدمهم قسوتهم بوضوح، توجهوا الى الأستاذ مباشرة، طلب منه أحدهم بصوت عالٍ، ضرورة التوجه معهم، ولما سأله الى أين، تلقى ضربة كف تركت بصمة على خده الأيمن، اقتادوه معهم وهو متعثراً بأذيال خطواته، متهماً بعداء الأمة العربية، وَتعمد تشويه التاريخ، ومن ذاك اليوم حتى ترك الموصل مضى أكثر من عام على الحادثة، لم يظهر الأستاذ، ولم يتكلم أحد عن الموضوع.

قلتُ لنقلب صفحة، نمتعُ أنفسنا بمعنى الحرية، أيدني في القول، فوجدت نفسي أقفز على الرصيف بلا معنى، أدركت بعد هذا القفز المشوه، إني أتصرف هكذا للتخلص من قيود تكبيل، لازمتني طوال عيش لغالبية السنوات الثلاث الأخيرة.

لم يكن فندق الروضة بغرفه البائسة رخيصاً يحتكم على فطور، ولم نكن نرغب هدر الوقت نوماً، فنهضنا عند السابعة صباحاً، وإن لم تأخذ أجسامنا كفايتها من النوم، لأننا عدنا الى تلك الأسرة، عند الساعة الرابعة صباحاً، حيث ادركنا اننا بحاجة لإراحة اجسادنا المنهكة بإغفاءة طويلة. فركَ كل منا عينيّه أملاً في قهر الكسل، جمعنا الحوائج المبعثرة على أرضية الغرفة، وأطراف

السرير ببطء، وضعناها في حقائب الظهر، خرجنا من الفندق في وضع قلدنا فيه سلوك السائحين الغربيين، توجهنا بعد أخذ الفطور فلافل من عربة أصلها عراقي، واقفة جوار الساحة الهاشمية، سرنا باتجاه مستقيم الى مكتب سفريات وسط البلد، نسأل عن وسيلة رخيصة، تقلنا الى الجماهيرية العظمى نهاية المطاف.

قالت موظفة شابة، هناك رحلة باص الى بنغازي، تعبر خليج العقبة في عبّارة، تنطلق تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، سعر التذكرة عشرون ديناراً. سلمتُ عشرين ديناراً، وكذلك فعل محمود، وحصلنا على تذكرتين، وفسحة تجوال لساعة واحدة حول المكان، إذ أكدت ضرورة الحضور الى موقف الحافلة جوار المكتب، قبل تحركها الى ميناء العقبة في الساعة العاشرة تماماً.

.....

تحركت الحافلة في الوقت المحدد، الأردنيون ملتزمين في الوقت، ونظام النقل عندهم إرث انجليزي، حافظوا عليه بقدر مقبول، نظرتُ الى الركاب في جولة بَصْرِيّة سريعة، أكثرهم عراقيون أسر تنوي الهجرة، وشباب استنفروا الجهد من أجل الهجرة، أساتذة جامعات حصلوا عقود عمل في التدريس، تؤهلهم الى الهجرة، وآخرون يجمعون شمل الشتات، مع أسرهم لهم تنتظر فرصاً لإتمام الهجرة، وقليل من الفلسطينيين يقيمون، أو تقيم أسرهم في ليبياً هم من أرسى قواعد الهجرة.

ليبيا مثل العراق، لم تكن أرضها في السابق ممراً للهجرة، ولم يكن أهلها يفكرون بالهجرة، قبل احكام الطوق على رقابهم من رجال الثورة، إنهم وفي هذا العصر وبدوافع الثورة، بدأوا التفكير والمحاولة، وصاروا طريقاً بحرياً نشطاً، ودرباً من دروب الهجرة، يتراخى على جوانبه أحياناً بعض رجال الدولة، ظناً منهم بوقع الهجرة مجالاً، لتصريف الغل نحو الاوربيين، قائد الثورة كبير هذه الدولة، يبدي مقتاً للأوربيين، وهم مثل أهل العراق في المشاعر القومية، يتعاطفون مع الفلسطينيين مرة ويخذلونهم أخرى، يسعون لكسب ود العرب وحدة من المحيط الى الخليج مرة، وفي الطريق يهدمون كل آمال الوحدة، بتعزيز الفرقة بين أبناء العمومة أكثر من مرة، قائدهم مثل قائدنا ثوري، يرى في سلوكه حقاً هو الأوحد، وفي سلوك غيره شك بالمطلق.

انطلقت الحافلة في تحركها مسرعةً، أعدت النظر الى الجالسين معي ثانية، ثلاثون نفراً، بينهم خمس نساء، وما تبقَّ رجال أكثرهم شباب، في رحلة تقطع قارتين لمسافة تزيد عن الألفي كيلومتر.

خيّمَ هدوء الغفلة على أولئك الثلاثين، لكن هدوء الغفلة لمن في أعمار الشباب لن يدوم طويلاً، وحال خروجه من حدود العاصمة عمان، معلناً استقامته على الطريق الخارجي باتجاه العقبة، سيطر الشباب على الموقف، كسروا أطواق الغفلة، غيروا الهدوء الى صخب، وضع أحدهم شريط كاسيت في آلة تسجيل، جلبها معه من الناصرية، أغان راقصة للمطربة سعاد عبد الله، انسجم مع أغنية لها (آنا المسيكينه)، وكذلك جمهور الثلاثين، صفقوا لها توافقاً مع وقع الاغنية الراقص، حتى كاد يطير كبيرهم الحاج حازم

الفلسطيني من الفرح، تآزراً مع تحرك الشباب العراقيين، وصفهم في أول كلمة له أهل شهامة.

تحمس محمود من مكانه، أخرج من جيب حقيبته شريط كاسيت لأغاني موصلية، قال بلهجة مدينته المميزة (كوي يا جماعة كن اشتقت للموصل، ممكن نسمع طرب موصلي، بقه يخفف الغربة).

أيده الجميع، كانوا منسجمين في الاستماع الى أي أغنية للتعامل مع وقع الطريق، أربع ساعات لاجتيازه حداً أدنى، علها تسهم في التعافي من جروح الغربة، أخذ الشاب صاحب آلة التسجيل شريط الكاسيت من محمود، وضعه بدلاً عن الشريط الخاص بسعاد عبد الله بعد انتهاء آخر اغنية لها (أهواك، وأتمنى أعيش وياك).

أعاد الثلاثون تصفيقهم بالحرارة ذاتها، وإن لم يفهم أكثرهم، معنى الكلام. كانوا رفاق باص منفعلون، يعبرون عن قلقهم المكبوت بافتعال الغناء، والضحك قهقهة على أي شيء، لكني وبإمعان النظر الى سلوكهم وبعض حركاتهم، اقتنعت أن ضحكهم وطربهم ليس دليلاً على سعادتهم.

سأل الشيخ الفلسطيني في لجة الصخب، عن المعنى الحقيقي لبعض الكلمات، رجاه محمود الانتظار حتى نهاية المقطع، ومن بعدها سيفسر، ولما دخل في حومة التفسير أعلن السائق، وصول ميناء العقبة في طريقه الى العبارة.

.....

دخلتْ الحافلة بقامتها مرفوعة الرأس، عبّارةً راسية الى الجنب، ركابها الثلاثون حمولة هي القصوى، بقوا في أماكنهم جالسين، ينتظرون التعليمات من السائق قائد الرحلة، وعامل حرر حبال الرسو غليظة، كانت تربطها بأمان الى حافات كونكريتية، لها جذور تمتد أمتاراً في الأعماق، وآخراً ضغط زراً مثبتاً على ركن العبارة من الخلف، رُفعت على إثره وصلات معدنية، كانت ممتدة لمرور السيارات، من بعد تحررها عن اليابسة، أعطاها القبطان دفعة وقود أثارت ضجيجاً أبعدها عن المرسى، وضعها في مسار البحر عابرة الى الضفة الأخرى.

أذنَ السائق نزولنا ركاب الباص، ترجلنا جميعاً الا الشيخ الفلسطيني، فضّلَ التمتع بالراحة، بقاءً على الكرسي المكسو بالقماش، انتشرنا في ربوع العبارة كل على هواه، أخذني هواي الى مكان وقوف في المقدمة، نظرت الى الأمام، سحبت نفساً عميقاً، ملأ رئتيَّ رطوبة بحر زادت من حرارة جسمي المستنفرة، عدت بالنظر الى ذاتي، تخيلت، وكأني أقلد فيها، ليوناردو دي كابريو في فلم تيتانك، تنقصني البطلة، كيت وينسليت. ضحكت مع نفسي مخاطبا إياها بالقول، لا يحتاج من يتأمل وقفتي كثيراً من الفهم، ليدرك أني أقلد ذلك الممثل في وقفته، وقفة يحتاج اتمام أناقتها رفيقة وقبلة.

كنت مبهوراً بالبحر فلم اشاهده من قبل، رحت أراقب أمواجاً ترتطم بالمقدمة، تنشطر نصفين يتوزعان على جوانبها بالتساوي، امتد نظري الى البعيد، الى أفق تتلاقى فيه السماء مع الماء في منظر جميل، كأنهما عاشقان التقيا بعد فراق طويل، يتعانقان بلهفة.

اشتهت نفسي الطعام على الرغم من تناولي الغداء في الحافلة قبل ساعة، فأخرجت من حقيبتي شطيرة لحم، كنت قد وضعتها متاعاً طارئاً الى الطريق، أخذت قضمةً هي الأولى، فحامت قريباً جوقة نوارس، كانت تحلق متربصة حول العبارة، أصواتها تتناغم مع أمواج البحر منسجمة، تعطي النفْس هدوءاً غريباً.

تلك النوارس تتفاهم، لاقتسام ما يرميه المسافر تعاطفاً مع أنغام الصوت، وربما تتعمد هذه الحركات في التحليق اقتراباً، وابتعاداً لتبادل أدوار الاغراء فيما بينها، أو هكذا تخيلتها وفسرت لغتها، فغازلها بفُتْات من الخبز، وهي من جانبها تزيد الحركات استعراضية لتجرني صوب الاستمرار بالغزل، حتى وجدت نفسي قد أهديتها الشطيرة كاملة، وابتعدت وهي تبادلني التحية بعد إدراكها اكمال اللفة ابتعدت عني وهي تتراقص، كأنها تبادل التحية.

حضر محمود مع شباب آخرين الى المقدمة، اقترحوا التحرك صوب الوسط، لغرض الاحتفال على الطريقة العراقية صخباً موسيقياً، وغناءً راقصاً امتداداً شرعياً لما قدموه في الحافلة، قلت إني واقف هنا في مكاني أراقب البحر، وسأمكث الساعات الخمس التي حددها القبطان زمناً للعبور، حال انطلاق عبارته من مرساها في العقبة الأردنية، حتى رسوها في ميناء نويبع المصري، أتحسس العلاقة الوثيقة بمياه البحر لا أريد فراقه.

ضحك محمود ومن معه استخفافاً، من مراقبتي البحر، ومع هذا تركوني واقفاً في تلك البقعة من العبارة أتأمل البحر، وصور الأهل والمستقبل المجهول، أفكاراً تتناثر وصوراً عقلية تظهر عالية، وتخبو كما هي أمواج البحر، حتى أطلق القبطان صوت التنبيه

مشيراً، الى الاقتراب من النويبع، والطلب من المسافرين الذهاب الى سياراتهم بغية التهيؤ الى المغادرة عبر مكتب الجوازات، مع تمنيات بسلامة الإقامة والسفر لما بقيَّ من الطريق.

.....

(٣)

أعلن الربان بصوته الجهوري المميز، عن الاستعداد للرسو عبر سماعات الصوت، فاتكأت العبارة على الرصيف وسكتت محركاتها، بعد خمس ساعات من الصخب لزمن الإبحار. فتحنا نحن الركاب مجسات حواسنا لسماع المزيد، فجاء إعلان آخر بالصوت ذاته (على ركاب الحافلة المتجهة الى بنغازي، الترجل، والوقوف صفاً واحداً).

سألت سائق الحافلة الأردني، عن السبب، قال هناك تغيير في الخطة، ستبدل الحافلة الأردنية بحافلة مصرية.

لكن الاتفاق الرسمي، ينص على إتمام النقل على متنها حافلة أردنية الى مدينة بنغازي، قلتها باستغراب، فضحك مستهزئاً، وقال لا تجزع فإن الاتفاق في بلداننا العربية لا يصمد طويلاً، عندها نزلت والآخرين، انتظمنا في رتل مفرد، وقف الى جواره شرطيان يرتديان البدل الرسمية البيضاء، صار أحدهما برتبة عريف قائداً، جمع الجوازات، مشى في أول الرتل متبختراً بشرائطه الثلاثة، ومشى في آخره شرطياً بلا شرائط، كانا يتجهان بنا نحو حافلة تقف عند ناصية الشارع الملاصق لرصيف الميناء.

أعطى العريف إشارة الصعود اليها تباعاً، وفي يده ورقة بالأسماء حسب التسلسل، وبعد تأكده من اكتمال العدد، ألقى التحية مختصرة بلهجته المصرية المعروفة (إزْيُكمْ)، ثم واصل الكلام، مصحوباً بإيماءات من يده التي تحمل الشرائط الثلاثة أعلى الرسغ، قال إنكم مسافرون ترانزيت، ستعبرون مصر من غير الحصول على

التأشيرة الخاصة بالدخول، وسأكون ومرافقي، وأشار الى زميله الذي لا يحمل شرائط، معكم حتى الحدود المصرية الليبية في السلوم، وسيكون النزول من الحافلة بأمر، والصعود اليها بأمر، وستكون الجوازات أمانة عنده، يسلمها في نقطة الحدود، عرّفَ عن نفسه قال: أنا شوقي، وهذا زميلي حنفي ثم نظر الى الركاب الثلاثين نظرة فيها كثير من الارتياب كما يفعل رجال الامن عادة، أشار الى سائق الحافلة بعد تيقنه من السلامة الأمنية، قائلاً بصوت مسموع (ياله بينا يا سيد).

تحركت الحافلة على أعتاب كلمات العريف القائد، بانت مصر من شبابيكها الزجاجية ناصعة، دخلها الغبار من كل جانب حتى بدت كأنها قطعة من القرميد الباهت، مصر أم الدنيا جميلة حتى في قرميدها وقفارها، إنها التاريخ الذي يمتد طويلاً، الى زمن الفراعنة والاهرامات.

سكت الركاب عن بكرة أبيهم، عمَّ الأجواء صمت مهيب، يشبه صمت أولئك الذين يتجهون نحو المجهول، فالركاب عرب، تعلموا الصمت في التدجين المدرسي، وتعلموا الاستجابة سكوتاً، الا محمود فقد شذ عن القاعدة العامة، لم يسكته الوجل، قرّب فمه قريباً من أذنيَ اليسرى، همس عن بطولاته في العراق، لم أفهم منها شيئاً لأني كنت أخضع لرهبة الصمت الذي كان يلف ركاب الحافلة.

لكن شوقي كان مثل غالب المصريين ودوداً ميالاً الى المرح، أدرك معنى السكوت، وَوقْع التعليمات الصادرة عن الطريق، وأدرك أيضا صيغ الأوامر قولاً لا يستحسنها الشباب، فحول نظره لحظة المغادرة القلقة نحو أطراف الميناء، وبلمح البصر تحول من رجل

أمن، الى دليل سياحي محترف في مسعى لكسر حاجز الصمت، قال عن نويبع ميناء قديم، استعمله المصريون، والعرب في التنقل والتجارة، عبر مغارب منطقتهم ومشارقها، أنعم الله على أهله عيون ماء زلال تجاور البحر المالح، أعانتهم على سد حاجتهم للشرب، وفائض منه كاف لأغراض الزراعة. وأومأ بيده اليمنى، باتجاه بساتين نخيل تنبت شامخة على شكل صفوف متوازية، تحاذي الطريق، وأضاف متوتداً، إنها لم تبلغ من حيث الكثرة، والجودة نخيل أهل العراق، ثم استمر ببعث الإشارات الى بساتين مانجو وحمضيات، مد وسطها الطريق آفاقه، وعند حافة آخر بستان منها غادره الباص، تحول المرشد السياحي الى محاضر في علم الاجتماع، واصفاً الفلاح في بقعة الأرض هذه وعموم وادي النيل، إنسان بسيط قنوع، يحب الأرض يكرمها عملاً طوال النهار، ثم تحول من بعد هذا الى تقني، وصف الزراعة في عموم البلاد متأخرة من النواحي الفنية، بالمقارنة مع الدول والأقوام. سكتَ قليلاً، فعلق محمود إبان السكوت العابر بالقول (بتاعْ كُلُ).

لم يسمع شوقي التعليق، وعاود القول بلهجته المحلية (متتكلموش ليه؟)

رد محمود بصوت مسموع (هو أنت أنطيتنا فنتگ).

ضحك العراقيون فقط، واستجاب الرجل الى ضحكتهم، ضحكة مجاملة هدمت جدار الصمت الذي نشأ بينهم وبينه، ويبدو أنه نسيَّ أنه رجل أمن مكلف بإيصال بضاعة بشرية من خط الحدود في الشرق، الى أقصى نقطة حدود في الغرب.

.....

قطعت الحافلة شبه جزيرة سيناء، متهادية على طريق صحراوي متعرج قديم، مثل أفعى اشتهرت بها الجزيرة، كان الطريق قفراً بلا شواهد، الا من خيام بدو متفرقة، دقوا أوتادها بعيدةً عدة مئات من الأمتار، ومجاميع بيوت متجاورة، على شكل قرى صغيرة بنيت من الطوب الاسمنتي، حولت سكانها البدو من الترحال الى مقام الاستقرار، توافقاً مع الحاجة الى العمل في نقل البضائع، والتهريب عبر هذه الصحراء التي خلدتها الأديان السماوية الثلاثة.

أشار شوقي من بعيد الى قناة السويس، والى أطلال مواضع عسكرية متروكة، قال عِندَها عسكرَ الإسرائيليون بعد نكسة حزيران عام (١٩٦٧)، وحَوْلِها دارت رحى معارك مصير معهم، تكبد فيها العدو خسائر حرب في أكتوبر عام (١٩٧٣)، وقال عن نفسه كان جندياً في فوج مشاة إبان الحرب، وما قبلها سني الاستنزاف، مهووساً بقضاء جل الوقت ترصداً للمجندات الاسرائيليات في ناظور روسي فريد، طوال مدة الرياضة عصراً وهن بالشورتات شبه عاريات، ضحك على عقوبة عاقبها له آمر الفصيل يوم مسكه بالجرم المشهود يترصد، حرماناً من الاجازة الدورية شهرين، وجدها عقوبة هي الأمتع طوال خدمته العسكرية، وفرت له فرصة الاستمرار في الترصد، وقهر العدو بسهام نظر ثاقبة. ضحك حد القهقهة من عبارة قهر العدو، وعلق بالقول (احنا العرب كدا) ثم عاود التنويه عن قرب عبور النفق الشهير للشهيد أحمد حمدي، الذي ربط آسيا بأفريقيا في هذه المنطقة من أرض سيناء، وقضى الى الأبد على الحاجز المائي بين القارتين، تجاوزت الحافلة ذاك النفق في عشرين دقيقة، وبعد عشرين مثلها أخرى، أشر على جهة

الشمال كانت مدينة الإسماعيلية لا تبعد كثيراً، وضعها في حسابات عرضه السياحي، صار يقدمه مفصلاً بالقول، أنها مدينة مصرية قديمة أخذت اسمها الحديث من الخديوي إسماعيل، ذُكرت في أدبيات المقاومة عام (١٩٥٦)، كانت من قبلها مقراً لشركة أجنبية شقت قناة السويس، واستوطن عديد من عمالها المدينة يوم أصبحت مقراً لشركة القناة بعد التأميم.

عاد شوقي الى وضعه الأصلي ضابط أمن الحافلة لحظة اجتياز الإسماعيلية، سريعاً ما غيّر الصفة، وتلبس الدور، وبدأ إصدار الأوامر تباعاً:

- ستأخذ المجموعة استراحتها الثالثة في المنطقةالمحسوبة وسطاً بين الإسماعيلية، وبين القاهرة قبل حلول الليل.
- سيكون العشاء حصرياً في مطعم النيل، والوقت المتاح ساعة واحدة فقط، ضرورة الذهاب الى الحمامات، والمشي حول الحافلة لفرد الأجساد، كي لا تتيبس مفاصلها من كثرة الجلوس.

.....

سارت الحافلة على هواها سرعة لم تتجاوز الثمانين في أحسن الأحوال، أخذت الطريق المصنف رئيساً، بلا مقومات فنية تجعله شارعاً رئيساً، بانت في آخره مدينة القاهرة شعلة متوهجة وسط ظلام يحاذي الصحراء. أشار شوقي الى ان حافلته ستدخل وسطها، لكن أوامره تبقى مشددة لا تقبل النزول أو المغادرة، عند التوقف

في الشوارع والمنعطفات، وأشار أيضاً الى أنها ستتوقف كثيراً، بسبب الزحمة.

نفّذَت الحافلة ثاني أمر للتوقف القهري عند شارع بدت من خلاله الأهرامات واضحة، رحتُ أبحث في ذاكرتي لا إرادياً عن مسلسلات مصرية، كان عرضها يلزمنا البقاء على الأرائك طوال مدة البث، تخيلت بدايتها عباس فراويلة في مسلسل المال والبنون، ماشياً باتجاه الأهرامات، متلهفاً لقاء مهرب الاثار، والى جانبه عباس الضو، متجهاً الى غرفته فوق السطوح، وبعد دقائق صار الزحام أشد وفوضى المرور أكثر، فمرت على الذاكرة صوراً لعادل امام في مسرحيته الشهيرة (شاهد ما شافش حاجة)، يحاور القاضي شاهداً لم يرّ شيئاً يستدعي الشهادة.

غابت الاهرامات مشهداً من الحافلة التي تسير ببطء، ظهرت المآذن تتراصف في عموم الشوارع والمحال، وعربات الكارو، وملصقات الدعاية، والمارة، وروائح العوادم الخارجة من أحشاء السيارات.

وقف محمود الى جانب كرسي يأخذ منه العريف مقراً لإدارة أمن الحافلة، خاطبه بود اقتربت فيه المسافة النفسية بينهما كثيراً، ظناً منه أنه قد تخلى عن حسه الأمني وتحول الى صديق قديم، سأل:

- هل لنا التوقف في ساحة التحرير، دقيقة واحدة لالتقاط صور تبقي الذكرى فاعلة، لهذه الساحة الأشهر في مصر؟

أجاب العريف بحزم (مش ممكن ولا في أي حته من القاهرة، الأوامر تقول كده).

جلس محمود على كرسيّه خائباً، كم تمنى الوقوف هناك، والكتابة في مذكراته (لقد وقفت وسط الساحة، التقطت هذه الصورة على رصيفها المواجه الى المجمع الحكومي مساء يوم الأول من تموز عام ١٩٩٩).

استمرت الحافلة سيراً سياحياً متأنياً، حتى الطريق الصحراوي باتجاه الإسكندرية، كان الوقت ليلاً وكانت الأشجار والمباني غير واضحة المعالم، تركض الى الخلف كأنها أشباح في الظلام الحالك، ولم يبادر العريف شرح المعالم النادرة على هذا الطريق، كما تعود طوال الساعات التي مرت هادئة. طالبه محمود الاستمرار بالشرح على طريقته الممتعة، لكنه حسم الأمر بالإجابة أن الوقت ليس ملائماً، وبعض الركاب قد استسلم الى النوم.

أطل الفجر بنوره الباهت من بين الفجاج في أواخر طريق الإسكندرية، ثم أخرجت الشمس رأسها بخجل على أول طريق السلوم، انعكست أشعتها الذهبية على سطح البحر، أحسست وجودهاً دفئاً في النفس ذكرني، بدفء شمس العراق، لذيذة وباردة في الشتاء القارص، أعطى منظرها وخيوط منها تسللت، جرعة أمل في مواصلة الطريق بلهفة أحسست، وكأن أشعتها الساقطة على الشبابيك المشرعة قد أخفت بسقوطها الملل، وسحبت رواسب التعب الناتج عن الحشر الوجوبي، ليوم ونصف اليوم جلوساً على كراسٍ ثابتة، أعاد العريف صيغة أوامره الوقوف خارج الإسكندرية، بمسافة اختفت أبنيتها وهي تتوسد البحر، عند مطعم معزول على الطريق المؤدي الى السلوم نقطة الحدود. يبدو أن التوقف عندها مطاعم خارج المدن، أمراً مدروساً من النواحي الأمنية، ويبدو أن

السلطات المصرية قلقة من هروب المسافرين العراقيين، ودخولهم أراضي الدولة خلافاً لنظم التأشيرة.

كان العراقيون في أيام الحصار، لا يدخلون معظم البلدان، حتى تلك التي أدخلوا أهلها ترحاباً، يوم كانوا أشداء ميسورين، إذ لم يعد دخولهم نافعاً بعد وهنهم وانخفاض المداخيل، فكان الوقوف، ودخول الحمامات، ومط الأرجل، محدداً بوقت لم يتلاعب بوقعه العريف، خشية كسر الروتين، أو نتيجة لقلق الهروب.

كانت الوقفة الثانية على هذا الطريق وقفة غداء، حصلت بعد الظهر على ناصية الطريق عند تخوم السلوم، تلاعب في وقتها العريف، أضاف من عنده ثلاثين دقيقة على الساعة المقررة في النظام، بعد انخفاض مستوى القلق، وتأكده بالخبرة المهنية الحصيفة استحالة الهروب، برر فعلته ضرورة لأداء الصلاة، وأخذ قسطاً من الراحة.

ودع العريف ركاب الحافلة بعد ختم جوازاتهم في هذه النقطة المصرية، لحدود السلوم، والجميع على كراسيهم لم يغادروا المكان، وزعها عداً حسب الأسماء المكتوبة في قائمة اصطحبها من عند العبارة، واحتفظ بها عهدة رسمية طوال الطريق، قال وهو يبتسم راضياً، سامحونا عساكر ننفذ الأوامر، رده محمود محاولاً التكلم باللهجة المصرية (روح يشيخ ربنا يجازيك).

.....

كأن نقطة الحدود الليبية في مساعد كما هو دارج تسميتها رسمياً، لم تكن نقطة حدود، ولم تكن رسمية: سقائف وفوضى، وسكون

لا تؤشر الدلالات المتاحة في وجود الروح الميكانيكية للدولة. ترجلنا الشباب أولاً في تحرك ساخر، كمن وصل النهاية المطلوبة، من غير تحقيق حلم الوصول، طفنا حول السقائف وأماكن متفرقة مضاءة، وأخرى أخفت عتمة أول الليل ملامحها، أحسسنا وكأننا في حالة تيه، عاد الغالب منا الى الحافلة يضحك في حيرة من أمره، سألت ليبياً قبل عودتي الى الحافلة خلال مروره بالصدفة عن أصل التيه، وعن موقع الجوازات؟

تمتم ببعض كلمات باللهجة المحلية لم استدل منها على اتجاه.

كررت السؤال على مصري في طريقه الى مغادرة الحدود فأجاب، سوف لن تجدوا أحداً، فقد ترك الموظفون مواقعهم، وتوجهوا الى بيوتهم قبل غروب الشمس.

عند هذا الحد دخل محمود صلب الموضوع، قال باللهجة العراقية (ظلمه، ودليلها الله).

صدق قول المستطرق المصري بعدم وجود أحد، أيده سيد سائقنا المصري بالقول، أنه يعرف كذلك عدم وجود أحد.

لكننا كنا قلقين لم نقتنع بما لمسناه في غياب الدولة، فطلبنا التريث قليلاً، والانتظار حتى حسم موضوع الختم، والتخلص من توتر ساورنا، وخوف من تثبيت مخالفات قد تعيدنا الى العراق، قَبِلَ السائق سيد فكرة التريث بأعصاب باردة، لأنه في الأصل مطمئن وعارف.

مضت نصف ساعة على الوقت المطلوب اقتطاعه للتريث، لم يعثر على موظف الجوازات، ولم يبدو له أثر، فعاودت الحافلة سيرها على بركة الله، وجهتها مدينة بنغازي، المحطة الأخيرة من

هذا الطريق الذي أرخى في أوله الليل سدوله عتمَّة، زادته عاصفة رملية قوية هاجمت المنطقة من جهة طبرق متجهة الى البحر، حجبت الرؤيا تماماً، تسللت رمالها الناعمة الى داخل الحافلة، ملئت الفضاء الداخلي، لم يعد أحد من الركاب قادراً على الاستدلال، على الرغم من الاضاءة الداخلية لكل مصابيحها، فاستعضنا عن الحواس الأخرى باللمس.

صاح الشيخ الفلسطيني على السائق توقف، إنها رياح قبلية، لا يمكن في هبوبها السير، والسير في حالتها خطير.

ارتبك السائق، حاول أخذ الجانب الأيمن كي يتوقف، فانزلقت الحافلة في وحل الرمال المتحركة، عدة أمتار عن الشارع الاسفلتي الضيق. انتظر استقرارها في المكان، عاود الضغط على دواسة الوقود ثانية، جأر المحرك استغاثةً، معطياً المجال الى الإطارات كي تلف حول محورها، دون التقدم شبراً واحداً. غير ناقل التروس، أداره الى الخلف، لَفَتْ كذلك في محلها بالاتجاه المغاير، كأنها تسبح في ماء راكد. أطفأ المحرك ويداه على المقود مستسلماً، قال لا فائدة، وعلى الجميع البقاء في أماكنهم ضماناً للنجاة.

ربع ساعة، مرت ثقيلة، اختلط الهواء مع ذرات الرمال الصحراوية الناعمة، قال الرجل الفلسطيني، أجد صعوبة في التنفس، كأني أختنق، توجهت الى كوفية كنت أغطي بها رأسي وعينيّ وقاية، صببت عليها قنينة ماء كانت معي، سرت متوكأً على أطراف الكراسي، صوتُ تنفسه الخشن، كان يغطي على صوت الهواء الرملي، عند اصطدامه بالزجاج المغلق للحافلة.

عدلتُ جلوسه الذي كان فيه مائلاً يتلوى، لففتُ رأسه من منطقة الأنف، طلبت بهدوء سد فمه تماماً والتنفس من الأنف، دقائق مرت بصعوبة، استنزفت نصف خزين الماء صباً على كوفية تحولت فلتراً لتصفية الهواء، انتهت من بعدها العاصفة، بان القمر واضحاً يعكس أشعته الباهتة على المنطقة بطريقة تضفي قدراً من الاطمئنان.

زحفت الحافلة عشرين خطوة عن الطريق، غاصت إطاراتها في الرمال الى منتصفها.

عقد الكبار جلسة فنية، لم نكن أنا، ومحمود من بين أولئك الذين عقدوا العزم، اتهمونا شباباً بلا تجربة، فضلتُ البقاء في مكاني أسمع، هكذا طبعي في مثل هكذا مواقف، لكن محمود ليس كذلك، فقد تسلل بين الصفوف ليثبت أنه مصنفاً ضمن الكبار.

أفتى أستاذ جامعي عراقي عائد من الاجازة، ضرورة التجمع لدفعها باتجاه الخلف، عساها تصل الشارع، وأفتى معلم هو الآخر عراقي، يحمل عقد تدريس في مدارس الدار البيضاء، لم يباشر في تنفيذه بعد، حتمية دفعها الى الأمام مع دوران المحرك، بينما ارتأى المهندس الفلسطيني تشغيلها، وإضاءة الإشارة علامة، قد تجلب انتباه سيارة تحمل سلك سحب يساعد استعماله في اعادتها الى الطريق.

نزل الجميع تنفيذاً لتوجهات الفتوى الأولى، فشلت حلحلتها. تحولوا الى الثانية، كذلك فشلت بامتياز، فعاد الكبار الى مكانهم يتهامسون، واستمروا هكذا من غير التوصل الى رأي واحد.

علق محمود بالقول (اتفقنا على أن لا نتفق).

سألت العم سيد عن وجود مجرفة بين أدواته؟

أجاب بالإيجاب، ونزل من مكانه مسرعاً، فتح صندوق الأدوات الاحتياطية، أخرج مجرفة تشبه تلك التي تستخدمها الجيوش في حفر الملاجئ القتالية. سأله محمود، أثناء تفحصها تحت ضوء المصباح الأمامي، فيما إذا عثر عليها في سيناء عند مواضع الحرب المتروكة؟

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة لم يرد منها التأثير سلباً في شحذ الهمم.

تجمع الشباب العشريني وقوفاً أمام السيارة، كانوا ستة من بين الركاب، وزعنا العمل فيما بيننا، ثلاثة يجمعون كماً من أشواك حطت في المكان بعد هدوء العاصفة، وثلاثة يتبادلون الدور على مجرفة، لإزاحة الرمال التي تجمهرت حول الاطارات.

بدأ العمل جاداً، أزيح الرمل من جهة الخلف لمسافة امتدت لمتر تقريباً، وضعت الأشواك كماً ملأ الفراغ كله، تحول الشباب وباقي الركاب عدا الفلسطيني، وخمس نساء الى جهة الأمام. صعد العم سيد، جلس خلف المقود أدار المحرك، وضع ترس تغيير السرع على وضع الرجوع، ضغط على دواسة الوقود، شرعت الحافلة المنكوبة بالتحرك خطوة، والركاب يعينون محركها بزيادة قوة الدفع أقل من خطوة، حتى خارت قواهم، واستحقت الاستراحة اجبارية لدقائق، عادوا بعدها بالهمة ذاتها يدفعون بقوة، وهي تزحف ببطء، كأنها سلحفاة تكافح العوم وسط غمر رملي كثيف.

عاود سيد المحاولة، فمسكت الإطارات الخلفية بقعة أرض كأنها صخرية، استعجلها بالضغط أقوى على دواسة الوقود،

أعانتها بالقفز خطوات مسرعة الى الطريق الاسفلتي لتستقر عليه، واثقة من اكمالها المشوار. هتف محمود باستهزاء:

- يحيا القائد.

.....

لم تكن بنغازي بعيدة عن موقع العاصفة، ولم يكن الصبح عصي على الطلوع، ودّعَ الركاب حال طلوعه بعضهم بعضاً وداع أحبة، توجه الساعون الى المدن الليبية باتجاه الوسط القائم للمدينة يفتشون عن المرآب، وتوجهنا نحن الذاهبون الى طرابلس، نفتش عن مكتب حجز للطيران.

قال محمود سئمت البر وركوب السيارات، استعجلُ الوصول، فكان مكتب حجوزات الفاتح من سبتمبر بالواجهة، تبين دعايته ضمان الوصول الى طرابلس في الساعة، والدقيقة كما هو مرسوم.

حدد الموظف موعد اقلاع الطائرة التابعة الى الخطوط الليبية، المتجهة الى طرابلس تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً، سلمنا تذكرتين لقاء خمسين دولاراً للتذكرة الواحدة، وأعاد التذكير، ضرورة الوجود في المطار قبل ساعتين، حث على الاستعجال، إذ لم يبق حسب رأيه من الوقت الا القليل، اقترح أخذ سيارة اجرة يضمنها المكتب، سيحضرها بنفسه، سبق له التعامل معها مراراً بأمانة منقطعة النظير، قال سائقو سياراتنا منضبطون مثل الساعات السويسرية.

دخل صالة المغادرة في مطار بنغازي موظف الخطوط الجوية الليبية بلباس رسمي، يدلل انتسابه اليها خطوطاً دولية، وقف

منتصباً خلف عارض منصوب في زاويته اليمنى، أعلن تأخر الطائرة المتجهة الى طرابلس. غاب من بعد هذا الإعلان ساعتين، ظهر ثانية، وقف في المكان ذاته، تكلم بصوت أكثر جدية، أن الطائرة قد حطت قادمة من الأبرق، وغادرت متوجهة بعون الله وحفظه الى طرابلس عاصمة الجماهيرية العظمى.

نهضنا من أماكننا غاضبين، توجهنا صوبه واقفاً دون اكتراث، سألناه وثلاثة آخرين مثل حالنا ليبين عن مصيرنا مسافرون الى طرابلس، ومصير تذاكر الصعود، ووقت قضيناه في المطار انتظاراً لهذه الطائرة أربع ساعات، رد بكل هدوء، كانت الطائرة ممتلئة، ولم يكن هناك مكاناً شاغراً.

وماذا نفعل؟

سألته، فأجاب (الله غالب).

قال محمود منفعلاً، هذا هراء، هربنا من الجحيم لندخل في جحيم آخر.

- ماذا تعني؟
- لا أعني شيئاً، إنها مجرد هلوسة.

وضعنا الحقائب على الظهور، وأدرنا الوجهة الى وسط المدينة بسيارة أجرة عائدة الى هناك، كانت الشمس قد أكملت دورتها، وبدأ الناس استعداداتهم الدارجة الى مساء، اعتادوا الوجود داخل بيوت تحسب متماسكة، بان مرآب السيارات من قطعة وضعت عليها إشارات الى طرابلس، وقفتْ على خطه الأول باص إيطالي الصنع نوع (ايڤكو)، قارب ركابه من اكتمال النصاب، أعطى كل منا

عشرة دولارات أجرة الطريق، أخذنا الكرسيين الأخيرين، كآخر راكبين من ستة عشر راكباً، هو استيعابها الكلي.

قال السائق لنتكل على الله.

رد محمود تلقائياً، اتكلوا من يمنعكم عن الاتكال.

بعد ربع ساعة من الاتكال على الله، توقف السائق الى جانب بيت في شارع فرعي، أبقى المحرك دائراً، نزل دون تفسير. غاب ساعة وعاد يمسح شفتيه، وأسفل شاربيه القاسيتين بمنديل داكن اللون، كمن تناول عشاءه على عجل.

محمود النكدي مشاكس، لا يناسبه التواجد خارج دائرة النكد، حتى إنه وعندما يبتئس، يفعل أي شيء، كي يوقظ الافاعي من حوله، يفتح مزاليج السخط لتسقط الحمم، لم يسكت للسائق مفتاح فعلته، ظل يشاكسه بعد مغادرة المدينة، سأله لم غاب؟

ولم ترك محرك السيارة شغالاً؟

وأسئلة أخرى لم يتفاعل معها مفتاح، فراح يجيب عنها عشوائياً بعبارات ليبية ساخطة، لم تُفهم.

ولما توتر الطرفان تصاعدياً، حاول راكب ليبي يكتنفه الوقار، التدخل وفض الاشتباك، لكنه فشل وسرعان ما انهار اتفاقاً حصل مثل اتفاقات فض الاشتباك في حروب التحرير العربية، لحظة قدوم سيارة في المقابل، وقد فتح سائقها ضياء المصابيح عالياً وهاجاً، صاح عندها محمود مخاطباً مفتاح:

- افتح ضياء سيارتك العالي، اللعنة عليه.

فهم مفتاح الشتيمة حطاً لكرامة والديه، فتوقف سريعاً على جانب الطريق، في أجواء ظلام وأرض قاحلة، الا من كثبان رملية، وحفيف هواء يتجه صوب البحر، يزيد الأجواء قتامة ووحشة.

توجه مفتاح وعيناه تلمعان احمراراً، وتزدادان بريقاً، وصل الكرسيين الأخيرين، حاول مسك محمود من قميصه، وقفت بينهما حاجزاً، نزل وقد زاد احتقان عيناه من الغضب، تحرك عندها العراقيون العشرة من بين الركاب متأهبين، بانتظار ما ستسفر عنه الجولة.

قال مفتاح، لينزل هذا الشاب هنا حتماً، فرد العراقيون بصوت واحد، كيف ينزل هنا وعلى أي أساس، وإذا أجبر على النزول سوف ينزلون معه، بل ولا يسمحون الى الباص بالتحرك، تدخل الرجل الليبي الوقور من جديد، مفتاح، أكد الشتيمة لا تعنيه، بل السائق صاحب الضياء العالي، إلا أن مفتاح أبى التحرك من المكان، إذا لم يقدم محمود تعهداً بالسكوت حتى طرابلس، لأن التشاؤم في عقله قد بلغ الحدود العليا من صوت هذا العراقي، الذي شبهه بنعيق البوم.

تدخل العراقيون التسعة عند محمود بغية الإستهداء بالرحمن، وايقاف النكد، قرب أحدهم فمه من إذن محمود، سره أن العراقيين على متن السيارة غرباء لا يعرفون طباع أهل البلاد، عندها تعهد بالسكوت.

تحرك مفتاح بسيارته الحديثة من المكان، وحال دخولها طرابلس بعد بزوغ الشمس بقليل، وجه له محمود كلاماً بصيغة أمر:

- استعجل السير أنك تسير ببطء.

لعن مفتاح يومه والشيطان، التفت اليه، قال (ما هو راجل خاين العهد). رد محمود بثقة عالية في النفس، أنت لم تفهم الكلام، لقد قلت سأسكت حتى طرابلس، وما دمنا دخلنا المدينة، انتهى مفعول العهد.

توقفت الحافلة في الساحة الخضراء، نهاية السفرة ليلة كاملة، نزل الركاب جميعاً، تقدم محمود من مفتاح صافحه، واعتذر منه قائلاً، ليلكم طويل، لا يمكن قضاؤه بلا نكد.

ضحك مفتاح، تصافحا متعانقين، سارت الأمور على الطبيعة وداً عربياً، باركه الليبي الوقور، واستمر واقفاً معنا على الرصيف يسأل عن العراق وما حل بأهله، قال أنه أكمل دراسته في جامعة بغداد منتصف السبعينات، يحب أهل العراق، وله في هذه البلاد ذكريات حلوة، وقبل أن ينهي حديثه توقفت الى جانبه سيارة (BMW) زرقاء اللون حديثة، ترجلت منها شابة تقارب العشرين من العمر، ترتدي بنطالاً من الجينز، كانت جميلة بعينين واسعتين وانف مدبب وخدين متوردين، رائحة عطرها جذابة، عيناها الزرقاوان طغتا على سمرة وجهها الحنطي المميز بصفائه النقي، حيث الرجل، أخذها بالأحضان، قال ابنة أخي، وغادر المكان مودعاً.

.....

(٤)

اعتاد شباب الحي الفنلندي قضاء أول الليل لعباً عند عمود الكهرباء الذي عُلق عليه مصباح خابي، ولكنه كان كافياً لإضاءة الساحة الترابية وتسهيل فنون اللعب واطالة ساعات السمر. اقترح مراد الذهاب اليها، لحضور تجمع الليلة احتفاءً بالقدوم، قال يخططون ضمك الى المجموعة بحكم الأصل وتقارب الأعمار.

على عجل تجاوزوا الحديث عن بغداد، ومن بقيَّ هناك صامداً بوجه الحصار، لأن الشباب هنا بعيدون تماماً عن وقعه وقسوة الأحداث، استمعوا بحواس استنفرت على أوجها، لما تحدثت عن عثرات الطريق ونكد محمود، وسلوى ابنة الدكتور، حتى لم يستجب عمار الملقب بالشقي الى نداء والده مرتين طالباً فيها العودة الى البيت.

أوجزني مراد في طريق العودة الى البيت قصة هذا الحي، ثلاثون بيتاً خشبياً، ورثته الجامعة عن شركة فنلندية أخذت مقاولات بناء هيكل كلياتها، وبعد اكمال التزاماتها والمغادرة، خصصته سكناً لأساتذتها المتعاقدين، كان أغلب المتعاقدين في محيطه عراقيين، وسوداني واحد أستاذ في التاريخ، ومصباح الليبي من الأمن كان وجوده مصدر قلق، لأنه نشيط جداً في ايصال المعلومات بتفاصيل مملة عن كل الأساتذة، سكن بائس، بيوته جميعها من الخشب المضغوط، كان يمكنك ان تسمع دبيب النمل في أركانه الاربعة، إذا عطس أحد ساكنيها في غرفة من غرفه، يستجيب له الجار بالقول يرحمكم الله، نقل اليها الساكنون عادات التزاور

مساءً، أو كما يسموها في اللهجة البغدادية (التعلولة)، يسقطون خلال ساعاتها كل مساء قلقهم من الحاضر، وخشيتهم من المستقبل، يطرحون الهجرة خياراً للخروج من حالة التيه.

كانوا جميعاً في حالة تيه، وكأنهم معلقون من عراقيبهم بين وطنين، لم يريحهم البقاء في عراقهم وطناً، ولم تحقق لهم ليبيا ذاتاً لوطن جديد، على العكس من واقعنا نحن الشباب، الذين شكلت الحروب، وسني الحصار عقولنا، جعلتنا، نؤمن بأن الانتماء الى الوطن في عصر العولمة هذا، لا يكون بملازمة مسقط الرأس.

موقع الحي هذا، يجاور سياجاً أرادته الجامعة فاصلاً لعزل اجتماعي بين الليبيين، وغيرهم، بنيَّ من الطوب الأحمر ظنته حصيناً، يصل ارتفاعه ثلاثة أمتار، ظنتها كافية لتأمين العزل، كما هو مطلوب في سجلات الأمن الجامعي.

فشل السياج في تحقيق العزل، وحسب رواية لعمار الشقي مسندة، أنه وفي ليلة من ليالي الشتاء الفائت، لم يخرج طوالها العسس الجامعي، ولا الشرطة الوطنية، تناخى الصفوة من شباب الشرقية المتمردين، فتحوا في جداره ثقباً دائرياً أسموه الثقب الأسود، دعت الحاجة الى التسلل في دائرة قطرها نصف متر، يكفي العبور منها انحناءً، أسهم وجوده في انعاش تجارة الحبوب المخدرة، والحشيش وقوى اتجاهات التلصص على نساء الحي من قريب، فصار الثقب الأسود ثغرة أمنية لم تسوى على الرغم من أن الدولة قائمة أركانها على الأمن.

قررتُ بعد أيام من الركود، إذ لم أتعوده، ولم أتعود الجلوس طوال الوقت لعبادة التلفاز، ومتابعة المسلسلات ونشرات

الأخبار، ولا الاستلقاء على الأرائك في مواجهة شاشته طوال الليل وبعض من النهار، فجاء القرار للتعامل معه استكشافاً لطرابلس المدينة العريقة، بدأت خطوتي عبر الثقب الأسود.

حي الشرقية تتشابه بيوته، شوارعه والأزقة تراب يتداخل مع رمال الصحراء بسطوحها الممتدة الى البحر، سكنتهُ طبقة وسطى من موظفي الدولة، لا يؤمنون بخدمة الدولة، سألت أحدهم عن مآل الخدمة في الدولة، أجاب، أنها مجرد اسقاط فرض بقصد الحصول على الراتب نهاية الشهر، لكن الراتب لم يكن كافياً للعيش الآمن، وأضاف من طبائع الثوريون يبقون موظفيهم في عوز كي يتبعونهم ولا يتآمرون.

من هذا الحي بدأت الانطلاقة ركوباً في الباص الإيڤكو، كانت الوجهة وسط طرابلس، ساحتها الخضراء.

- (على اليمين يا اسطه).

قلتها في محاولة لتقليد اللهجة الليبية فجاءت مشوهة، وعلى الرغم من تشوهها، فهمها السائق، فتوقف عند الحديقة التي تجاور الساحة من جهتها الشرقية.

سائقو السيارات يقفون في المكان الذي يريدون، دون نظام.

أخرجتُ كثْيباً أحمله عنها، قرأت عبارات عَرْفتّها ساحة تكونت بشكلها الحالي مطلع القرن العشرين، لتكون ميداناً وسطاً لمدينة عصرية، درت حول حوافها الأربعة دورة كاملة، تفحصت الشوارع المتعامدة عليها، كانت جميعها خالية من الروح، مكسية وحدها بالأسفلت الأسود، وفروع لها تُركت ترابية، حالها حال الشرقية وأحياء أخرى، تعبرُ عن رؤيةِ الساسة اهتماماً بالمظهر وترك

الجوهر، نظرت الى جهة اليمين، كان هناك عمودي رخام ينتصبان بالتوازي، والى جوارهما نافورة تحيط بها خيولاً مجنحة.

يحب العرب خيولهم، كما يحبون النساء، تُذكرهم الخيول بأمجاد لم يبق منها شيئاً، وتذكرهم النساء بفحولة ما زالت قائمة، يتفوقون في مضاميرها على كل الشعوب، والليبيون عرب يحبون هم أيضاً ما صلح من الخيول.

رحتُ بعيداً عن الخيول والأمجاد، فوقع النظر على بناية قديمة، أخذت لها ركناً من أركان الساحة، سحبتني قدماي الى شرطي يقف تحت مظلة خشبية، يحاول تغطية الساحة بعينيه التي تغطيهما نظارات طبية مدورة، سألته عن أصل البناية؟

قال، بنيت مقراً للولاية زمن العثمانيين، تحولت في الزمن الثوري الى متحف، وسألته ثانية، هل يمكن الدخول الى هذا المتحف؟ أجاب، تعال في الغد، وتحديداً قبل الخامسة مساءً، لأنه اليوم مخصص الى وفد فرنسي زائر، وانه في حالات التخصيص الرسمية تُمنعُ زيارات الأهالي، كإجراءات أمنية، ولما عرفَ اللهجة عراقية، تحول ودوداً مرحباً بشغف، بدء شرحاً بسيطاً عن الساحة، قال لقد أنشأها الايطاليون، مدوا منها واليها ثلاثة شوارع، رصوا على نواصيها عدة بنايات، تصميماً مازال متميزاً الى الآن، أسموها ميدان ايطالياً، وأسماها الليبيون بعد الاستقلال عام ١٩٥١ ميدان الاستقلال، ثم غيروا التسمية الى ميدان الشهداء وفي زمن الثورة تغيرت التسمية الى الساحة الخضراء، وعادت ميداناً للشهداء.

الشهداء لفظ ساحر يتعكز عليه الثوريون العرب، لبيع الوطنية سلعة رخيصة، وتغيير التسميات هواية يفضلونها على باقي الهوايات.

ختم شرحه المفصل بالقول أنها ملتقى القادمين الى المدينة والمغادرين، والراغبين في قضاء الوقت، تجاور شاطئ البحر من قريب. ترك بندقيته والواجب، خرج من مظلته الخشبية فرحاً ليؤشر بيده اليمين الى البحر.

.....

مدّ النظر طويلاً الى البحر، والى أعماق التاريخ وتأثيراته في النشأة الطرابلسية، مدينة وضعَ حجر أساسها في القرن الثامن قبل الميلاد، أراد مؤسسها أن تكون قبلة البحر وحاضرة الدنيا، إلا أن محاولاته فشلت، إذ لو نُحيّت بعض قوارب الصيد الكسولة جانباً عن مراسيها المتآكلة، وأغلق سوق بيع الأسماك بالأكوام، لم يبق أثر لسلوك يشهد أنها مدينة بحرية، ومع هذا فالنظر اليها من جهة البحر تظهر مدينة وكأنها تنتصب على كف يد لمخلوق بحري، أعطاها والأبنية البيضاء وخضرة واحات، صدقاً لتسمية وضعها المؤرخون القدامى على جبينها عروس البحر.

كان المشي في شوارعها والأزقة، لا يدل عليها عروساً حافظت على هيأتها الغضة، بانت كأنها عروس لم تكمل شهر العسل، أو أنها شاخت قبل الأوان، أبنيتها الإيطالية بدت عتيقة ومهملة، ولا يبدو أنها حصلت على تجديد يبقيها عروساً، ولم تضف لها طوال ثماني عقود ونيف ما تلك العروس الموصوفة، كأن دولة الفاتح

تريد انهاء حقبة عرسها الزمنية في ذاكرة الأبناء، وإحلال محلها حقبة نضال ثوري يضفي عليها فحولة تبقي قادتها في الذاكرة الى الأبد.

سألت صاحب محل عن قنينة ماء بارد أروي بها عطشي، أعقبتُها طلباً لأربع بطاريات لجهاز تسجيل، لم يتحرك صاحب المحل هذا الأربعيني من على كرسي جلس عليه، بدا كأنه شيخ التجار، لا يساوم على السعر عنيداً، لكنه طيب، طلبت فك عملة من الدولار، تحويلها الى الدينار لتسديد القيمة؟

ضحك مستنكراً، ثم قال اجعلها ديناً سدده، عندما تحضر ثانية، فالدنيا لا تطير.

وددت أن آخذ قسطاً من الراحة بعد مشي دام ساعات من شارع الى آخر، توقفت عند كافيتريا تنتصب على ناصية الشارع، أخذتُ كرسياً يحتضن طاولة دائرية، جوار أخرى شغل كراسيها أربعة شباب، ثلاثة منهم ليبيون يبدون طلاباً في جامعة الفاتح، قدمتُ الطاولة منهم لأسأل عن منحى الدراسة، والتخصص وسبل قضاء الوقت، فكان الرد بعد عبارات المجاملة، مهما كانت النصيحة تبقى التجربة خير برهان، حسموا الموقف وعداً في الجامعة صباح الغد، للحصول على برهان.

حل موعد الغد، كانوا ثلاثة في الانتظار مستعدين لتقديم البرهان، وكانت الخطوة الأولى جولة في كلية العلوم، والثانية محاضرة شارك حضورها طلاب الهندسة، ختمت الثالثة عند قسم التشريح في كلية الطب، كأني لم أجد ما أفتش عليه موطئاً للدراسة، غامرني شعور من الاكتئاب، رافق عودتي الى البيت، قلت

حال فتحي الباب، لم أجد ضالتي، لم أدرس هنا، إذ أن كثيراً من الطلاب يجاهدون فقط لعبور السنة، ومدرسون لا يجهدون أنفسهم أكثر من منح الحق في العبور، حاول الوالد التدخل لتغيير رأيي، أجبت هذا قراري، سأعبر البحر، وسأجد ضالتي في الدراسة هناك في الضفة الأخرى من المتوسط، مهما طال الزمن.

.....

يمر الوقت في طرابلس بطيئاً أقرب الى الراكد، تصريف أيامه والساعات ليس بالأمر الهيّن، فكان البحر، ملاذاً ميسوراً لإنتاج الأفكار ذات الصلة بعبوره الى الضفة الأخرى، وتبديد الفائض من الوقت مشياً على الساحل عصراً وفي أوائل الليل، كان من بين الماشين عصر يوم الخميس، المطرب المعروف واستاذ اللغة العربية فاضل عواد، والى جانبه الشاعر الكبير مظفر النواب، كأنهما في مشيتهما يبددان بعضاً من الوقت، تجمهرنا حولهما نحن الرواد المستمرون في الحضور لتبديد الوقت، تذكر مظفر أيامه في العراق، حكى قصة عشقه لهذا العراق ومعنى الغربة، وحكاية قصيدته المشهورة (الريل وحمد)، قال وقد دمعت عيناه (سيبقى الريل في عراقنا يصيح بقهر، صيحة عشگ، ولا أحد يرد)، علق الدكتور فاضل آسفاً من أن العراق صار في سنيه الأخيرة طارداً لأهله والكفاءات، ختم حديثه عبارة أراد منها التخفيف عن ألم الغربة (الوطن هو الأمان).

استمر وقع الحياة هذا شهراً، فيه التأمل بالبحر، والتفتيش عن وسيلة عبور كأنه عادة، حتى وصول أيهم منفذاً وعداً قطعه يوم

التوديع حتمية اللحاق، هكذا التحق أيهم، وصل طرابلس ليتحول التأمل الى نقاشات وأفكار ومشاريع، كان أولها بناء غرفة لنا ملحقاً شبه معزول بالبيت الخشبي، عرضنا الفكرة أولاً، فكانت الاستجابة إيجابية، وتقدير الكلفة مناسباً، فالمواد الأولية من الطوب والحصى والرمل والخشب، مبعثرة في ربوع الجامعة جوار أبنية اكتملت، وأخرى تركتها الشركات لم تكتمل، لكن مشروعنا قد اكتمل في أسبوع، غرفة هي الأوسع والأرتب من غرف البيت الأخرى، مناسبة للنوم والجلوس والسهر، ومكاناً لتجمع الشباب الراغبين عبور البحر، اسميت بالمخصف.

.....

حضر الى المخصف في المساء فريد، شاب يعمل في أعمال الديكور الجبسي، التقيناه على شاطئ البحر قبل أسبوع، نوه عن جبار يتخذ من غرفة له في بناية المقريف على البحر، مركزاً سرياً لتزوير التأشيرات النافذة لدخول الدول الأوربية، أكد المعرفة به جيدة، والوثوق بنتاج أعماله تزويراً لا يشق له غبار.

توجهنا لزيارته عصر اليوم الثاني في المكان المذكور، اتفقنا على تأشيرة اسبانية، توصلنا منها عبوراً الى الدولة التي نريد، وجدناه شاباً قد تجاوز الثلاثين بقليل، تغطي عينيه نظارات طبية طوال الوقت، تمنحه هيأة الفنانين، كان رساماً محترفاً في وزارة الاعلام، عمل لنفسه جوازاً مزوراً استعمله في الخروج من البلاد مهندساً زراعياً، توسعت أعماله في التزوير حال وصوله طرابلس، على أمل

أن يجمع مبالغ تُعينهُ على عبور البحر، وتأسيس عمل حر في بلاد الفرنجة.

قال سأتوب من هذه المهنة حال الوصول الى أوربا، كأنه وضع الوصول شرطاً على الاله لتحقيق التوبة. عرض نماذج متقنة لتأشيرات ملصقة على جوازات، سدد أصحابها الكلف مائتي دولار، أشار الى علاقة له وثيقة مع مهربين بخطين متوازيين، يصل الأول اسبانيا عن طريق (سبتة ومليلة) من المغرب، والثاني عبر تونس كذلك يصل اسبانيا، لقاء خمسمائة دولار.

مشكلة المهربين والمزورين في طرابلس تكمن في الكثرة العددية، وقلة المصداقية، ومشكلة الشباب الراغبين في العبور، قناعة من ان أغلب أولئك المهربون والمزورون نصابون، ومع هذا لا بُدّ من التعامل معهم، فكان الاتفاق على التأني في القرار أطول فترة.

في دروب التأني صار التردد على جبار، وقعاً يتكرر مرة في الأسبوع، قد يصل في بعض الأحيان مرتين، حتى أصبح الرجل صديقاً، وفي كل مرة كان يروج لبضاعته بأخبار توحي بالطمأنينة ... زيد وصل اليونان، وعمر مع الأسرة عبر اسبانيا الى السويد، جُرع أمل نفسية تزيد القناعة، في أهليته
تنفيذ الخطة المعدة للعبور.

في الخميس الأخير من شهر أيلول دلفنا الى الشاطئ مطمئنين، وفي جيب كل واحد منا مائتي دولار واختيار المغرب سبيلاً للعبور، الى سبتة ومنها الى اسبانيا. اقتربنا من غرفة جبار قليلاً، دخلها فريد الأول في الوقت الذي وقفتُ فيه لحظة قبل الدخول، أجيب أيهم عن أسئلة:

- لمَ المغرب وموقع سبتة، وسهولة المرور من عندها بالتأشيرة المضروبة، حسب القول المكرر لجبار.

هممت بعد اكمال الشرح، بوضع قدمي اليمين في الباب المفتوحة إيذاناً بالدخول، سمعت وقع أقدام بخطى سريعة تأتي من جهة الخلف تتداخل مع بعضها، أدرت رأسي، فكانت مجموعة من الشرطة يتقدمهما مدنيان يعتمران غدارات أمريكية الصنع، صحتُ منبها فريد (كبسة)، وأعدت القدم الى مكانها، فغيّرَ العقل اتجاهها الى الامام مشياً بخطى ثابتة، تجاوزت في أقل من ومضة، باب الغرفة، شعرت تسارع الخطى من خلفنا فزادت سرعة خطواتنا، وجدنا في نهاية الممر سلماً نازلاً، فأخذناه وسيلة نزول جرياً، أوصلنا الى باب تحاذي الشارع، وزاوية ميتة لها، أخذناها مكاناً للتخفي حتى نهاية المطاف، بانت مجموعة تخرج من باب البناية الأخرى، فيها جبار مقيداً بأصفاد مع شابين بينهما فريد.

.....

حضر فريد ليل الأحد الذي تلا الحادثة مرتاعاً، جلسنا الثلاثة في المخصف، راح الحديث مفصلاً عن جبار وحادثة القبض، ورشوة دفعها ألف دولار، تفادياً للسجن، وسد منفذ كان متاحاً للعبور. قال وهو يتألم على خسارته الفادحة، لا يسد الله باباً الا ويفتح أخرى. سألته عن سبل الفتح المتاحة؟

راح يذكر التفسير دينياً، والتنويه عن طريق تهريب بحري من طرابلس مباشرة الى إيطاليا من غير حاجة الى تأشيرة مزورة أو جوازات، سانداً معلومته هذه الى ستار، مدرس عراقي للميكانيك

صديق له يقيم في حي البراكات، اقترح زيارته مساء الغد، لقضاء الوقت، وتفهم آفاق الطريق الجديد.

تدخل أيهم سائلاً، لم لا نزوره هذا المساء، وحي البراكات قريب، وخير البر عاجله؟

فتح ستار باب براكته، فظهر محمود وقد احتل الأريكة مكاناً له، وقف مرحباً، عرّفَ عن نفسه رفيق درب، وعن ستار ابن عم له، تربيا معاً في بيت الجد الكبير بالموصل الحدباء، وبعد العِبارة العراقية التقليدية (الله بالخير) قال لقد وَصَلْنا تواً تموين من المطبخ الأصلي كيسين من (البوخة) غير المغشوشة، سأل الرأي في أخذ كأس منه يساعد الذاكرة في القرار على الطريق الصحيح. أكد أنه وستار كانا ينويان المباشرة في الشرب، بعد انتهاء مباراة لكرة القدم في دوري أمم أوربا يتابعانها بشغف.

ابتسم أيهم وسأل عن ماهية البوخة، لأنه لم يسمع بها من قبل، أجابه محمود إنها أو إنه ما عاد عارفاً به شراباً مذكراً أو مؤنثاً، لكنه يشبه العرق العراقي، يُصنْعُ في البيوت، يباع معبئاً في أكياس من النايلون، لإيهام الأمن الذي يحرم صنعه، واحتساءه بشدة، ثم مد يده الى جانبه أخرج كيساً، أشر بيده إنها البوخة.

رد فريد باستخفاف (استغفر الله)، وقلت من جانبي لا أشرب، أما أيهم فقال لأجربه مرة، قد لا تكون الأخيرة، فأحضر محمود قدحاً صب قليلاً من البوخة، قال، إني أخففه بالماء، وهناك من يخففه بشراب (السفن آب) أو غيره، ثم سأل أيهم بماذا يخففه؟

لا أعلم، قد يكون الماء مناسباً، قالها أيهم وارتشف بعد صب قليلاً منه على الكمية المستقرة في قعر القدح، رشفة وترك الباقي،

رافضاً اكمال التجربة، شاكياً قسوة المذاق، بينما سار محمود في مشروعه الى آخر المشوار.

أخذ من الكأس رشفة، ثم أعاده الى مكانه على الطاولة ضرباً بقوة أظهر ارتطامه بالخشب صوتاً أطربه، فبدأ الكلام عن خط تهريب جديد عرفه من ستار الذي تابعه من أشهر مضت، وفي الرشفة الثانية كشف عن رأس الخط مهرب أثيوبي زياد، مسلم ملتزم، يتكلم العربية، لا يقبل في النقلة الواحدة إلا ثلاثين، يختارهم بعناية، ينقلهم في يخت حديث من طرابلس الى مراس خاصة، على سواحل جزيرة صقلية الإيطالية، ومن هناك يستلمهم أشخاص ايطاليون ثقاة الى كنائس محددة، منها يتوزعون الى عموم أوربا حسب الطلب.

أخذ رشفة ثالثة بالطريقة ذاتها، راح يكمل ما بدأ بأسلوب يغلب عليه التمنع والتشويق، وكأنه يكشف أسرار سلاح فتاك، قال عن نفسه أختار بلجيكا مكاناً لتحقيق الأحلام، شعبها طيب، ونساؤها جميلات.

وهل تعتقد أن الاثيوبي موثوق به؟

سأله أيهم وسوّغ سؤاله سماع كلام كثير عن قصص غدر لمهربين في ليبيا، فأجاب مستشهداً ببعض أقوال لستار، من انه موثوق جداً، تطورت العلاقة بينهما الى مراتب الصداقة، والتزامات زاد وملح، وتبادل زيارات، دلهم على بيته في جنزور، واستقبلوه في البراكات، تعرفوا على اسرته، طالما أكد عمله رضواناً الى الله وكسباً لأجره، لم يضع في حساباته التربح من المسلمين المضطهدين، الذين يفترض اكتساحهم أوربا هجرة لإعادة أمجاد الأندلس.

علق أيهم ساخراً، إنه ولي من أولياء الله وليس مهرب، فضحك الحضور، وبلع محمود العبارة ضجراً، عاود من بعدها الحديث عن أوربا وظروف العيش، وهدفه الأبعد فتح ورشة ميكانيك لتصليح السيارات، وطابقاً يعلوها خشبياً لصيد البنات الشقراوات، حتى بلغت الساعة الحادية عشر ليلاً، فأتم محمود ما تبقى من كيس البوخة الثاني، وأكمل الحديث عن أوربا وزياد، ووعد اللقاء معه في الغد وجهاً لوجه لوضع النقاط على الحروف.

.....

حضر محمود المخصف عصر اليوم الثاني واثقاً، فتسللنا الثلاثة صوب الشرقية عبر الثقب الأسود ومنها الى جنزور.

كان زياد الأثيوبي في بيته، وكأنه عارف بمجيئنا والانتظار.

رحب الرجل ترحيباً فيه مبالغة، قدمت زينب زوجته الأربعينية ضيافتها شاياً، وقطعاً من الكيك، زينب سيدة نحيفة القوام، سمارها أفريقي جذاب، كأنها عارضة أزياء، قال عنها زياد أنها ذات أصول عربية من قبائل جبرتة، الممتدة الى اريتيريا كعروق الثيّلْ.

أتمت زينب ضيافتها كاملةً، ثم انسحبت مشياً بغنج، تلزم الجالس متابعتها غزلاً بوقع القدمين على أرض الغرفة الخشبية، وصوت يخرجه الارتطام كأنه نوع من الموسيقى الراقصة، فاتحة المجال الى زياد لتقديم عرضه المشوق، وكأنها طرفاً في التمهيد الى القبول.

لم يقدم زياد عرضاً جديداً عن التفاصيل التي قدمها محمود، وسانده في تقديمها ستار ليل البارحة، الا الإشارة خفية الى تنسيق

موجود، أراد منا الاستنتاج أنه مع مسؤول أمن ليبي، ومع ضباط في خفر السواحل.

قال عن اليخت قبرصي مستأجر، يبحر من الجزيرة في التوقيت الذي اتفق عليه، وطاقم كله بحارة قبارصة أشداء، يتسع الى ثلاثين مهاجراً، وبقصد تغيير وجهة الحديث بالاتجاه الذي يريد، قال ان العدد قارب على الاكتمال، باق منه خمسة، تاركاً المجال مفتوحاً لمن يسأل.

سألت عن التوقيت المحتمل للشروع، وهل يصطحب أسر لديها أطفال؟

أجاب بثقة عالية، أن اليخت حديث، ومجهز بوسائل الأمان، نقل حتى المرة السابقة عشرين نقلة لمهاجرين بينهم أسر وأطفال رضع، لم تفشل واحدة من نقلاته، أوصلتهم جميعاً الى هناك، وما زال قسم منهم يتصل بالهاتف شاكراً سلامة الوصول، ومن جانبه سأل أيهم عن الكلفة، فأجاب بصيغة سؤال:

- ألم يخبركم محمود مقدارها؟

اتركوني خارج الموضوع، وتفاهموا وجهاً لوجه قال محمود، فأعلن زياد عن مقدارها ألف دولار للشخص الواحد، وللعوائل سعر خاص، وإذ كان الطفل دون الخامسة عشر تدفع العائلة خمسمائة دولار، وإذا زاد عددهم عن أثنين جعل لهم تخفيضاً خاصاً جداً يصل مائتي دولار.

قال أيهم بصوت منخفض بعد مغادرة زياد لتجديد دورة الشاي، تعزيزاً لمعنى الضيافة، أنه ما زال قلقاً، فصار الاتفاق دعوته الحضور الى المخصف عصر الغد.

حضر الرجل حسب الموعد منتشياً، دخل الحي بسيارة مازدا حديثة حمراء اللون، وملابس أنيقة والى جانبه محمود، سلم بارتياح، وكأنه معرفة قديمة، قدم شرحاً عن عملية العبور، من بدايتها حتى سواحل الجزيرة الإيطالية صقلية، التي حكمها المسلمون ردحاً من الزمن، أكد حكمهم لها في حديثه مرتين.

أجاد التقديم، كأنه محاضر جامعي ملم بالموضوع، سأل في نهاية الشرح عن عدد الأشخاص المطلوب ابحارهم، قلت ثلاثة، بيننا سيدة عراقية وطفلتها رضيعة، أستاذة ترغب اللحاق بزوجها الذي وصل السويد قبل شهر.

أكد اكتمال العدد، وأكد الحاجة الى دفع مقدم المبلغ ستمائة دولار، عن الثلاثة لتثبيت الحجز، وضمان المكان اللائق في المركب، وأكد كذلك تنازله عن مبلغ الرضيعة عربون صداقة، ثم مد يده في جيب سترته، أظهر صوراً لمهاجرين ينزلون على الشاطئ بملابس نظيفة، وآخرين يتجولون في كنيسة قريبة من البحر، وباليد الأخرى استلم العربون ستمائة دولار.

غادر المخصف، واثقاً بلوغ الشواطئ الإيطالية بسلام، طلب البقاء في حال انتظار، وعدم مغادرة البيت اعتباراً من الغد، منوهاً الى احتمال الإبحار في أي ساعة، بالاعتماد على ضوء أخضر، يأتي من خفر السواحل، وتأكيد من الأنواء الجوية عن هدوء البحر.

ختم القول إنه لا يريد المجازفة بأرواح المسلمين، ابحاراً في أجواء مضطربة.

.....

(٥)

حضر زياد متيقظاً في تلك الساعة من النهار التي لم يفق بها أهل الدار من غفوتهم في قيلولة الظهر، والى جانبه محمود، لم يكن زياد من بين المغرمين بقيلولة الظهر، لكثر مشاغله كما كان يدعي. بشْرَ حال رفع يديه من على المقود هدوء البحر، وَتَحرك اليخت من مرساه القبرصي، قال وهو ينظر الى ساعته الفضية، لقد أبحر صوب السواحل الليبية قبل ساعة من الآن.

بدأ سلسلة تسويغات لبعض أوامر، أعطاها صفة السرية واجبة التنفيذ، أولاها، لابد من التحرك الى المثابة، مزرعة في أطراف طرابلس على الفور، ومنها التوجه الى البحر، تبعاً لإشارة تأتي من العنصر المدسوس في مقر خفر السواحل، ختم السلسة بعدم تيسر الوقت، ولابد من التحرك على الفور، فدبت الحركة، وخفق القلب ارتباكاً، وربما خوفاً من بقايا المجهول. راح وسطها أيهم بلا تردد، رزم حاجاته في حقيبة ظهر أعدها مناسبة للسفر، وكذلك فعلت غيداء، وضعت حاجاتها في حقيبة، وغيارات رضيعتها وعلبتي حليب كامل الدسم، أما أنا فقد وقفتُ أمام باب الصالة متوجساً، تباطأت خطواتي، تزاحمت الكلمات في رأسي، ثم تلاشت سريعاً مثل أحلام الصباح، وجدت الحل في مناداة مراد بصوت يعلو عن المألوف، على الرغم من معرفتي الكاملة أنه في الغرفة المجاورة، يضع اللمسات الأخيرة للوحته التي بدأت تظهر على القماش الأبيض، والتي أسماها الهارب الى المجهول، كأني في المناداة بهذه النبرة من الصوت، أجنب الوالدة صدمة المفاجئة،

كانت بطبعها لا تحب المفاجئات، بل وتغضب من حصولها وإن كانت من باب المزاح.

لقد أتت المناداة أكلها، ايقظتْ الغارقين في قيلولتهم فتنفستُ الصعداء، لحظات لا تحتمل الشعور بالذنب.

سألتْ وهي تمسح عينيها بأطراف أصابعها، ما الذي جرى، وما سبب هذا الصوت المخنوق؟

لا شيء، لقد حضر زياد، وعلينا التوكل على الله، أجبتها فاحتجتْ على هذه السرعة غير المحسوبة، كادت تصرخ غضباً، لكنها لم تصرخ، حولت طاقة صراخها، الى تحرك فوري صوب المطبخ لجمع المتاع، ومن بعدها عادت الى غرفتها أخرجت من مكان لا يعرفه سواها خمسمائة دولار، فتحت شقاً في البنطال من داخله أودعته إياها بعناية، ثم طوت الشق وأخذت تخيطه بانتظام كما تفعل الماكنة، فصار مخبئاً مناسباً لكنزها.

دخل الوالد في حوار مع زياد لمعرفة التفاصيل، أعاد زياد عبارات قالها من قبل بقصد إشاعة الطمأنينة، طلب تسديد ما تبقى من المبلغ المتفق عليه، ألف دولار للشخص الواحد، تعمد وضعها في محفظة جلدية مع بعض الأوراق، لإعطائها صفة قبول رسمية، وركب سيارته، أدار محركها، ضغط على دواسة الوقود، كأنه يريد حثنا نحن الثلاثة على استعجال الصعود.

وقفت الوالدة خائرة القوى، تذرف دموعها بغزارة، كمن تودع وحيداً سيق الى الموت، بقيت تدور حول نفسها، تقف فتتعب فتعود لتجلس في المكان نفسه، وأخيراً اتكأت على عمود خشبي يحمل جزءاً من السقف في مقدمة البيت، لا تقوى على الكلام.

إنها في الأصل لم تكن موافقة على العبور بهذه الطريقة، طالما عرضت فكرة الهجرة الرسمية بديلاً، وإن استغرق التنفيذ وقتاً أطول.

قال محمود وقد خرج من السيارة متثاقلاً، لا تقلقي يا أمي، لقد درسنا المشروع بعناية، وسيكون موجوداً في القرب، يرعى الثلاثة، وعينيه عليهم، ولكي يبعث مزيداً من الطمأنينة بات يؤكد أنه كبيرنا الذي سيرعانا ويقودنا، حتى بلوغ الساحل الإيطالي.

رفعت الوالدة جسدها على كوعها حال شروع السيارة في تحركها، قالت بصوت ضعيف علّكَ تنزل لحظة، لأشم الرائحة التي تعودت شمها منذ الصغر، ومن بعدها غب ما شئت.

حاولتُ النزول، لكن الاستعجال حال دون ذلك، متيقناً أن من يركب العجلة في دروب التهريب لا يملك زمنه.

زاد زياد من سرعة سيارته، كأنه يريد التخلص من الحرج، نظرتُ من الزجاج الخلفي نظرة وداع، شاهدتها وقد عادت الى الجلوس جوار العمود، تضرب رأسها بحافاته، ترفع يديها الى الأعلى، تنزلها ضرباً على الساقين الممدودتين.

لم أسمع كلمات كانت تنطقها، أحسست الحسرة التي ثارت في داخلها وكأنه ينز صديداً، يخلف جرحاً لا يندمل، وأحسست حشرجة في صوتها، وكلمات لوم متناثرة، وشعرت بقشعريرة باردة تسري، أقعدتني على الكرسي شبه عاجز.

.....

خَرجتْ السيارة من محيط الجامعة مسرعة، مسكتْ الطريق باتجاه بن غشير ثم غابة النصر، بالاتجاه المعاكس للبحر، كان

الطريق ترابياً يتلوى مثل أفعى، مر من بعد الغابة بين مزارع زيتون متواصلة، انتهى عند مزرعة مرصوفة بانتظام، يتحكم بها سياج من أسلاك شائكة. فتح حارسها الأفريقي الضخم بابها الحديدي، فأرسلت عند تحركها على سكة غاطسة صريراً يشبه في نفوره صرير الاسنان عند احتكاكها مع بعضها.

اندفعت على أثره السيارة، حال اجتيازها.

أغلق الحارس تلك الباب الثقيلة بعد التفاتة الى اليمين، كأنه في لقطة تمثيل لمشهد بوليسي في أفلام الاثارة الأمريكية.

ترجلنا نتلفت، وترجلت غيداء هي الأخرى تتلفت، وقد التصقت الرضيعة على صدرها مستغربة وربما خائفة، سألتُ زياد، بعد خطوة تقدمتها منه أو خطوتين، هل هذا هو مكان الإبحار؟

قال بثقة عالية، سيتجمع الركاب في هذه المثابة، ومنها يتم الانتقال بسيارات باص الى مكان على البحر خارج طرابلس ومنه يبحرون، ختم إجابته، هكذا هي الخطة الأمنية لمقتضيات السلامة.

كانت السيارة قد استقرت عند واجهة البيت الضخم، دققت بها كانت وكأنها واجهة قصر متكئة على أعمدة رخام، تعطي الهيكل طابعاً رومانياً، جعلني الشبه الهندسي بينها، وبين أعمدة تلك الحضارة العريقة، أتلفت وكأني أفتش عن الجنود الرومان بخوذهم المزركشة، ودروعهم الحديدية، وسيوفهم الگلاديوس.

كانت في الجوار أكوام حديد ومرمر، ومواد انشائية مكدسة دون انتظام، واسمنت قد تحجر، والى جانبها أقفاص دجاج تفوح منها رائحة العفن، وممر للمشي وسطها، يفضي الى داخل البيت، كأن

صاحبه قد أفلس، أو أودع السجن، أو غادر البلد دون رجعة، وربما لسبب آخر لا صلة له بالإفلاس، كان في الداخل غرفتان أو مهجعان مهيئتان، لهذا الجمع الذي يتزايد تتابعياً، مُدت على أرضيتهما الترابية حصران، ومداد من البسط صناعة محلية، وضعت عليها الحقائب متجاورة.

وضع محمود حقيبته على البساط الأول قريباً من الباب، إيذاناً بحجز المكان، يفضل محمود بطبعه أن يكون هو الأول، ووضعت حقيبتي الى جوار حقيبته قلقاً، وكانت هناك حقائب أخرى لأربعة مصريين، وأسرتين صوماليتين، سبقونا في الوصول.

تركتُ المهجع، ومشيت في الخارج، بانت أشجار الزيتون، تطوق البيت هيكلاً لم يكتمل بناؤه قصراً أراد صاحبه أن يكون رومانياً، أشجاراً تضخمت وتفرعت أغصانها، تعطيها أعماراً طويلة تمتد الى زمن الايطاليين بداية القرن العشرين.

الإيطاليون وحدهم، من استثمر في مزارع الزيتون إبان استعمارهم البلاد، تركوها مثمرة يوم غادروها بعد الثورة مجبرين، لم يُنبت جوارها الثوريون نبتاً، ولم يزيدوها شجرة، استعاضوا عنها بالنفط، وبعض شعارات لتحقيق المستقبل الأفضل.

لحقت بيَّ غيداء والرضيعة، فقلت نادماً، ها قد رأيتِ بعينيك ما يجري، سألتُها وكأني أدفعها للإجابة عن صيغة لتبديد الندم:

- هل ستكملين المشروع، أم تنسحبين، وقدماك ما زالتا واقفتين على الحافة؟

قالت وصوتها يرتجف، ما رأيك أنت؟

قلت تماشياً مع الظرف القائم والمنطق السائد هنا، فإن عقلي يرفض التصديق أن مصيبة سوف لن تحصل وأضفت، لو كانت أختي في موقف كهذا، لمنعتها من أن تكمل، أحس شيئاً لا أفهمه يمكن أن يحصل في أي وقت، يضاعف القلق الموجود أصلاً في داخلي.

- ماذا عنك وعن أيهم؟

سألت مرة أخرى، كأنها حسمت أمرها بالانسحاب، فأجبت أن القلق عليها شابة عراقية جميلة تحمل طفلة رضيعة، يفوق قلقنا على المجازفة والتحمل.

ردت وقد اعتصرتها نوبة بكاء، أنها ستتوقف عند هذ الحد، ستنتظرُ ظروفاً أفضل، رامية حملها على الله، سوف لن يتركها بعيدة عن زوجها الى الأبد.

تقدمتْ خطوة عانقتني بقوة، ودعتني صديقاً شاركها الهم والتخطيط لمشروع حلم ما زالت نهاياته مجهولة، أعادت التأكيد أنها قلقة، ولو كان الأمر بيدها لمنعتنا من الاستمرار في المشروع.

نحن شباب، نتحمل الفشل، وما يتركه من أثر، وقد ننهض من جديد، قلتها وأضفت أما هي سيدة متزوجة تحمل رضيعة، خسارتها أي خسارة ومن أي نوع، قد تضع لها نهاية غير النهاية التي تريدها زوجة وأم.

.....

استمرت الحركة تجوالاً في محيط هيكل البيت الذي يشبه القصر المهجور، وقريباً من المزرعة التي تمتد طويلاً في الأرجاء،

واستمر الحضور تواصلاً للجماعات، مثل صنبور ماء ينزل قطرات بالتتابع. سيارة زياد وأخرى يتحكم بقيادتها شاب ليبي، عرف فيما بعد اسمه الأول محمد، توقفتا عن الحركة قبل الساعة العاشرة مساءً بقليل.

ودع زياد رفيقه محمد عائداً الى بيته، تاركاً له تبوأ زمام القيادة، لما يقارب الستين حالماً دخلوا أسوار المزرعة.

سألتُ زياد قبل مغادرته وتسليم القيادة، لِمَ قارب العدد ستين؟

أجاب بلا تفكير:

- ان اليخت هذه المرة أكبر.

توزع القادمون جماعات حسب الأعراق، وأصول اللغات المنطوقة، عراقيون الى جانبهم مصريون، وقريباً منهم مغاربة وتونسيون، والى الجوار أفارقة من النيجر والسنغال، ينظرون الى بعضهم، كأنهم يفتشون عن نقاط تلاقي تخفف أثر المجهول.

كسر بعض الشباب منهم قاعدة التوزيع الدارجة عرقياً واختلطوا بغيرهم، كأنهم يتحضرون لاختلاط أوربي محتوم.

شباب اليوم ميالون حسب خصائصهم النفسية، وتأثرهم بالعولمة الى كسر القواعد الصعبة للاختلاط التي تركها الأجداد، تحريماً في غالب الأحيان، فشكلوا طوعاً مجموعة منا ثلاثة عراقيين ومصري مرح، ومغربي نُطقهُ العربي ضعيف، وسنغالي لا يلوك العربية وتونسي نشط، صار لهذه المجموعة حضور فاعل بين المجموعات.

في حدود الساعة العاشرة ساد الظلام خفيفاً، أعطى الليبي محمد أمراً مشدداً، الى حارس الباب الأفريقي غلقها، فأغلقها بقفل يشبه

أقفال السجون القديمة، وأعطى أمراً آخراً، مد بساط في رواق البيت المشرف على الجزء الجنوبي للمزرعة، وآخر أمر أصدره، احضار الأرگيلة مع كيسين من (البوخة) سيدة الموقف.

ظهر محمد نزقاً، ممتلئ الجسم قصير القامة، غليظ القلب ميال الى القسوة، والتسلط، ردود فعله في الغالب بطيئة، يبدو عليه غنى من نوع مستحدث، تسرب عنه في آخر الليل من عثمان الصومالي، أنه ابن صاحب المزرعة، وهو المدير الفعلي لمشروع التهريب، أما زياد الأثيوبي لم يكن سوى شريك في الأرباح، ومسؤول عن تحمل الوزر القانوني في حال المواجهة مع السلطات الحكومية، لكنه في الواقع لم يتحمل أي وزر من اليوم الذي بدأوا العمل سوية، لأن والد محمد من الثوار رفاق القائد.

مد محمد جسده المتعب من أعباء النهار راوحاً ومجيئاً، على بساط بألوان يغلب عليها الأحمر، اتكأ على وسادتين، بدأ أولاً في شد النفس قوياً من خرطوم طويل، لأرگيلته المزركشة، نفث دخاناً كثيفاً الى الأعلى، علق أيهم بالقول أنه غير مكترث لاحتجاج العالم، وخوفهم على طبقة الأوزون.

سكب من كيس (البوخة) ربعه في قدح من الزجاج، أدار آلة تسجيل لها سماعتان منفصلتان، ظهر مقطعاً للمطربة وردة الجزائرية (بحبك والله بحبك) يصدح عالياً في أرجاء المزرعة، بان كأنه راح في الخيال بعيداً، الى عالم خاص لا يمت الى عالم القابعين في هيكل القصر، ستون حالماً أي صلة.

في الجزء الخلفي من القصر باحة، نصب على جانب منها موقدان من الحطب، وقدران ينتصبان على طابوق، وبدر المغربي

البدين يمسك مغرفة حديدية، مثقبة يخلط فيها مواد القدر الأيمن مرقاً خال من اللحم مواده السائدة طماطم وباذنجان، وترك القدر الثاني للرز على نار هادئة يستوي ببطء.

قدران تجمعت من حولهما الأقوام أجناساً، قائد مجموعتنا المصري، لم يتوقف عن الكلام، طرفة تتبعها أخرى لتلطيف الأجواء، وكأنه أدرك مقدار القلق، حتى فاحت رائحة المرق ناضجاً، سكت ليقدم صحنه مع صحون، مُلئت رزاً وفوقه يطفوا المرق راكداً، أخذناها وقصدنا محمد في خلوته كي نفهم.

لم نفهم شيئاً فقد بلغ الكأس الرابع، وكماً من الحشيش خُلط بتبغ الأرگيلة، كذلك لم نتوصل الى حقيقة الإبحار المطلقة، ولا الإجابة عن سؤال:

- هل نبحر ليلاً أم لا نبحر؟

كانت اجاباته تتحمل قدراً من الاحتمالات، جعلت الواحد منا متعلقاً بقشة حياة كل ما يلزمه لتفادي الموت، والى أن فارقناه زادت العتمة في عقولنا وصعب القرار، فاقترح محمود مداواة القلق المتزايد بالمشي، لكنه لم يحل مشكلة القلق، فعدنا بسبب عدم حلها الى المهجع في حيرة من أمرنا، وقد سيطرت اليقظة النافرة على عقولنا وتصادم الأفكار... أفكارٌ خيمت عليها الخشية من الوقوع في فخاخ النصب، بانت بعض شراكها واضحة في الطريق.

تلفتنا في المكان لنتأكد أننا لسنا الوحيدين القلقين، أو الشاعرين بخشية النصب، فتبين أن عموم الستين مثلنا يقظين مستنفرة

حواسهم. قال هشام المصري، لا ينفع الكلام هنا، دعونا نعود الى الخارج نكمل ما تبق من الليل، يبدو أننا لا نبحر هذا اليوم.

.....

لملمتْ المجموعة شتاتها، بين شجرتي زيتون عامرتين، أوقد محمود ناراً، جلسنا من حولها نتبادل أطراف الحديث، قصصاً عن الماضي، والطموح وبقاياً أمل. بدأ محمود استعراضاً لعلاقاته جندياً في الخدمة الإلزامية، سنتان قضاهما من غير مسك البندقية، ولا المشي في رهط تدريب نظامي، قال أنه كان يدفع طوالها راتبه الشهري الى آمر الفصيل، ونصف مورده من أعمال بيع التحف، ختم حديثه مغامرة مع الانضباط العسكري هروباً من محلة النبي شيت في الموصل، وملاحقة تخلصَ منها قريباً من منطقة الدواسة، دفعته الى قرار الهجرة.

لكنك قلت، مسألة الزواج من ابنة عمك سبباً للهجرة، علقت ضاحكاً.

رد بانزعاج، يبدو أن السكوت هو الأفضل.

حوّل المغربي همام سير الحديث الى مغامرات الهجرة، محاولاً تخفيف آلام محاولاته التي لم تنجح، دخل في الموضوع، قال لا يهمني الفشل، ولا تخيفني تهديدات الشرطة، واجراءاتها في إلقاء القبض، وهذا محتمل بقدر كبير، إنها محاولته الثالثة، وان فشلت فستكون رابعة، وخامسة حتى ينجح، هناك ابنة عم له متجنسة فرنسياً تنتظره للزواج حباً منذ الصغر، سيتزوجها حال وصوله، وعند الزواج يحصل على الإقامة الدائمة، وعمل مضمون، مع عملها في مزرعة عنب جنوب البلاد.

لاحظ همام بنباهته في السرد اصغاء الجميع الى تجربته، فأكمل العرض منوهاً، الى آخر اتصال لها بالأمس، من مكان عملها في المزرعة، طمأنها فيه قرب اللحاق، قال أنها كانت قلقة، لأن المحاولة الثانية قبل ثلاثة شهور، انتهت بغرق القارب في المياه الدولية، وتدخل البحرية الاسبانية، لإنقاذ الركاب، وضع الناجين منهم على قارب مطاطي، قريباً من السواحل المغربية ليلاً، محذرة من تكرار المحاولة.

تأوه حسرة، ثم نوه أنه على الرغم من المخاطر عاد، وسيعود، لأنها هددته صراحة في حال عدم العودة في غضون عام، ستتزوج فرنسياً، تتعامل معه صديق يعمل كذلك في المزرعة، ثم تمتم بصوت خافت، أن لها الحق في اطلاق التهديدات، ولها الحق في ان تتزوج، لأنها جميلة.

وقال عثمان الصومالي عن نفسه، جاء ليبيا مع أخيه وأسرتيهما، أبحر أخوه وأسرته في الوجبة السابقة قبل شهر، بينما تأخر هو لمرض زوجته، سكت بامتعاض حزيناً، قال عن أخاه وأسرته قد انقطعت أخبارهم، وانقطع هو عن العالم معزولاً في هذه المزرعة التي تسكنها أشباح، عمل فيها فلاحاً وعاملاً ومنظفاً، لقاء اطعامه والأسرة، ينتظر اكتمال الوجبة الثانية للإبحار، يتكلم طوال الليل مع أشباح، يشبه بعضهم محاربين من القرون الوسطى.

تنبه الى أن أفراد المجموعة ينصتون ثم قال: إنه سمع من محمد عن أبيه رفيق القائد أن على هذه الأرض، حدثت معارك عام ١٩٢٦ مع الايطاليين، نتجت عنها مجزرة للطرفين، وفي داخل

أماكن منها كأرض للمعركة، دفنت جثث مقاتلين من الجانبين في قبور جماعية غير مؤشرة.

كأن عثمان في حكايته عن القبور والأشباح، قد حرك الزمن الراكد في عقول الجالسين، وخيل لهم بعد قصها حكاية أبقاها ناقصة، كأنهم أُدخلوا أجواء عصر آخر غير هذا العصر، الناس فيه يختلفون عنهم وهواؤه أخف من هواء عصرهم، ومنظر أشجار الزيتون في ضوء الطبيعة آنذاك مختلفة عن رؤيتهم لها في ضوء المصابيح الكهربائية.

ضغط محمود الجالس الى جواري على رسغ اليد، شعرت نداوتها تعرقاً، قرّبَ فمه من اذني قال أستأذن الذهاب فالنوم قد كبس، أدركت خوفه من الأشباح، فتدخلت في تغيير سير الحديث وسألت المصري هشام ما الذي أتى به الى هنا، والمصريون يرتبطون بالأرض أكثر من غيرهم؟

ضحك ساخراً وبدأ بسرد قصته:

لقد باع فداناً من تلك الأرض التي تركها والده إرثاً للأسرة، بغية توفير التكاليف اللازمة لهذه المغامرة، له زوجة ارتبط بها من سنتين، وطفلة بعمر السنة تركهما هناك في كفر حمادي، سيعمل حال وصوله الى أي بلد يرسي على شواطئها المركب، حلاقاً أو فراناً أو سباكاً، أي شيء يحصل منه مالاً يعوض الفقدان، سيرسله الى أهله ليشتروا بدله فدانين، ويبنوا بيتاً، ويجهزوا زواج البنات، ومن بعد ذلك، سيعود اليهم مهما طال الزمن.

طلع الفجر باهتاً ومجموعتنا وأخرى، باقيتان في أماكنهما، يتبادل الحالمون فيهما الأحاديث تخفيفاً للقلق الهائم، الا أطفالاً ثلاثة هم أولاد عثمان توزعوا على البسط، ناموا ببراءة دونما قلق.

بان محمد قريباً من مجموعتنا نصفه نائم، ونصفه الآخر صاح، قال تعالوا، فنهضنا من أماكننا، توجهنا الى المهجع لجلب الحقائب، ضناً منا حلول الساعة المواتية للإبحار.

ابتسم بخبث، سأل الى أين أنتم ذاهبون، وقد حلت الصلاة، وانتم مسلمون، عليكم واجب تأديتها في أوقاتها كي يبارك الله وصولكم بسلام؟

توضأنا، ثم وقفنا خلفه إماماً.

.....

كان النهوض من نوم جماعي أعقب الصلاة في قاعة يكثر فيها الشخير، وأصوات أخرى متأخراً، تناولنا الفطور وجوباً، بيضة واحدة ورغيف عيش مصري، كنا قد وقفنا لتحقيقه في طابور يتجه الى بدر المغربي، هو المخول رسمياً بتسليم الاستحقاق، تحت شجرة الزيتون القريبة من حوض سباحة لم يكتمل، تناولنا الطعام بمتعة من لم يذق زاداً لمدة أسبوع، إلا محموداً المعتاد على شرب الشاي مع الفطور فعاد يسأل عن شاي.

سيكون الشاي جاهزاً بعد إتمام الفطور، وعلى شكل وجبات، لعدم امتلاك المزرعة أقداحاً تكفي، أجاب بدر بحزم، لكنه لم يقتنع، رفض طلبه فتطور الرفض الى الشجار، باللهجتين المغربية

والعراقية، لم يفهمها الا من كان يعود في انتمائه الى أحد الدولتين الشقيقتين.

صحا محمد وتدخل لمنح محمود أفضلية الحصول على قدح من الشاي واشارة واضحة الى أن القرار نافذ لهذه المرة فقط، نصحه بعدم اثارة الشغب، فهذه ليس سفرة مدرسية، قال في الختام مؤكداً، أنه القانون.

قارب الوقت حـدود السـاعة الثانية عشـر ظهـراً، اتفقت المجموعات اختيار ثلاثة من الستين، يمثلونهم في الاستفسار من محمد، عن مآل الإبحار الذي صار وكأنه، سر عسكري من أسرار الدولة، فتشكل الوفد ثلاثياً بالتراضي، مثلَ مجموعتنا هشام بعد رفض محمود التمثيل إثر انزعاجه من واقعة الفطور، وصلوا محمد الذي وجدوه يقيم في غرفة مؤثثة بشكل مريـح، سألوه عن موعد الإبحار، فأجاب واثقاً، كأن اجابته نتاج خطط أعدت لإبحار حاملة طائرات أمريكية، أن الوقت كان مقرراَ مساء أمس بعد الوصول الى المزرعة مباشرة، لكنه تأجل بسبب معلومات وصلت، عن وجود دوريات لخفر السواحل الليبي، تجوب منطقة الرسو، وخط الملاحة المقرر لليخت، وهم في انتظار زوال الطارئ الذي حرك الدوريات، وعلى العموم سيتم الإبحار، حال الحصول على مؤشرات أمان.

أخذ نفساً طويلاً من أرگيلته بعد الفطور، طلب التحلي بالصبر، مؤكداً الواقع لم يعد لعب أطفال، لقد تكلم بلغة المقتدر، غيَّر طريقة اللغة التي تكلم بها زياد، طوال الوقت الذي أمضيناه معاً في التفاوض، والتنسيق لإتمام الاتفاق، إذ كان في كلام زياد أمل،

واحتمالات وصول تقترب من المئة في المئة، الا عوارض قد تكون طارئة بأمر الله، بينما اقترب كلام محمد هذا اليوم من التخاطب مع أسرى وقعوا في كمين، على أثرها اجتمعت المجموعة تحت الشجرة إياها للزيتون، صار محمود محللاً عسكرياً، بدأ حساب احتمالات الفشل والنجاح، وأسباب التأخير، قارنها مع مصداقية زياد التي لا شائبة فيها، حسب قناعات تكونت لديه من لقاءات تكررت في بيته وبحضور الزوجة.

أكد عدم اطمئنانه الى محمد، فهو يتصرف بغرابه، وأكد أيضاً الرغبة في ترصده من بعيد، والاستعداد النفسي، لدفنه في المزرعة حياً.

قال هشام المصري حال سماع هذه التصريحات النارية (إيه ده يا راجل فال الله ولا فالك)، أما التونسي المرزوقي صار محللاً استخبارياً، عرض المعلومات التي جمعها عن أجواء البحر في هذه الأيام، والمسافة الأقصر الى سواحل صقلية الإيطالية، وقارنها بأقوال زياد، رجح عدم مصداقية محمد، ووضع احتمالات النصب.

هكذا كانت الأجواء، كل الاحتمالات واردة فيها، لكن لا أحد من المجموعة، ويقيناً من المجموعات الأخرى لتشابه الظروف، يجرأ على اتخاذ قرار الانسحاب، كأنهم أسرى قرارات تقيدت بعد تسليم الأجر مقدماً ألف دولار، لم يبق لهم سوى الاستمرار بالمشوار الى نهايته، فما تبقى من أمل بالنجاح موجود وإن تضاءل بقدر، لا يسمح بالتوقف وغلق الأبواب.

انها وقفة حائرة على مفترق طريقين أحدهما الاستمرار، والآخر حتمية الاستمرار، فاستسلمنا الى البقاء في حال انتظار، لا أحد يعرف مداه.

.....

حل ليل اليوم الثاني تماماً مثل سابقه، زاد في بدايته كم الترقب والقلق، تحرك أفراد المجموعة بين الأشجار مسافة مئات من الأمتار، فكر محمود قليلاً وحك جبهته ثم قال عليَّ العودة الى البيت أشعر حاجتي الذهاب الى الحمام.

علق هشام بالقول وهو يضحك، انه لم يكن محتاجاً الى حمام، لقد شاهده يعملها قبل العشاء، انه يخاف الأشباح، فأكملنا الجولة من غيره تفحصاً لأشجار الزيتون، كلها ضخمةً، بأعمار تزيد عن الثمانية عقود، قال عثمان لقد طرق سمعه أنها مزرعة كانت مملوكة لخواجة إيطالي، أهداها القذافي بعد الثورة الى رفيق عسكري شاركه إياها، خمن إنه والد محمد، بهذا التخمين انتهت الجولة مشياً، وبدأت أخرى جلوساً حول موقد النار، مثلما جرى في الأمس، حافظت المجموعة على قوامها، زادت إرتيري انشق عن مجموعته الافريقية، عدنا الى النقاشات، والأقاويل ذاتها، وبعض الحكايات.

في جلسات تستهوي أفرادها الحكايات القائمة على المغامرة، توقفنا عند حكاية السوداني تاج الدين، الذي قال فيها أنه من قبيلة الزريقات في دارفور، كانت بين قبيلته، وقبيلة المساليب الأفريقية ثارات لعشرات السنين، يتذكر منها أيام جده تاج الدين الكبير،

أخذت المئات موتاً بقصد الانتقام من كلا القبيلتين، بين تلك المئات اثنان من عمومته، ومثلهم من أولاد العمومة.

في آخر غارة شنتها قبيلته على المساليب اشترك بها مع أبيه الذي يحث على الانتقام بشدة، قُتل من الطرفين عشرون رجلاً، واحترقت بيوت، وتسجل في سجلات الشرطة أنه، والآخرين ارهابيون مطلوبون الى الحكومة، وشرطتها المحلية.

توقف تاج الدين عن السرد، أكمل بالإشارة الى أنه في اليوم الثاني من الغارة، رزم حوائجه واتجه الى عين البرنس في جبل العوينات، متخفياً بهوية مزورة، التقى صديق يسكن هناك، دله على مهربين، وضعوه مع خراف يهربونها في سيارة حمل، قطعت الصحراء الرملية الى ليبيا في ثلاثة أيام، مرت عبر قبائل بدو في تشاد، غرزت إطاراتها في الرمال الناعمة مرتين، كانوا طوال الطريق يتغذون على وجبة لحم مرة في اليوم، مات في الطريق اختناقاً رجل مصاباً بالربو، ختم حديثه بالإصرار على ترك البلاد العربية جميعها، مؤكداً أنه مل القتل، وأخذ الثارات والانتقام، وانه يرغب في العيش حراً، بعيداً عن قيم لا تصلح للعيش، وباكتمال حكايته انشق الفجر مؤذناً بموعد الصلاة، وحلول يوم ثالث في المزرعة انتظاراً للإبحار.

.....

(٦)

أكمل الستون صلاة الفجر بإمامة محمد الذي نادى الى الصلاة، بعضهم جامله في الصلاة وبعضهم الآخر دعا من قلب صافية اتمام مشروع الهروب، وتحقيق الحلم الموعود، توجهوا من بعدها يائسين صوب المهاجع، ليشبعوا الحاجة الى النوم.

لم أكن في وقتها راغباً في النوم، فوجدت نفسي قرب شجرة الزيتون وموقد النار، استنشقت الهواء بملء الرئتين.

هب نسيم من الصحراء عليلاً، حاملاً من جهة الجنوب لسعة برد لذيذة، مر على الأشجار سريعاً، حرك أعالي أغصانها، مالت نحيلة، فتحت أفاقاً لتأمل ما يحدث.

انتابتني فجأة نوبة رعب على أثر صوت ارتطام حديد بحديد، أدرت وجهي جهة الغرب، لاحت على الطريق الترابي سيارة حمل طويلة، ترتفع من بدنها الحديدي أصوات أجزاء منها تصرخ كلما ارتطمت مع بعضها، تسير مسرعة بكتلة ضخمة من حديد مرصوصة، تسبقها سيارة صالون، تحثها على السير سريعاً باتجاه البيت.

تباطأتُ قليلاً ثم أدرت وجهي صوب البيت، رأيت السيارتين قد توقفتا أمام بابه الحديدية. خُيل اليّ استفاقة رفيق القائد من غيبوبة طويلة، أو تخلصه من هم الإفلاس، فعاد مجبولاً أول الصباح لإكمال المنشآت المتبقية من البيت الذي يشبه القصر، وَخُيل لي حمولة من الحصى، وأكياس الاسمنت لكنها لم تكن كذلك.

تركتُ السيارات وتأويلاتها، وعدت الى سلسلة الأفكار، تحركت في الاتجاه المعاكس، تناهى الى سمعي صوتاً مبهماً، فأخذت من شجرة الزيتون الهرمة متكئاً للوقوف، بات الصوت مميزاً لأيهم، وباقي الكلمات طلب العودة الفورية الى البيت.

كانت خطوات العودة سريعة، أولى اثارها الجانبية حجب سلسلة الأفكار، بقاء نهاياتها ناقصة لم تكتمل، كما هو حال هذا البيت.

وقف الستون في صف واحد، اختلط فيه الكبار بالشباب، والنساء بالأطفال، وأهل المشرق بالمغرب، سقطت في وقوفهم هكذا، كل الفروق القومية والاعتبارات الدينية، وهم متراصفون باتجاه السيارة القلاب، تطلعتُ من حولي، أفتش عن شيء ما، لم أجد حمولة حصى، أو أشياءً أخرى قد أفرغتها في المكان، وبدل من تلك الأشياء التي تخيلتها، وأنا عائد الى المكان، وجدت محمد الليبي، وزياد الأثيوبي يقفان بالمواجهة، وهشام المصري وصل تواً يردد العبارة، (إيه ده). فأعاد محمد الأوامر صريحة لا تقبل الشك:

- اصعدوا جميعاً، ليس هناك وقت.

ولتجاوز الأسئلة، برر الحاصل إجراء يبعد العملية عن الرقابة الأمنية، واحتمالات المتابعة.

قال أيهم بصوت فيه حشرجة واضحة، كأننا في العراق.

صعد الشباب أولاً، توزعوا على حوض البدن، وتوزع من صعد بعدهم في تدافع، ليضمنوا مكان جلوس على قاعدته الحديدية المتربة.

رفع عثمان الصومالي أطفاله الثلاثة، فاستقروا واقفين داخل البدن ينتظرون مشوشين، وتفرغَ هو الى زوجته نشطاً، أمسك ذراعها في محاولة لرفعها، سحبها من الذراع اليسرى، فصعدت سالمة، وحال استقرارها على أرضية البدن الحديدية، اكتملت الحمولة ستون رأساً، يتكدسون داخل كوة، أشبه ما تكون بصندوق من الحديد الصدئ.

أحضر السائق غطاء لهذا الصندوق، قماشاً سميكاً بلون ترابي، ليكتمل التمويه لإبعاد تطفل الشرطة، فأحكم الغطاء حاشراً الحمولة المرعوبة.

علق محمود قائلاً، يبدو أنها سوف لن تنتهي بخير. رد تاج الدين، (فال الله ولا فالك يا راجل).

ساعة أو أكثر قليلاً، سارت القافلة سيارة حمل قلاب، وسيارة مازدا صالون بسرع مختلفة، سلكت طرقاً متعددة بعضها متعرج، لكنها لم تتوقف الا في النهاية، عند منطقة تغطيها أشجار كثيفة، أبقى سائقها المحرك يدور، ترجل في خطوة أولى لإزالة غطاء الصندوق والكشفَ عن الرؤوس البشرية المكدسة.

قال بحزم واستعجال، انزلوا بسرعة قبل أن تراكم الشرطة، فزيّد من شدة الرعب الذي أحدثه الجلوس بوضع القرفصاء، داخل بدن السيارة الصندوق.

وقف محمد، يؤشر بفوهة بندقية كلاشنكوف لمن يقفز، كي يتجه سريعاً عشرون خطوة الى الامام، والجلوس تحت شجرة، حدد مكانها بالإيماء، مؤكداً حتمية البقاء في حال انتظار.

نزلت حفيظة زوجة عثمان آخر النازلين، ولما وطئت قدماها الأرض أعطى محمد من فوهة بندقيته إشارة المغادرة، نفذها السائق على الفور، زاد كم الوقود في ضغطه على الدواسة، فانطلقت السيارة بسرعة جنونية، أخرجتها في صخب من الطريق الترابي، الى الشارع العام المكسو بالإسفلت، مزهوة بنجاحها، بلا مشكلات تذكر.

لم أعرف مكان التوقف، والشارع أو الطريق، إذ لم نمر عليه قبلاً، كي يسجل العقل دلالات التعرف على المكان.

سألت محمود عن المكان، أجاب أنه لا يعرف أيضاً، يحس وكأنه لا يملك عقله، فاسحاً المجال الى محمد لتقديم إيجازه السريع للمختبئين تحت الأشجار، بغية التحرك جرياً الى البحر، من غير التوقف مهما كانت الأسباب.

.....

كان البحر هادئاً في حالة جزر، اسهم في امتداد اليابسة مائتي متر على وجه التقريب، أضافها الى بقعة أرض بينه وبين الشارع، رملية رخوة، يمتزج لونها الحجري بقليل من الصفرة المحمرة، صارت واجهة لمنطقة الاختباء المغطاة بأشجار صنوبر، وشجيرات خروب نبتت طبيعياً.

الأشجار والشجيرات والطبيعة، جعلتها بقعة أقرب الى الواحة الصغيرة، وجعلتها صالحة للاختباء من جهتي الشارع والبحر.

لم أرَ البحر بوضوح من مكان الاختباء، ولم أشاهد يختاً راسياً، أو علامة مرسى في المكان.

تحرك الجميع كل على هواه، لكن وجهتهم جميعا كانت نحو البحر، لم يشتغل العقل طوال طريق التحرك، الا لتحديد الاتجاه، جرياً نحو الماء، مثل الناجين من حريق وهم يغلقون قسراً كل أبواب التفكير، ليركزوا الجهد على استجابات الفرار.

لقد ركزت في الجري المحموم صوب البحر، على هم الخلاص من ضغط الموقف، واحتمالات التدخل العابر للشرطة، واعاقة مشروع الهروب، صار موضوع التدخل مثيراً، ودفع الى بذل الجهد للإسراع في الجري.

وصلتُ وأيهم وهشام أولاً، كنا الأسرع بين الحالمين، وضعتُ يديَّ على ركبتيّ محني الظهر، لامتصاص التعب، وتخفيف شدة الضربات الآتية من القلب.

تطلعت بعينيَّ المفتوحتين على الآخر الى البحر، لم استطع رؤية اليخت الموعود، أدرتها آلياً الى اليمين والى الشمال، كان الساحل الرملي ممتداً الى مسافات بعيدة، وكانت النوارس تحلق في المكان متناغمة مع طلوع الشمس من جهة البحر.

أدرك أيهم القصد من فعلتي، راح يدقق في البحر بعينيه الثاقبتين، قال مخففاً وقع الصدمة على نفسه ومن معه، إن الشمس في الواجهة تعيق الوضوح، لكنه لا يرى يختاً، ولا سفينة في المكان.

ضحك هشام باستخفاف، وهو الآخر كان يدقق بالنظر قال، أرى قارباً في جهة الشمال الشرقي يقف على بعد مئات من الأمتار.

دققت مع أيهم ثانية، ظهر القارب وحيداً وسط الماء، كأنه حزين متشائم، تخيلت أصحابه قد هجروه خوفاً من أشباح، كما يحدث في أفلام الرعب التي شاهدت بعضها، أيام المراهقة.
اكتمل العدد بالتتابع، لاختلاف قدرات الجري، تأخرت أسرة عثمان، وأخرى صومالية، ولكنهم وصلوا في النهاية، ودخلوا القفص الخشبي مع الداخلين.

وقف محمد ببندقيته، المحشوة أمام الجمع الذي استمر بعضه يلهث، أعاد التأكيد على حراجة الوقت، في مثل هكذا مشاريع يتطلب إنجازها سرعة عالية، ووثوق في أصحاب المشروع.

كان محمد يعيد التحذيرات من احتمالات تدخل الشرطة، وخفر السواحل مع كل انتقالة وخطوة، كأنه يتعمد زيادة مستوى القلق، كي يحصل على الاستجابة تحركاً الى الأمام، تنغلق باستثارتها أبواب الرفض واحتمالات العصيان.

بعد التيقن من حصولها، طلب التحرك داخل الماء باتجاه القارب. رد محمود وقد غشيه الرعب، قلتم يختاً، فبادره محمد بعبارة فيها قدراً كبيراً من الاستهزاء، انه قارب ابن عم اليخت، لابد من حمد الله وشكره، على ركوبه قارباً، قادراً على تلبية الرغبة في الوصول الى الضفة الثانية من البحر، وتحقيق الأحلام. ختم عبارته بسؤال فيه شيء من التعجب:

- ألا تريدون الوصول؟

ثم أجاب على سؤاله بالقول، ابدأوا سريعاً كي تصلوا في الوقت المحدد.

كيف نبحر في مياه البحر مئات من الأمتار، ومعنا نسوة وأطفال، قال عثمان، ثم تلفظ بكلمات صومالية لم يفهمها الآخرون.

إنها ليست مشكلة، وان الخط خط تهريب، وليس طريق سياحة، والمسافة الى القارب تقطع مشياً، وقد اختيرت بدقة، وقطعها من قبل مشياً مئات العابرين، يعيشون الآن في أوربا بأمان، قال محمد.

وقفتْ محفوظة في مكانها تمسك طفليها من ذراعيهما، وهي ترتجف كورقة الشجر.

أصرت أن لا تمشي في هذا الماء خطوة، لأنها كانت تخاف من الماء وإنها لم تعبر ساقية في حياتها فكيف بحراً هائجاً، ثم التفتت الى عثمان خاطبته ببعض كلمات، بلهجتها الصومالية كأنها تريد تذكيره بحقيقه يعرفها.

رد وهو يرتجف غضباً، انه لم يعد عارفاً بشيء في هذه البلاد، التي جاءها بلا معرفة.

جلست محفوظة على الرمل، عُقِدتْ من حولها حلقة بوضع الوقوف مذهولة، تراقب طرف ثوبها وقد ابتْل بماء البحر، لصقت به ذرات رمل ثقيلة، تركت ذيل الثوب سائباً، كأنها تصر على الرفض، وتتحدى أوامر محمد وعثمان في اكمال المشوار، بانت قدماها جميلتان سمراوان بلون العسل الزهري، دقق بهما محمد نظرات تفوح منها الغريزة، فأعادت ذيل الثوب سائباً لتتحاشى النظر لساقيها العاريتين.

نظرت الى محمد نظرة حقد، وهكذا تفعل النساء عادة في مواقف الحرج، ولزام الخيار بين الموت، وبين الاستغلال لأغراض الاشباع الشائن للغريزة، بكت بحرقة، فأظهرت جمالاً نادراً لوجهها الذي يكتنفه الحزن قالت، ستذهب صاغرة، ليأخذها البحر قرباناً، ولا تبق نهباً للوحوش، لم تعد تهتم لهذه الحياة التي تملأها الكواسر، رفعت رأسها صوب عثمان وأكملت قولها، أنها قد أودعته الرب شاهداً، إذ لم تكن راغبة في السير بهذا الطريق الوعر، ولم تحلم يوماً في العيش داخل أسوار أوربا اللعينة، كانت راضية بعالم القبيلة والجوع والفقر، خير من عالم الوحوش.

أدرك محمد خطأ نظرته وحراجة الموقف، رجع خطوات الى الوراء، أدار وجهه صوب زياد، طلب احضار النجادات من صندوق السيارة. قال عساها تنفع حلاً، كان في تلك اللحظات، وكأنه يشعر جدياً بالحرج.

وُزِعت النجادات على ثلاث نساء بينهم محفوظة، وسنغالي هو الآخر يرتجف خوفاً من البحر، كان توزيعها نصف حل لمشكلة محفوظة، والنصف الآخر، رجاء قدمه عثمان لحمل طفليه، وتفرغه لحمل الثالث.

حملتُ واحداً هو الأكبر وحمل أيهم آخراً، وبقي الأصغر في حضن الأب.

مد محمود يديه، فاخذ الطفل الصغير أيضا، قال كي تتفرغ الى محفوظة، تطمئنها حتى الوصول الى القارب.

.....

خلعتُ حذاء الرياضة، وملابس أخرى، ولم يبق على جسدي سوى ما يستر العورة، وضعتها في الحقيبة، عملتُ من القميص مشداً يربطها فوق الرأس، فكانت ثابتة، وكذلك فعل بعض المبحرين، الا النسوة، وضعن النجادات على أجسادهن ودخلن الماء بملابس كاملة وحجاب كامل، درجت كل واحدة الى جانب زوجها، مشجعاً وحارساً لها.

كان دخول الماء يبعث على الخوف فالسنغالي في البداية كان يتقدم خطوة، ويعود الى الخلف خطوة، وبات الجميع يتحسسون الأرض تحت الماء بتوجس، لكنهم ساروا، فكان السير العائم أول خطوة مجازفة في مشروع الإبحار.

مائة متر من المشي على قاع بحر رملية، وحمودي ابن عثمان ساكن على الكتف لم يتحرك، لم أسمع سوى نغمة أنفاسه السريعة، وضربات قلبه، يُكبر البحر صداها في إذني، وباقي الحواس المفتوحة على الآخر، بقيَّ طوالها هكذا ماسكاً من الشعر بقوة، يتنفس رعباً مكتوماً، وكأنه أخذ من خوف الأم جرعات جعلته مأزوماً.

مشى خلفي الجمع قلقاً مائة متر أخرى، ظاهرة رؤوسهم وما عليها من حقائب أو صرر ملابس، اقتربنا من القارب خمسين متراً، صار شكله واضحاً.

ركزتُ في النظر أكثر، كان قارب صيد على الماء قديماً يتمايل تمايل شيخ حزين، وبانت الأمتار العشرون الأخيرة لعثمان ومحفوظة هي الأصعب، أخذت وقتاً أطول في المشي المتوجس، فمحفوظة قصيرة القامة، نحيفة، صارت تتنطط في الماء أكثر من

غيرها كي تحافظ على تحسسها الأرض، احتاجت عثمان آخر المشوار، عوناً أكثر لرفعها مع كل قفزة كي لا تغرق، وإذا ما أرخى يده صدفة تعود الى حالها تفتش عن القاع، غاطسة تصرخ، صراخاً سرعان ما ينتشر عبر الماء، يسمعه الآخرون فيتأوهون أكثر، يشتمون زياد أكثر، لكنهم مستمرون في المشي، وسباحة حتمية في الأمتار الأخيرة حتى القارب.

لم يفكر واحد منا في اتخاذ قرار التوقف، أو العودة كما هو حالنا في المزرعة، وعند ركوب سيارة الحمل القلاب، مدركين تماماً في موقفنا هذا استحالة العودة، ومحمد ما زال واقفاً على حافة الماء يحمل البندقية، والى جانبه زياد، كأنهما يستعرضان جمعاً من الأنصار، في طريقهم الى تنفيذ مهمة بحرية انتحارية.

مسكتُ حافة القارب الخشبية، والى جانبي أيهم، وابن عثمان مازال ماسكاً الشعر بقوة، لا يريد الانفصال.

ناديت بأعلى صوتي طالباً ظهور من في القارب، كررت المناداة ثانية، لتلقف الطفل كي أقفز، ظهر من وسطه الطباخ المغربي بدر، بقميص أبيض وبنطلون أزرق، وطاقية مائلة الى الزرقة، تناول الأطفال تباعاً، وأطل من مكانه على الذين يسبحون كالضفادع، يتطلع اليهم بشموخ، فكان وجوده مفاجئاً، والمفاجئة الأكبر أعلن أنه قبطان هذا القارب.

.....

صعد الجميع قارباً مجهول الهوية، غابت من عقولهم صورة اليخت المأمول، وحسناوات قد تظهر بين الطاقم تخفف قسوة البحر، قارب صيد أحيل على التقاعد من سنين، كهل قصير

القامة، مقدمته مدببة قليلاً، لها سقف مكسو من الداخل بخشب الصاج المضغوط المتهالك، تسمع صرير الخشب وهو يئن تحت قدميك، أسفله تجويف على شكل مخزن مخصص لشباك الصيد.

من بعد ثلاثة أمتار من مقدمته، أربعة أخرى كونت منطقة مكشوفة، حوض مكسو بخشب من النوع ذاته، زال من عليه الطلاء، صار لونه ترابياً وتشقق، خُلعت بعض ألواحه من مكانها، فبانت أضلع خشبية ركيزةً، أنشأ على متنها القارب، كانت صامدة في أماكنها قوية تصارع الزمن.

بعد الأربعة حاجز خشبي له باب تؤدي الى ثلاثة أخرى، وضع على قاعها محرك ديزل هرم، صار لونه أسود داكن، توزع الزيت المحروق على بدنه دون انتظام، بعض أنابيب الوقود وأسلاك الشرارة ظاهرة، ومؤشر ضغط وآخر للحرارة ينتصبان في نهايته، تدل جميعها على أنه ما زال يكابر ويعمل، وأنبوب صدئ خرج من خاصرته، امتد صاعداً الى الأعلى لنقل العادم، فيه بعض ثقوب تنضح دخاناً عند العمل، بانت المترين الأخيريتين من هذا القارب بقايا مطبخ، تركت على أرضيته،، وعند جوانبه معدات قديمة، وقدور من الألمنيوم، وأطواق نجاة بطل مفعولها، يغطيها سقف خشبي متين أقيم على سطحه موقع قيادة، انتزعت من جوانبه تلك الجدران الخشبية، فصار مكشوفاً، أختزل الموقع بكرسي حديد متحرك، يقابل مقوداً دائرياً لتوجيه الدفة، يرتكز على عمودين حديديين، وسلسلة مثبتة على حلقة، ارتبط وجوده

بوجود القارب، ودل على أنه من جيل الستينات قبل حصول الثورة.

جلس بدر على الكرسي، صامتاً لم يتكلم، كان هو من أيام المكوث في المزرعة قليل الكلام، منطوٍ على ذاته، يبدو على وجهه الاكتئاب، والعبوس، كأنه مهموم أو غير راض، وربما عارف عدم قدرته تحمل المسؤولية، التي ألقيت على عاتقه في قيادة قارب متهالك، وربما يعرف أسراراً عن الرحلة، والتهريب لا نعرفها، ولا أحد منا يعلم، وهو من جانبه لم يُعلِم أحدا ولم يتكلم.

توزع الحالمون حشراً على مساحة القارب المتاحة في الوسط، لم يكن الوسط مناسباً لستين راكباً بقياسات الجلوس، والحركة التي تزداد عادة في حالات القلق، فتسرب بعضهم الى الأعلى قريباً من القبطان، وعلى المقدمة، فيما تحتها وفوقها.

كان نصيب مجموعتنا أعلى المقدمة، باستثناء محمود الذي أخذ له مكاناً في الأسفل، ماداً جذعه المتوتر على بقايا شبكة صيد متهرئة، وكان نصيبي جالساً في المثلث الأول عند المقدمة، احتضن أكرة القارب الخشبية التي تلتقي عندها أضلاع المثلث، كما فعلت في العبارة، مطلقاً العنان لساقين تتدليان في الماء، وعقل يتطلع الى البحر من ثلاثة اتجاهات.

.....

نزل بدر من موقعه على الكرسي، دخل حجرة المحرك أداره مباشرة، قال زر التشغيل من الأعلى قد تعطل، فتصاعد الدخان إيذاناً باتخاذ الخطوة الأولى ابحاراً الى الضفة الأخرى. كانت

الشمس قد أشرقت للتو، تلقي بأشعتها على ماء البحر، فتعطي لمعاناً يشبه بريق الذهب.

عاد بدر الى موقعه على الكرسي الحديدي، دفع عتلة الوقود الى الأمام، تصاعد دخاناً أبيضاً الى الأعلى، أدار الدفة نصف دورة، تحرك القارب يميناً بزاوية تسعين درجة، أبحر بهدوء شاحب، يتمايل، كمن يشكو فرط الحمولة، وأمواج تنساب من حوله تفوق قدرته على المواجهة.

مرت الدقائق مشوبة بالتوجس، وعم المكان سكون مطبق، أدرت وجهي الى الشاطئ، لاح كأنه يبتعد قليلاً ويصغر، عدت به الى الأمام، ظهرَ القارب في موقعه، والدائرة المحيطة على مد البصر، عندها وفي لحظتها بدا الزمن موحشاً، وبدت أشعة الشمس في سقوطها على الماء الهادئ من بعيد صامتة، تزيد شدة الوحشة. قلقت من الإبحار في قارب لا عهد لي به.

فاق أطفال عثمان الثلاثة، من صدمة عبور المسافة المائية الى القارب بعد ساعة، بدأوا نوبة بكاء فسرتها محفوظة، خوفاً من المستقبل والبحر، واحتجاجاً على نظرات التوحش، قالت انهم يتحسسون عدم الرغبة في إتمام المشوار ويتضامنون.

مد السنغالي جسده قريباً منهم شاكياً دوار البحر، بقيّ محمود في مكانه على الشبكة المتهرئة، يشكو الغثيان، وبعض التشوش في الأفكار حتى صار يهذي، سأل عثمان بصوت سمعه الآخرون:

- هل يرى مثل ما يرى، أشباحاً تشبه تلك التي تظهر في المزرعة؟

أجابه، اتركني في حالي بالله عليك.

حاول محمود التقيؤ مرات عدة، نجح في واحدة منها، أثارت احتجاج القريبين منه، فغيروا أماكنهم، وتركوه قريباً من بقعة قيئ.

انتصف النهار ابحاراً متواصلاً، يحسب بطيئاً بالمقارنة مع سرع القوارب العادية، ارتفعت حرارة الجو، فأبطئ القارب البطيء سرعته، صار يحبو، وصار محركة يجأر، صوت ينبعث من داخله كأنه رغاء بعير متمرد، أعاد بدر عتلة الوقود الى الخلف فتوانى ثم توقف، وهدء الموج. نزل الى غرفة المحرك فاحصاً، باعتباره القبطان المسؤول، وجد مؤشر الحرارة مرتفعاً يلامس الأحمر، ووجد رذاذ الزيت خارجاً من غطائه الأسود، ومن الفتحات الخاصة بشمعات القدح وأماكن أخرى، ووجد أيضاً ماء التبريد قد نضب تماماً، ومياه البحر قد تسريت الى القاع من شقوق في الخشب، أوسعها الاهتزاز المتواصل للمحرك، أضحت تلامس قاعدته الحديدية.

أفاق المبحرون من هدوئهم، تحركوا في أماكنهم وأماكن أخرى، دخل المرزوقي غرفة المحرك، قال لبدر تنحى قليلاً أنا ميكانيكي وأفهم في أمور المحركات، طلب إبقاء المحرك شغالاً، وَوضعُ الماء في وعاء التبريد (الراديتر)، لتقليل الحرارة.

انخفضت حرارة المحرك الى الحال الطبيعية، أطفأ بدر الدوران، قاس المرزوقي مستوى الزيت، فناوله بدر علبة زيت وضعت احتياطاً، وأكمل نقص الماء، قال أدر المحرك، دعنا نبحر، عساه يصمد، ثم نادى المجموعة كي تتهيأ لنزح الماء المتسرب.

كانت الوجبة ثلاثة، وكنت واقفاً الأول الى جانب المحرك، والثاني هشام عند باب الحاجز، والثالث تاج الدين على حافة القارب، بدأنا المشوار نرفع الماء الذي غزا القارب، بقدر قديم مثقب، تبادلت وزميليَّ مواقعنا مرتين، كان الموقع الأول أكثر تعباً، وازعاجاً بسبب الحرارة، ودخان العادم، ورذاذ الزيت المتناثر.

تحرك القارب العجوز باتجاه الشمال، وقد أسقطت الشمس أشعتها عمودياً على الرؤوس، أسهمت في سريان اليأس سريعاً واحتدام النقاش، ماء الشرب بدأ يتناقص، أضاف قدراً آخراً الى اليأس، حتى أن همام المغربي رفض الاستجابة الى مقترح القبطان، ليكون بديلاً عني في الوقوف عند المحرك، قال بصوت عال وبلهجة مغربية فهم منها (وإحنا شنو خصنا بهادي الخدمة الكحلة)، وكذلك فعل الاريتيري ومحمود.

عاود القبطان الطلب ثانية وثالثة، لم يتقدم الا شيرزاد عراقي كردي، فعاودنا العمل، وكان نصيبي البقاء في الموقع الأول عند أعتاب المحرك شبه ثابت.

ارتفعت حرارة المحرك من جديد بعد ساعة إبحار اضافية، وارتفعت حرارة اشمس الساقطة عمودياً، وارتفعت حرارة الغرفة الخشبية شبه المغلقة، وزاد تطاير الرذاذ الزيتي في الأجواء لمسافة، تتزايد طردياً مع ارتفاع حرارة المحرك، حتى صارت القطرات المتطايرة الى منطقة الصدر وما تحته تلسع، وكأنها دبابير تهاجم بجنون.

رغى المحرك ثانية، تعالى صوت رغائه ثم سكت، وبسكوته توقف لسع الزيت، فتنبهت الى أجواء الغرفة كانت فرن بمدخنة، عندها دخل المرزوقي الفرن قلقاً، وجد الحال بائساً، رذاذ الزيت يتوزع على الجسد شبه العاري بالتساوي، أحدث حروقاً تتوزع كذلك بالتساوي، قال اخرج الى الفضاء للتنفس، فدخان العادم سام، فحل في المكان الأول شيرزاد مبادراً.

.....

بدأ المرزوقي جولة اصلاح بمعدات قديمة غير مناسبة، جمعها من أكوام الخردة على الرفوف متروكة، نظف شمعات القدح من الزيت الذي وصلها عنوة، ثم سكب ما تبقى من الماء المعد للشرب، في (الراديتر)، وفي المحرك وضع آخر علبة زيت احتياطي.

قال لا يمكن الاستمرار هكذا، فالمحرك قديم انتهى عمره الافتراضي، يستهلك كماً من الزيت للاحتراق، ليس موجوداً، بدا ممتعضاً ثم واصل الكلام قائلاً، محمد وجماعته لم يضعوا احتياط من الزيت، ولم يحسبوا الحساب، ثم التفت الى بدر معاتباً:

- كيف لك قبول هذا الوضع، وإذا لم تكن خائفاً على مصائرنا، ألم تخف على حالك؟

أجاب بدر بغضب، كان مكرها وهو يريد الهجرة الى أوربا، الذهاب بلا عودة، كان في نيته وما زال ترك القارب عند السواحل

الصقلية، أو حتى اغراقه بعد النزول من على متنه، وليذهب محمد واصحابه المهربون الى الجحيم.

رد عليه المرزوقي بعدوانية بيّنه، أنت واحد منهم ولا تختلف عنهم، فزاد التوتر بينهما مغربي وتونسي، مما عرض التوافق العربي الى الخطر، فقد هجم التونسي بعتلة حديدية على القبطان المغربي، لو لم يتفاداها لفتحت شقاً في رأسه، لكن تدخل المبحرون العرب أسهم في تفادي الخطر، وتهدئة القبطان، الذي اقترب من المرزوقي معتذراً عما حصل.

قال عن محمد إنه شرير، وانه ضابط في خفر السواحل، ألقى ودوريته القبض على قارب كان في حينها أي قبل مساعد قبطان، وكان متوجها الى إيطاليا.

أجبر ذاك الضابط محمد أن يكون شريكاً له في عمليات التهريب، وأجبره محمد بالتوالي على العمل قبطاناً لقواربه المتجهة الى صقلية ومالطا.

اقترحت مجموعة من الشباب يتقدمها المرزوقي، بعد إثباته جدارة ميكانيكية، عقدت اجتماعاً مع القبطان بدر في موقع القيادة، وأيد من جانبه التشخيص (عدم قدرة المحرك الاستمرار في الإبحار لحاجته الى الزيت والماء)، وايد كذلك مقترح العودة الى الساحل الطرابلسي للتزود بهما، وتبديل شمعات القدح ومعاودة الإبحار.

غرق قرص الشمس رويداً في أعماق الطرف البعيد من البحر، فكوّن لحظة زمن موحشة امتزجت فيها المشاعر اليائسة برذاذ البحر، أدخلت الجميع في صمت مطبق، دفعت بدر الى إدارة

الدفة دورة كاملة، لإعادة القارب باتجاه الساحل الطرابلسي، عاد بطيئاً، ملتزماً بمشورة قدمها المرزوقي، ألا يضغط على المحرك، فلا يستهلك زيتاً أكثر، فاستغرق المشوار معظم ساعات الليل.

بزغت الشمس من الطرف الثاني للبحر، أوقف بدر قاربه في مكان غير مكان وقوفه السابق، قال حاجتنا الى شابين متطوعين يجيدان السباحة، ينتظرهما محمد في بيت يجاور قاعدة خفر السواحل، وقد هيأ ماءً وزيتاً واحتياجات أخر، وما يكفي من وقود، لمواصلة الإبحار ثانية. أوحى بشكل غير مباشر الى اتصال تم بينهما، عن طريق جهاز لاسلكي.

نزل المرزوقي ميكانيكي القارب، القادر وحده محاججة محمد عن حال المحرك، وتطوع شيرزاد لمرافقته، سبحا ثلاثين دقيقة وأقل منها مشياً.

توجهوا الى مكان يوجد فيه محمد طوال الفترة التي تستغرقها الوجبة في الوصول الى الضفة الأخرى، أو تنعدم أخبارها، غرقاً وسط البحر، يعود من بعدها الى المثابة، بغية التهيؤ لوجبة أخرى، كان في تلك السنة الرزق وفير.

أربع ساعات بقيّ القارب واقفاً في المنطقة، يتحرك قليلاً ليعود الى مكانه ساكناً، ظهر من بعد انقضائها قارب مطاطي سريع يحمل شخصين، اقترب أكثر، فكان محمد والمرزوقي، وخمسة أوعية بلاستيكية بثلاثة ألوان مملوءة بالزيت والماء ووقود الديزل.

ناولها المرزوقي مستعجلاً، ثم قفز الى القارب كذلك مستعجلاً، خاطب بدر في أن يبحر، ثم غادر بقاربه المطاطي المكان، يتلفت قلقاً على غير عادته.

قال المرزوقي لقد تركني شيرزاد، واتجه الى طرابلس حال بلوغ الساحل مؤكداً عدم اطمئنانه الى الرحلة والقارب، ومحمد رأس الأفعى.

عدتُ الى المقدمة اراقب ما يجري، شدني قرص الشمس وباخرة حاويات كانت تمر، ومركب قادم من جهة اليمين سريع ضخم، ومثله آخر من الشمال، وثالث من وسط البحر على ظهورها خليط من العسكر والمدنيين.

.....

(٧)

لو كانت هناك فرصة مواتية للقفز من القارب هروباً لقفزت، قلتها مع نفسي حال اقتراب مراكب الطوق الثلاثة، وبنادق عساكرها، بانت فوهاتها مصوبة نحونا كلما اقتربت أكثر. أدرت النظر الى ركاب قاربنا، كانوا جميعاً يرتعشون وقد تجمدوا من الخوف وصار كل منهم ينظر الى صاحبه القريب، كمن يفتش عن إجابات، لم تكن موجودة في عقله المشلول.

اقترب المركب القادم من جهة اليمين الى قاربنا حداً كاد يلامسه، بان منتسبوه بكروشهم المتدلية، ولم تكن ملابسهم لتدل عليهم خفر سواحل هم أو رجال عصابات.

وقف أحدهم على الحافة بملابس عسكرية نظامية، حاسر الرأس، يحمل بندقية، ووقف الى جواره من اليسار رجل أربعيني يعتمر زبوناً، وثوباً تحته سروال أبيض اللون، بيده مسدس، وثالث الى الخلف يرتدي قميصاً، مفتوحاً من الجهة العليا، كشف عن شعر صدره الأشيب، وبنطلون بني، ينتعل نعالاً من الجلد الأسود، يحمل رشاشاً، وخلف مقود الدفة آخر بملابس رياضة، وآخرون يختلفون.

قفز العسكري حاسر الرأس، من مكانه في الجانب القريب الى قاربنا، شده بحبل الى مركبه أعطى إشارة اتمام المهمة أول علامات الأسر، قفز من بعده الاثنان القريبان يشهران السلاح، سيطرا على القارب، أتما فعل الأسر بلا مقاومة، بدأ رابع من مكانه يصدر أوامر الوقوف في المكان بلا حركة.

وقفنا في أماكننا رافعي الأيدي معلنين علامة الاستسلام علامة الاستسلام، ورفع أولاد عثمان الثلاثة أياديهم تقليداً لرفع والدتهم كلتا يديها، فعم السكون الصادم قارب الأحلام، الا من حفيف ماء يرتطم بمقدمته العتيقة، تخيلت حالنا نتاج معركة بحرية غير متكافئة، دارت معنا وسط البحر، أسر فيها قاربنا، أتيَّ به غنيمة حرب، لكن عقلي المشوش لم يستوعب هذا التشبيه، فأبدلت التخيل عمداً الى سيناريو فلم سينمائي، ونحن الممثلون فيه.

خُرقَ السكون وحفيف الماء ومسلسل التخيل، أثر تأوه تاج الدين من ضربة تلقاها صدره، بأخمص بندقية من العسكري حاسر الرأس، وانتهى ذاك السكون تماماً بعد سيل كلمات جاءت متتالية، من مكبرة صوت تطالب بوضوح، باستمرار وضع الأيادي على الرؤوس، والوقوف في الأماكن بلا حراك.

غيّرَ العسكري حاسر الرأس بعد إتمام المطالب رِباطُ الحبل، وضع طرفه بأكرة المقدمة لقاربنا، وشد طرفه الآخر بإحكام الى عقدة في مؤخرة مركبه، وأعطى الإشارة بكف اليد، فتحرك المركب نشطاً يقطر قارباً متهالكاً، ترافقاه مركبا حراسة، وكأن الحال تشكيلة نصر بحرية لأسرِ غواصة تجسس.

أدرك قائد التشكيل خطورة السرعة، واحتمالات تحطم القارب أو غرقه، أبطأ السرعة لتتلاءم مع قدرة تحمل قارب خشبي عتيق، كان همه على ما يبدو الحفاظ على القارب، وحمولته مبرزات جرمية لخيانة وطن، هكذا كان الوصف في سلسلة الشتائم، التي توالت من مكبرة الصوت، نجح القائد في تقليل السرعة، وفي إيصال الحمولة، والمبرزات الجرمية الى المرسى بسلام، ونجح

أيضاً في تكوين صدمة نفسية جعلتنا، ننفذ الأوامر والتوجيهات، كأننا آلات بلا مشاعر.

.....

استمر القائد منتشياً يلوّحُ بيديه الى المنتسبين حال الرسو، أعطى إشارة الوقوف في الصف، رتلاً بالمفرد، ورفع الأيادي متشابكة على الرؤوس علامة الخضوع التام، يمكن أن تكون تلك واحدة من قواعد الاستسلام في عالم البحار، إذ كان يتصرف منذ اللحظة الأولى كأنه بحار جاد، في جبهة قتال بحرية حقيقية، وكأننا بحارة أعداء.

تلقفنا الأوامر أولاً، وقفنا من بعدها مترددين، ثم ركضناً بالاتجاه المطلوب، تدافعنا للوقوف على أعتاب الصف الأول، ظننا بتأثير الخوف أن الوقوف عندها، خلاص من الأذى، وظن آخرون مرعوبون أن الوصول أولاً، يقربهم أسرى الى قلوب آسريهم، فيتفادون أذاهم قدر الإمكان. هكذا كان نهج التفكير لحظة التدافع، وكانت نتائجه حصول محمود، الموقع الأول بين الواقفين، من بعده فريد، وكان عثمان آخرهم يراقب محفوظة، واقفة أول الصف الخاص بالنسوة والأطفال، وتحتمَ التدافع أن أقف جوار أيهم، منتصف الصف نوزع الهموم فيما بيننا، لتخفيف شدة وقوعها على نفوسنا القلقة.

أعطى القائد أمراً بالتحرك، فتحركنا رتلاً يسير في توتر ملحوظ، حاول عثمان التقرب من زوجته، والأطفال في ظن منه طمأنتهم،

تلقى ضربة بعصا من حارس قريب، يرتدي ملابس رياضية خاطبه بوحشية، (تباعد عن المرا).

حاولت محفوظة التحرك من مكانها تعاطفاً مع زوجها، صرخ بها عسكري آخر، (تحشمي يا مرا)، فدمعت عيناها، وَلوّلتْ بلهجتها العامية، ندبت حظها العاثر بقسوة، علق محمد، الأستاذ الجامعي العراقي، الماشي أمامي في الدور على الحالة بالقول (إنهم مسلمون، يعاملون المسلمات سبايا معارك وهمية، الله في عونهن هذه الليلة والليالي الأُخَر).

استمر صف المأسورين مشياً بالرتل المفرد، الى ساحة ترابية تحيط بها مجموعة بنايات، تدل أوصافها مقراً لخفر السواحل، واستمر محمود في المقدمة ماشياً يتلفت حتى اقترب من صف لخمسة أشخاص بملابس عسكرية، يقفون بالتوازي في نسق، يتسلحون بهراوات، أولهم على اليمين، طويل القامة، يكشف عن عضلات، وشارب يتدلى من على شفتيه، يغطي نصف فمه، وكرش بارز، فاجئ محمود ضربة من هراوته على الظهر، وشتيمة الواضح منها، كلب. ترنح على إثرها، فأخذه الثاني، ضربة ثانية على ساقيه الملتويتين، أسقطته الضربة الثالثة على الأرض لشدتها، ودقة توجيهها الى الرأس.

تقدم فريد وهو الثاني في النسق، تلقى ضربة موجعة، وكذلك السوداني تاج الدين، كانت الهراوات تتساقط على الأجساد بوقع، وكأنه نتاج هجمات لرجال أمن في عطفة زقاق مغلق.

زاغ هشام المصري، السادس في الدور من ضربة، وجهها العسكري الطويل، كان هشام ضعيف البنية نحيف، لا يتحمل

وطأة الضرب القاسي، قفز جانباً فعاجله بضربة أخرى تجنبها بحركة بارعة، ركض الى الطرف الثاني من الباحة يستنجد ويصرخ، تابعه الطويل ركضاً بطيئاً، توقف في المنتصف يلهث، نادى الأتباع، استنجد بهم في أن يمسكوا العدو، هجموا عليه، أسقطوه أرضاً وقيدوه.

تقدم المرزوقي من بعد هشام، حاول تقليده ليتفادى الهراوات الخمس المقننة، فاختل النظام عند محاولته هذه، لكنه عاد وعاود الرتل المفرد تقدمه خطوات، يحصل فيه الواحد ضربة، يقفز من المكان متجنباً ضربة، فتعاجله أخرى، فكانت فوضى هراوات تتساقط، مثلت مكاناً هو الأقسى على هذه الكرة الأرضية، فيه الجناة يضحكون، يتباهون بضحاياهم، كما لو كانوا يتدربون على شواخص تمرين على الملاكمة.

كدت أسقط على ركبتي حسرة بعد تلقي ضربة على ساقي، أحسست أنها لم تعد قادرة على حملي، وأحسست لحظتها، وكأن القيامة قد قامت. نظرت الى أيهم واقفاً على قدميه غير عابئ، بالدماء الكثيرة التي تجمدت على الرمال من أسفله، فأيقنت أنها ليست القيامة

.....

أعاد القائد سيطرته على الموقف، وقد أسبغت عليه الشامة السوداء أسفل أنفه بعض مظاهر الغباء الجاد، وقف بين المنتسبين متحمساً لم يضحك، كان هو الوحيد من بينهم لم

يضحك، يبدو احتراماً لموقعه في القيادة، أمرَ ربط كل خمسة بحبل مع خمسة أخرى، مثل خراف في مسلخ.

نظرتُ الى طرف الباحة، والعسكري يربط يديّ بالحبل، وقع نظري على القبطان بدر، مربوط من يده الشمال بحبل الى شجرة، ويده اليمين الى شجرة أخرى مجاورة، وهكذا الأمر بالنسبة الى الساقين، كذلك مربوطتان بحبال الى تلك الشجرتين.

كان وَضعُ الربط، وطريقته الموصوفة بالمقص، جعلت الجسد العاري لبدر أقرب الى المعلق في الهواء، يلهث من شدة الغيظ، وكأن روحه وصلت الأنف في طريقها الى الخروج، يئن بمواجهة شخص مدني، وجهه داكن السمرة، يمسك سلكاً كهربائياً مغلفاً ينتقي أماكن من الجسم العاري، لم يمسها من قبل، يضربها ضربات عندما لا تترك إحداها الأثر الذي يريده، يعيد ضربها مرة أخرى على المكان ذاته، حتى يحصل على الأثر، دماءً تنزف، لينتقل كذلك بالتوالي الى مكان آخر، حتى تشققت البطن، وأزيل الجلد من بعض أماكن، ظهر فيها الشحم ناصع البياض.

استمر الشخص الأسمر بالضرب، طالباً الاعتراف عن الجهة التي يعمل لها، ومن هو الرأس الكبير، قال الأستاذ محمد الذي رُبط في حبل معي أقسم بالله العظيم، أنهم يعرفون الرأس الكبير، وإنهم قد اختلفوا معه على تقاسم الأرباح، فانقلبوا عليه، وما يجري هو تمثيلية، لفرض نوع من التقاسم الجديد، وأقسم كذلك على اننا سنسمع في وقت ليس بعيد من الآن، أن خط التهريب هذا سيعاد تشغيله، وان زياد الاثيوبي سيظهر من جديد بجنسية أخرى ربما ارتيرية.

لم يمهلني العسكري طوال قيادته الناجحة بالحبل المربوط، اكمال مشوار الفرجة على القبطان، ومعرفة اعترافاته عن الرأس الكبير، كم كنت أتمنى معرفة هذا الرأس، إذ سحبنا بقوة، نقلنا خمسة مع باقي الأرتال خماسية الربط، الى باحة أخرى مجاورة، وقد اقترب المساء. لقد فوت عليّ بالفعل فرصة معرفة الاسم وباقي الأسرار، كان يمكن لها أن تسهم في التخفيف من عذاب، ظننت لا يحصل مثله الا في جهنم.

بعد هذا المشهد صرت وربما غيري أيضاً متعاطفاً مع القبطان، على الرغم من مساحة حقدي عليه، وتحميله مسؤولية الموقف الحاصل، وفشل العبور الى الضفة الأخرى.

توقفنا في الباحة الثانية صفين بعد فك الربط الخماسي، أكتفى المنتسبون بما غنموه ضرباً، لشفاء النفوس المتعطشة الى الضرب، بدأوا نوبة تفتيش عن غنائم أخرى. طلب أحدهم خلع الملابس، وضعها جانباً.

خلعنا الملابس وصرنا كما ولدتنا أمهاتنا، الحرص على البقاء يبدو اقوى من الألم واقوى من الخجل، فأخذنا نغطي عوراتنا بأيدينا ونتكور على انفسنا مثل الطحالب البحرية بلا إحساس مفرط بالخجل.

تقدم ثلاثة منتسبين لتفتيشنا، وجمع الغنائم نقود في الجيوب، وأخرى أخفيت بإمعان في الملابس، وسكائر وكل نافع، ثم من بعدهم ثلاثة آخرون بدأوا فحص الأجسام بالنظر والاستيلاء، على الساعات، وتقليب الأشياء، ولما أكملوا التفتيش، ضحكوا كما لم يضحكوا من قبل، مستمتعين بمشاعر العري، وتقليب الأشياء.

نجت ثروتي المخفية في الجيب الداخلي، خمسمائة دولار من غزوة التفتيش هذه باعجوبة، قَسمنا العسكري طويل القامة فيما بعدها الى نصفين، دفعَنا المصنفون على النصف الثاني، الى غرفة بعشرة أمتار، كانت بابها مفتوحة، أو معدة للدخول، اكتمل العدد حدها الأعلى للاستيعاب، لم يكن أيهم من بيننا، وبغيابه سجلنا انفصالاً قسرياً عن بعضنا للمرة الأولى.

وقف ذاك العسكري طويل القامة، واثقاً من نفسه والهراوة عند الباب، دق بطرفها على الحافة الحديدية مرة واحدة، ارتعشت حاجباه الكثيفتان، حدجنا بنظرة تتسم بعدم المبالاة، فعم الصمت خرساً الا من صوت أنفاس صارت تتصاعد بحدة، قال لا يود سماع الأصوات.. أي صوت يظهر نشازاً سيعيد الجميع الى الباحة ثانية، ختم بعبارة هي الأخف شتماً (لعنة الله عليكم).

تقدم عثمان في وضع التوسل خطوة، حاول السؤال عن محفوظة، والأطفال الثلاثة، فعاجله ضربة من هراوته على الكتف اسقطته أرضاً، يتلوى عاجزاً عن اكمال السؤال، ومن بعد عاود كلامه بصوت جهوري قبل غلق الباب:

- اجلسوا هكذا حتى الصباح.

جلستُ القرفصاء يائساً، وكذلك فعل الآخرون، نظرتُ الى من كان يشاركني نصف المتر قرفصاء، وددت السؤال عما يحدث، لكني لم أسأل، فأدرت ظهري على ظهره، من غير معرفة الاسم، لم أجد في تلك اللحظة حاجة كي أعرف، نمت ونام هو نوماً يقظاً، بعد توقف الضرب والشتائم.

كان فارق الألم بين وقت حدوث الضرب، وبين جلوس القرفصاء قبل النوم كبيراً كأنه اشتد أكثر، لم يساعد في إتمام فعل النوم كما يجب، إذ وكلما مال أحدنا أو مر عليه حلم على شكل كابوس، استفاق الآخر مذعوراً، يخشى العودة الى موقف الضرب، حتى موعد فَتح المزلاج. هببنا واقفين في أماكننا وقوفاً حذراً، صاح عسكري كان هو الفاتح، تهيؤا للصلاة. أية صلاة هذه يتمسك بها هؤلاء القوم للاستغفار؟

سألت من كان ظهره على ظهري بنفس مكتوم، فكانت صلاة فجر في باحة التعذيب وكانت حسب تقديري صلاةً ناقصة، صلاة جلاد لم يفعلها لتخفيف الشعور بالذنب وانما عادة فقط تعلمها صغيراً، وجدت نفسي من بعدها مستعيناً بيدي اليمين على الأرض الترابية الرطبة، أضع عليها ثقل جسدي المتعب، لم تعينه على النهوض أول مرة، كانت ساقاي متشنجتين، أحس ألماً في الركبة وأعلى الساقين، ومع هذا نجحت في النهوض بعد محاولات عدة.

تشجعت في ساعة الايمان هذه سؤال الحارس عن المرافق الصحية، فأشار الى حفرة الى جانب الركن الخارجي الشمالي للغرفة.

قصدتها شاكراً، إتمام المهمة وقوفاً في العراء تحت الحراسة المشددة، وعدت الى مكان الصلاة ركعتين إضافيتين، فرضهما العسكري على ركعتي الصلاة الأصلية للفجر، لضمان اتمام الاستغفار من وجهة نظره.

.....

بعد قليل من اشراقة الشمس، دبت حركة المنتسبين في الأرجاء، تؤشر بداية يوم ثان للأسر، وحلول الدوام الرسمي للآسرين عساكر من خفر السواحل للبلاد، أخذوا أماكنهم في هذه القاعدة البحرية بانتظام، وأخذنا أماكننا وقوفاً في النسق، على أرض الباحة ننتظر الخطوة القادمة، من خطوات غلفت بالسرية التامة، وكأنها تغطية لعملية استخبارية، تفوّت على وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية، خرق جدار الجماهيرية الأمني، بانت القاعدة عدة بنايات من طابق واحد متفرقة، بناية المقر الرئيس نظيفة، وقواطع متفرقة في جدرانها آثار تصدع، كأنها قديمة، مشيدة من زمن الحكم الملكي السنوسي:

مكاتب ومشاجب سلاح، وقاعات نوم، ومرسى على البحر، لزوارق عدة من أنواع مختلفة، مثبت على جميعها أرقام، وأسلحة رشاشة، ومكبرات صوت.

توقفتْ الى جانب النسق سيارتي حمل، شرع العسكري تنظيم اركاب مجموعتنا الثانية، وعسكري آخر انشغل في تنظيم اركاب المجموعة الأولى، تأوه عثمان بعد استقراره جالساً على بدن السيارة الثانية، وقد شاب حزنه غضباً شديداً، قال لم أشاهد محفوظة ولا الأولاد، عبّرَ عن قلقه عليهم، ولعله فكر بالانتحار سبيلاً، إذا أصاب أحدهم مكروه، وكأني قرأت أفكاره قلت:

لِمَ التشاؤم هذا؟

قلتها بقصد التخفيف، وأضفت ما زلنا في أول المشوار، لا نعرف ما يحصل وماذا سيحصل، يمكن أنْ يكونوا قد أطلق سراح النسوة

والأطفال، لا تنس أنهم عرباً متمسكون بعروبتهم، وانتم ونحن هنا عرب من صلبهم، والغدر ليس من عادات العرب.

سكت عثمان، لم يجد عبارات مناسبة، كأن عقله قد شرد بعيداً، لكنه عاد الى وعيه بعد ثوانٍ وقال، يبدو أنك على نيّاتك، أو لا تعرف شيئاً عن حكام هذه الدولة، إنهم يفعلون بشعبهم المسلم، ما لا يفعله الكفار بالمسلمين الأوائل.

تحركت سيارتنا بعد تحرك الأولى بوقت قليل، استمرت في طريقها خارج القاعدة باتجاه المدينة، قال بعض المتفائلين ربما سيطلقون سراحنا، صرح تاج الدين، أننا أغراب لسنا ليبيين، مهاجرين الى أوربا لا ضرر لنا على الجماهيرية، واطلاق السراح أمر وارد.

رده الأستاذ محمد معترضاً بالقول، لا أتفق مع هذا الرأي مؤكداً، أن من يمتهن التعذيب سبيلاً بقصد التعذيب، لا يمتلك رؤية دولة ملتزمة بالضوابط والقوانين، أتوقع نقلنا الى سجن آخر أو في أحسن الأحوال سيلقون بنا عند الحدود.

عاود تاج الدين الكلام بصوت عال، وبلغة قانونية مؤكداً، أن الجميع بلا جوازات ولا أي أوراق ثبوتية، ومن لا يملك أوراقاً، لا يرمى على الحدود، وعاود ترجيح اطلاق السراح احتمالاً وارداً، على غيره من الاحتمالات، عندها قال الأستاذ محمد باستهزاء واضح، أن كل شيء جائز في هذه الجماهيرية العظمى.

سارت السيارتان عشر دقائق على طريق ترابي، وربما أكثر بقليل، ثم توقفتا، فعاد الركاب الى التحليل والاستنتاج، استمروا كذلك طول الطريق الممتد من شاطئ البحر الى المجهول، كنت مثلهم

أحلل واستنتج، أن الأمر في الجماهيرية غريب، وغير قابل الى الاستنتاج القريب من الواقع، وقعت في حضني حقيبة حذفت من خارج السيارة، عرفتها حقيبة أيهم، كنا قد اشتريناها وحقيبة لي تشبهها، قبل يومين من بدأ الرحلة، حاولتُ الوقوف من مكاني في بدن السيارة لأسأل عن أيهم، مدفوع بوخزة قلق شديد، شدني محمد بالقول:

- ماذا تفعل؟

طلب الانتظار قليلاً للتعرف، فلا مكان للأسرار في جماهيرية القائد العظمى. ثوان من بعدها، وما زال الأستاذ محمد يتكلم وينصح، هوى أيهم ببدنه المغطى بالوحل، وهوى من بعده آخرون تباعاً، حتى التئم شمل المجموعتين، واعيد توحيدهما مجموعة واحدة في سيارة حمل واحدة.

ضحك أيهم بمرارة على حاله وحال الآخرين، وقبل الاستفسار منه عما حصل قال، لقد أصاب اطار السيارة الامامي عطب، توقفوا لتبديله، أنزلهم العسكري خلال قيام السائق بإجراءات التبديل، وطوال تلك الإجراءات ارتأى التسلية بأجسادهم.

سألته كيف؟

فأجاب وما زال يضحك بألم، من انه ادخل الركاب بركة ماء صغيرة، لا تتجاوز سعتها أمتار ثلاثة تجاور الطريق، طلب تنشيفها بدنياً.

بدأوا عملية التنشيف دحرجة في مياهها الراكدة، ثم الانتقال دحرجة أيضاً على الطريق الترابي، والعودة كذلك دحرجة في مياه

البركة، وهكذا تحول ماؤها الراكد الى شيء لا يشبه الطين، أوصلهم الى ما هم عليه.

أشمُ رائحة معجون مخلوط بالطين، وأشياء أخرى في ملابسك، قلت، فأدرك قصدي وأجاب، كان هناك صندوق من قناني معجون زجاجية، مخزنة الى جانب الاطار الاحتياطي، ينبغي رفعه لتحرير الاطار، طلبَ العسكري سحبه جانباً، لإخراجه من المكان، كانت إحدى القناني مكسورة، اتهمه كسرها، بلا تأخير أخذ واحدة، وكسرها على رأسه، طالباً أكل ما فيها من معجون، راح في تناوله على الرغم من مقته للرائحة، بلغ في أكل نصفه وراح يتقيأ.

- كيف وصلتم الينا؟

سألته ضاحكاً مثله بيأس، فرد غاضباً:

- عندما فتحوا الاطـار المعطـوب، وذهـبوا الى الاطـار الاحتياطي وجدوه معطوباً كذلك، فقرروا حشر المجموعتين في سيارة حمل واحدة.

نظر الى الموجودين حوله، فقال، أقسم بالله العظيم أن هؤلاء يتعاطون حبوب هلوسة؛ أو أشياء غير معروفة، بسببها يتصرفون هكذا بشكل غير معقول، لا يوجد تفسير آخر.

أيده آخرون بينهم المرزوقي، وعارض الأستاذ محمد معتقداً، أن اسلوبهم هذا سلوك يعبر عن فلسفة إدارة الدولة ترهيباً، بقصد الردع، لأن من يرَّ هكذا عذاب يتوب، عن التململ عمراً بأكمله؟

.....

لم يكن مكان الحجز، أو اطلاق السراح الذي وصلت اليه السيارة، وحمولتها بعيداً عن مقر قوات خفر السواحل، وصلناه في أقل من نصف ساعة، بعد انتصاف النهار الثاني لنا في الأسر.

كان الحراس قليلين، والموظفون قليلون، وكان الدوام قد انتهى رسمياً، فأبقونا في الباحة وقوفاً بالنسق، أمام موظف يجلس على كرسي، حول طاولة حديدية، وصلناه تباعاً حسب تسلسل الوقوف لتسجيل البيانات، وضبط الافادات.

كانت هذه العملية تتكرر، في كل انتقالة من مكان الى آخر، وكان الموظف بطيئاً، صاحب مزاج، تباطأ كثيراً في الوقت المخصص الى تسجيل البيانات، ونحن واقفون في المكان، كان آخر المسجلين السنغالي، الذي استنزف في تسجيله ربع الوقت المتاح، لعدم معرفته العربية، فصارت الترجمة من لغته المحلية الى الفرنسية، ومنها يترجم المرزوقي الى العربية باللهجة الليبية، والى أن حل المساء، أدخلنا الحرس غرفة صارت حصة الأسير الواحد فيها، كذلك خمسين سنتمتراً، في زاويتها تقع دورة مياه بائسة، ظهر بأسها واضحاً على تفصيلات ساعاتنا، فلا ينفع الماء الجاري فيها ليطهر أنوفنا مما علق فيها من رائحة عفن الفضلات الآدمية وكان جوعنا وعطشنا لأيم عدة رحمة بنا للخلاص من استعمال هذه الحفرة البائسة، نمت تلك الليلة ظهراً الى ظهرٍ، استندت الى ظهر أيهم ولم يتحرك أحد منا.

طرق الباب في الصباح الثالث عسكري أشول، يحمل قنينتي ماء، هجم عليه الشباب تزاحماً بقصد الفوز، لأن أغلبهم لم يشربوا ماء

الحنفية، كاد الهجوم الذي رافقه تدافع، أن يحدث خصومات بين الزملاء، أصحاب القضية الواحدة.

تقدم ضرغام، شاب عراقي في نهاية الثلاثين من العمر، ذو شخصية مؤثرة، له حضور قوي، كان قد عمل في الجيش العراقي بوحدات القوات الخاصة، أول التحاقه بالخدمة الإلزامية، صاح في المتدافعين أن يتوقفوا، وبّخَهم بلغة عربية فصيحة، فهمها الحضور من أبناء الدول العربية الأخرى، فتوقفوا.

استلم القنينتين، بدأ سكب الماء منها مقنناً في فم الموجودين، بادئاً بالصومالي الأصغر عمراً، ولما انتهت قبل تلبية الطلب المتزايد على الماء، وعد الباقين سد رمقهم في الوجبة القادمة، ووعد الطلب من الليبيين زيادة التعيين ماءً، قنينتين اضافيتين، قال معلقاً لتخفيف الضغط، أن الليبيين ينتخون.

نادى العسكري لزوم الاصطفاف في الباحة المواجهة الى الغرفة المعتقل، خرجنا سريعاً، كنا بحاجة ماسة الى الخروج للتخلص من ألم الجلوس، وقيد الحركة، بدأت بعد خروجنا نوبة شتم، قادها عسكري نراه أول مرة، تبين وكأنه قد كبر في العمر زمنياً، وتأخر عقله عن النمو، لم يكبر، وتبين أنه مثل غيره عاشقاً اذلال الاخرين.

وقف من حوله طاقم جديد يظهر كذلك أول مرة، كان سؤالهم هذه المرة محدداً عن الدولة التي جاء منها كل واحد، وعلى ضوء الدولة تحدد العقوبة جلداً، وكذلك عدد الجلدات.

كان القادمون من الدول الأفريقية غير العربية، لاسيما ذوي الأصول الزنجية أكثر عرضة للجلد، من بعدهم المصريون.

وصل الدور الى هشام، سأله العسكري:

- من أين أنت؟
- (مصري يا بيه).

اصدر عليه الحكم بخمس جلدات أفقدته الصواب، ومن بعده جاء السنغالي فحُكِمَ عليه بعشر جلدات، توقف عندي عراقي قال، العراقيون براءة، سيعتقهم من الجلد لأنهم ضربوا إسرائيل بالصواريخ، وصل من بعدي مصري آخر لم يكمل الثامنة عشرة عمراً، حاول الحصول على براءة تحت يافطة الأصل العراقي.

قال بلهجة مصرية واضحة (عرائي يا بيه).

ضحك العسكري الليبي بخبث، على فشل الشاب انتحال اللهجة العراقية، فحكمه عشر جلدات.

انتهت نوبة الجلد قريباً من الظهر، حضر العسكري الأشول ذاته، حاملاً بالإضافة الى قنينتي الماء، كيساً من الخيش، مليء بأرغفة خبز أسمر، استلمها ضرغام أيضاً قسمها على الموجودين، فكان نصيب الواحد رغيفاً، وجرعة ماء لمن لم يأخذ الجرعة الصباحية، وقدم رجاء لزيادة الحصة المائية قنينتين، مستنجداً بشهامة القائد، وعظمة الجماهيرية، فكان الطلب عراقياً حاز على الموافقة، فضمنا استحقاقاً، ثلاث جرع ماء هذا اليوم، يسكبها ضرغام في الفم مباشرة لتفادي الخصام.

.....

طرقٌ على الباب، ميَّزْتهُ طرقاً بأطراف عصا، هكذا كان اكتساب الخبرات سهلاً في ظروف الشدة. كان الليل قد أطبق على المنطقة، فأحدث الطرق استجابة انتباه، وقدراً من الصمت المطبق، جاء

من وسطها صرير المزلاج حال سحبه من الحلقة. قال الطارق، تهيئوا لمواجهة الآمر، فخرجنا مرعوبين من كلمة الآمر، فالعسكري في هذه الوحدة جلاداً، فكيف هو الآمر؟

لمْ أتخيل لحظتها حيفاً أقوى من الجلد، فاستسلمت وغيري انتظاراً لما يأتي به الآمر.

كان الآمر برتبة رائد، يقترب عمراً من حدود الخمسين، أشيب الرأس، داكن السمرة، يبدو وكأنه من الجنوب الليبي، بدين مثل أغلب منتسبي الوحدة، وقف منتصباً، يضع عصا تبختر عسكرية تحت ابطه، بدأ وكأنه يلقي خطاباً على صف من الجنود، قبل تكليفهم بمهمة قتالية خطيرة.

تنحنح أولاً لتنظيف حنجرته، ثم بدأ كلاماً عن الثورة الليبية، والجماهيرية العظمى.

كان يخص القائد ذكراً بين عبارة وأخرى، ثم تحول من الخص في الذكر تعظيماً الى اتهام المجموعة، بالذنب وبعدم الوفاء، لمحاولة اجتياز الحدود الى أوربا، ليكونوا الى جانب المستعمر، يغسلون الصحون، يمسحون البلاط، يتركون الحرية ليعيشوا عبيداً.

همس أيهم بالقول ان للحرية في الجماهيرية طعم الطرشي المنقوع في خل التمر، وهمس الأستاذ محمد، من أن السيد الرائد، كان يتكلم الى السلطة، انه نوع من الكلام يتملق به الجهات العليا، وبعد إتمام همسه، رفع يده بوضوح مطالباً إجراء محاكمة، إن كان هناك ذنباً قد ارتكب.

امتعض الرائد من هذه المجاهرة، قال بانفعال غاضب، من أنتم لتحددوا المحاكمة، لقد تعاطف من جانبه مع المجموعة، حاول إخراجها من أجواء الغرفة المعتمة لتنفس الهواء النقي، ومع هذا تحدث جدلاً، لم يكن يتوقعه، ثم أشار الى العسكري الأشول أن يعيدنا الى أماكننا، مكتفياً بالقول، لا تستحقون.

أعادنا العسكري الى الغرفة المقننة حاقداً. لم تمض على الإعادة سويعات، أخذنا خلالها عدة غفوات كانت متقطعة، نادى منادٍ طالباً الخروج الى الباحة مع العفش، عزز نداءه الأول بأمر الوقوف صفين، في حال النسق المتوازي، كان الفجر قد طلع، واقتربت الشمس من البزوغ، فألغيت الصلاة.

وضعنا الحقائب على الظهر في يوم هو الرابع، انتظمنا وقوفاً صفين الى جانب سيارتين باص قديمة، تعلمنا سرعة التنفيذ، والوقوف بانتظام في الأيام الثلاثة السابقة، ما لم يتعلمه طلاب المدارس سني الكشافة، للأغراض ذاتها في ثلاثة شهور.

أعطى الأشول إشارة الصعود، فتهافتنا جرياً، في قلوبنا خشية من ضربة قد تأتي بعصاً، أو هراوة، أو سلك كهرباء لمن يتأخر قليلاً لأي سبب كان.

تأخر عثمان آخر الصاعدين، حاول استعطاف الأشول في السؤال عن حبيبته محفوظة شاعراً بمرارة المسؤولية عما حصل، سخر منه الأشول، بادره ضرباً من عصاه جعلته يقفز الى آخر السيارة يرتجف رعباً، بدأت السيارة بالتحرك صوب المجهول، لمحتُ مجموعة أوراق ممزقة متروكة على أرضيتها، جمعت بعضها، مددت يدي في الحقيبة، أخرجت قلماً كنت أحتفظ به

لتسجيل الملاحظات، تعودت تسجيلها في تحركاتي، وغالب الأيام، قسمت الأوراق بالتساوي مربعات، وبدأت أكتب العبارة الآتية:

(أنا العراقي أرشد، ما زالت موجوداً في ليبيا، لم أصل إيطاليا كما وعد زياد. أكون ممتناً لمن يعثر على هذه الورقة، الاتصال بهاتف بيت السيد مشير الرقم ٢٢٣٧٥٣٢، ليعلمه الأمر).

بدأت رمي الأوراق من شباك السيارة متفرقة، حال مشاهدة شخص ماش على الرصيف، أو لمجرد تخيلي هناك من سيمشي لاحقاً، كانت تطير الى الخلف، وتختفي من غير مشاهدتي واحدة قد استقرت على رصيف، أو أحد قد رفع منها جزءاً ليقرأ، مع هذا أعطتني أملا بوصول الخبر، لإنقاذ الموقف قبل المزيد من التعقيدات، والى أن اقترب الوقت سيراً في الباص على شوارع نظامية بحدود الساعة، توقفت عند بوابة مكتوب في أعلاها سجن جديدة المركزي.

.....

(٨)

توقف الباص متثاقلاً عند الباب الشاخصة للسجن المعرف بالجديدة، نظرتُ الى الاسم المكتوب بالخط الكوفي على لوحة حديد، زخرفت تقويساً لتغطي الجزء الأعلى من الباب، كأنها وضعت هكذا لتعطي رسالة الى الأمة، أنه سجن تراثي خالد، تذكرت مقولة لجارنا الطبيب من أن الرغبة في الخلود موجودة عند غالب الحكام العرب، يظنون تحقيقها في المنشآت الخاصة والتماثيل، وأقبية السجون.

علقَّ العسكري الواقف عند الباب، بندقيته الآلية على كتفه بملل يثير الانتباه، تقدم متكاسلاً بضع خطوات، كمن يكون مكرهاً على فعلها، وربما على تأدية الواجب أيضاً، فتح الباب الموصدة ببطء، انتظر دخول السيارة الى الساحة، ثم أغلقها بوقع الحركة البطيئة ذاتها، ليعود الى مكان وقوفه يمثل دور العسكري الجاد غير المكره، ترجل من السيارة قريباً منه، المأمور المكلف بإيصال الحمولة، نظر الى المكان، وساحة الوقوف فرحاً، بإتمام المهمة بنجاح، منتشياً بتحقيق أهداف وحدة خفر السواحل التي ينتمي لها، الحجز السري لأربعة أيام.

ترجلنا من بعده تباعاً من غير إعارة الاهتمام الى نجاحه، نفذنا أمره في الوقوف تشكيلة ثلاثية الخطوط، وانتظار ما سيأتي من مساعده الذي كلفه شفوياً لتحمل المسؤولية، بغية تفرغه الى أمر التسليم. وضع قدمه داخل غرفة تجاور الساحة، أعدت مكتباً لاستلام النزلاء الجدد، تكلم مع عسكري في داخلها بعض كلمات

لم نسمعها بوضوح، خرجا من بعدها سوية، ليتما عملية التسليم والاستلام، وهما يضحكان.

بدأ المستلم إجراءاته الرسمية، إيعازاً الى معيته تفتيشنا نحن النزلاء الجدد، تفتيشاً دقيقاً حتى قال لهم بصوت مسموع:

- اخرجوا الابرة من القش.

لم يخدش حياؤنا التشبيه بالقش، إذ لم يعد الحياء طوال أيام الحجز فعالاً، وقد سمعنا في الأيام التي مضت كلاماً، لم يكن وارداً في قواميس الحياء.

كان تركيزنا منصباً على أسماء صار يتلوها حسب القائمة المرفقة، وبالطريقة ذاتها التي حصلت في كل انتقالة، وقوفاً لا يسمح لأحد في مجاله الحركة، ولا يجوز الكلام، في الوقت الذي جلس فيه العسكري المستلم على كرسي حديد خلف طاولة من الحديد.

زادت خطوات التسليم في هذا السجن عن سابقاتها خطوة واحدة، قوامها تثبيت ما تبقى من ممتلكات شخصية لم تنهب، وضعها في أكياس خاصة كوديعة الى يوم الحسم، لقد استغرقت الإجراءات ساعة كاملة، وقوفاً بمواجهة الباب الحديدية من الداخل، بانت باباً تشبه باب القلاع العثمانية القديمة، الى جوارها برج مشيّد من الطابوق، وأسلاك شائكة، تعلو سياج يرتفع ثلاثة أمتار، مشيد من الطابوق أيضاً، يعطي منظر البرج والسياج والباب حال غلقها هذا السجن هالة اكتئاب قاتمة، حراسه الواقفون في الأبراج، والموزعون على النقاط، النحاف منهم والبدناء يعززون مشاعر الاكتئاب.

كان الواقف في أعلى البرج المنتصب جوار الباب بديناً، يوزع نظره مناصفة بين الداخل والخارج متأهباً، ثبتَ فوهة رشاشه الخفيف نحو الخارج، كأنه مستعد للتعامل مع أي طارئ، وآخرون مثله توزعوا على نقاط مراقبة وحراسة متفرقة، تشرف بعضها على محيط السجن من الخارج، وتشرف الأخرى على منشآته من الداخل.

كانت طريقة الوقوف ونوع الحركة في نقطة الحراسة، قد أعادت الى عقلي الخوف من قسوة الحراس ضرباً بالهراوات، لأن سلاحهم الأساس هنا الهراوات أيضاً، فهو الأكفأ لأغراض الردع، والتدجين.

بدأ السجان الأكثر بدانة بعد إتمام التسجيل والاستلام، خطوة التوزيع على العنابر عشوائياً.

يرفع هراوته عند ذكر الاسم، يخفضها بعد الاستجابة نعم، ليؤشر بها الى المستجيب، بعد تحديد رقم العنبر واحد من ثلاثة، لم يذكر العنبر الرابع، قيل فيما بعد أنه مخصص للنساء.

خرجتُ من الصف بعد ذكر اسمي واضحاً، وتحديد العنبر الأول، وقفت الى جانب زملاء تجمعوا عند تلاوة الرقم واحد، في انتظار أيهم، نودي عليه فيما بعدي بالرقم اثنان، فافترقنا عن الركب مرة أخرى، فراقاً أحسسته في لحظته مؤلماً.

كانت مجموعتنا للعنبر الأول، قد اكتملت خمسة عشر شخصاً، بعد المناداة على عثمان آخر من ردد الطويل اسمه، كان عثمان موجوعاً جداً، وكأنه فقد الإحساس بمن حوله، حيث لم يعلم حتى الآن مصير محفوظة والأطفال الثلاثة، وكان كلما اختلى الى نفسه يلومها تعنيفاً، بعبارة يكررها (كأن الأرض انشقت وابتلعتهم)، ثم

يجلدها بنوبة بكاء تزيد من احمرار عينيه اللتان، لم تعودا الى طبيعتهما طوال الأيام الأربعة.

وزع البدين على مجموعتنا، بدل صفراء اللون من قطعتين، ووزع آخر على مجموعة أيهم بلون أحمر، كان النظام الأمني يقتضي أن تكون لكل عنبر لون يميزه عن العنبر الآخر، وبعد اكماله التوزيع، أعطى إيعازاً كمن يخاطب فصيلة عسكرية:

- ارتدوا البدل.

فتسابقنا لارتدائها، وبعد تأكده من تمام التنفيذ أصدر إيعازاً آخراً، بقوة الحزم ذاتها:

- تحركوا صوب العنبر.

.....

تحركت المجموعة الى العنبر في تخاذل واضح، دلفنا ممراً يزيد عرضه عن المترين، أرضيته اسمنتية، تنفتح منه خمسة أبواب لخمسة مهاجع، كانت مغلقة من الخارج، فتح السجان البدين مزلاج الأولى، دفع بنا خمسة نَفَذنا منها الى الداخل، وأعاد غلقها محكماً من الخارج، ثم سار بالآخرين الى المهاجع الأخرى، وزعهم عليها حسب الأرقام المؤشرة إزاءهم، وشواغر الاستيعاب المثبتة في كشوفات السجن الأصلية.

وقفتُ عند أول متر من المهجع متوجساً، امتد نظري طولاً لعشرة أمتار، وراح عرضاً لما يقارب الخمسة هي مساحته الكلية، وامتد في المقابل نظر النزلاء الينا، كانوا أشبه بكتلة بشرية امتزجت مع بعضها مثل قطعة الشوكولاتة، تداخلت أجسادهم بسبب

ضيق المكان لدرجة لا يمكن معها تمييزهم الا عبر الرؤوس المتطلعة نحونا.

دخلت ومن كان بعمري أو قريباً منه نرتعش خوفاً من الداخل، لم يعينني العقل المرتعش إحصاء عدد العيون التي كانت تنظر بشراهة، مشيت الى جانب ضرغام دون علم مني، وصلنا الزاوية البعيدة بمواجهة باب المهجع، هناك توقفنا، أدرنا الظهر الى الحائط، وقع النظر عنوة على خيمة بلون عسكري خاكي، منصوبة في الزاوية، وعلى الجدران أسماء حفرت بعمق المعاناة التي أحسَها الأصحاب، تشير الى بعض الذين غادروا وتاريخ المغادرة، وآخرون لم يحددوا تاريخها، قيل إنهم غادروا الدنيا، فجأة لم يسعفهم الحظ العاثر حفر تاريخ المغادرة.

كانت الأرضية مغطاة بشيء ما كان في يوم من الأيام يشبه السجاد الرخيص، ولكنه أصبح باهتاً ومتهرئاً بالتقادم، مكتوب عنه في الزاوية، أنه مكرمة القائد أثناء زيارته السجن عام (١٩٧٥).

جولة النظر كانت مستمرة، وصل بها المطاف الى مرافق صحية، اقتطعت عنوة من الزاوية الأخرى، فتحة في الأرض يعلوها أنبوب معدني، لنقل الماء الى الأعلى (دوش) ينقصه شيئا في النهاية، أضاف الى المرافق الحفرة، مهمة حمام يؤدي الغاية، تعزلهما عن أجواء المهجع ستارة من قماش بلون رصاصي، زحف لها السواد تدريجياً.

كانت الإضاءة داخل المهجع خافتة تحتاج جهداً للدلالة على الأشياء الموجودة، والمكتوبة الا الخيمة، كان في داخلها مصباح أحمر، يعطيها أجواءً مريبة.

توزعنا على أماكن متفرقة من المهجع، وقد اكتسبنا صفة نزلاء جدد. جلست وضرغام بهدوء في مكان كان شاغراً، أخذنا منه والأستاذ محمد مستقراً، وأخذ عثمان، وسعيد طفل صومالي في الخامسة عشر، فرقه الحرس عن والده، لهما مستقراً في مكان يبعد عن مكاننا مترين جوار المرافق الصحية.

جلسنا على الأرض بحذر، وما زلنا نستمد القوة من بعضنا من غير أن ننبس بشفة.

انهى ضرغام ثواني الصمت طويلة، قال لنبق قريبين من بعضنا طوال النهار والليل، أحسست عند توقفه صمتاً، أو تجديداً للصمت اقترابي منه جالساً الى جانبي، كأني التصق به رعباً، لكني تنبهت الى نفسي فتوقفت حياءً، تأملت النظر في الأرجاء، أو بالأحرى كررت التأمل مرة أخرى وأخرى، خرج من الخيمة، رجلاً أقترب من الأربعين عمراً، سمرة وجهه فيها قسوة وعبوس، وكأن العفة قد انتزعت منها قسراً، وفي العينين السوداوين خلة تبدو فيهما اليمنى، وكأنها أصغر قليلاً من اليسرى، يرتدي بنطالاً أصفر يعزل الجزء السفلي لجسمه عن الجزء العلوي الموشوم من جانب الرقبة الى حدود الخصر، وشمه كان خليطاً من الرسوم بعضها آدمية، وبعضها أسماء وحروف، وسطها الكتاب الأخضر، كأنها طلاسم سحر.

تقدم خطوات وهو يعرج، كأن في أحد ساقيه قصرٍ، أو خللٍ، ومع هذا أحدث صمتاً آخر، أعقبه وقوفاً جماعياً للنزلاء، ومثلهم وقفنا إجلالاً لخطواته، وكأنه الزعيم، أكمل مشواره مشياً استعراضياً، بدأه من حافة النزلاء القدامى، مروراً بنا نحن الثلاثة، وانتهاءً

بالصومالي سعيد، كان وكأنه يتفقد الرعية، ركز في تفقده الرعيّة الجدد على الوجوه واحداً تلو الآخر، أقترب منا قليلاً، كانت تفوح من بين أنفاسه القاسية رائحة الحشيش، سأل الطفل الصومالي عن الاسم؟

أجابه وهو يرتجف خوفاً حد الموت، أنه سعيد.

نادى سجيناً يبدو وكأنه الساعد الأيمن قال بصيغة أمر:

- انقل سعيد من هذا المكان الى الطرف القريب من الخيمة، وفتش القادمون الجد باستثنائه.

أجرى الرجل التفتيش دقيقاً، عثر عند الأستاذ محمد مائتي دولار، كانت قد نجت من نوبات التفتيش التي توالت من قبل، سلمها له، فوضعها في جيبه غنيمة، ثم عاد الى دياره في الخيمة، وبعودته انكسر الصمت، وتوزع النزلاء القدامى على الجدد، يكتشفون غورهم يسألون عن التهم.

في أدب السجون، يقص القادم الجديد تهمته، ويعيد القديم قص حكايته، تبادل حكايات وخبرات وقصص، تقتل الوقت الذي يمر بطيئاً، وتقرب المسافة النفسية بينهم نزلاء معزولون، يتحولون بالتدريج الى زملاء قضيّة.

.....

نزلاء هذا المهجع متشابهون حتى في الشكل، لقد جعلهم المكوث الطويل في السجن متشابهين، الا أن واحداً من بينهم رجل لا يمكن وصفه بالشاب، يتسم بالتحفظ والمهابة، ووجه يعبر عن الحذر، كان مختلفاً، عرّفَ عن نفسه الترهوني، بدأ قص حكايته

ضابطاً من القوات الخاصة، شارك الحرب الليبية التشادية عام ١٩٨٢، نوه عن غلطة عمر ارتكبها انتقاداً للحرب، وطريقة ادارتها أمام ضباط من وحدته، وبصددها قال، لقد وشى بيَّ ذاك الضابط، فالقيَّ عليَّ القبض بعد شهر على الطريق الصحراوي، بين مواضع الدفاع القتالية الحدودية، وبين مدينة الكفرة التي كان مرسلاً اليها بمهمة رسمية.

أخرج سيجارة من علبة يحتفظ بها، ولع بها عود ثقاب ثم أكمل، لقد اتهموه الاتجار بالمخدرات، وإنهم قد وجدوا بالفعل داخل السيارة التي استقلها، كيلوغراماً من الهيروين النقي، دسته اللجان الثورية بالوحدة، سجن بعدها سجناً مؤبداً.

ضحك ساخراً قبل القول أنه الآن السجين الأقدم في هذا المهجع والعنبر، وإن مصيره رهن اعتذار من القذافي شخصياً، لكنه لم يعتذر، وسوف لن يعتذر، وإنه وان لم يكن روحانياً، لكنه متيقن من أنه سيشهد موت القائد في وقت ليس بعيد.

اقترب في الحديث أكثر لما سمع حكايات عن العراق وأهله، وقصة القارب وموقف محمد والرأس الكبير، قال عنه نذل وانه من أبناء السلطة، ولا يستبعد أنه مدفوع من أحد أجهزتها، لاصطياد سياسيين ليبين أخذوا يفرون أحياناً مع الهاربين في القوارب عبر المتوسط، وعن الرجل الأعرج قال أنه فتوة هذا العنبر، وعنابر السجن كلها، مختلف عن الغير من النزلاء، له تأثير على إدارة السجن ضباطاً ومراتباً، معروف من أهل سبها، ومعروف أنه (خناب) قالها باللهجة الليبية، ثم استدرك أي اللص الأشهر في سبها، له أخ في اللجان الثورية، أكسبه قدراً من الحماية، وقابلية

في التأثير على المحيط الذي هو فيه، أخذ على عاتقه إدارة تجارة المخدرات داخل السجن، يكسب منها كثيراً، ويدفع منها رشاً لمسؤولي السجن الكثير.

خفضَ من صوته قليلاً قال بصفة ناصح، لا تأخذوا هداياه، خاصة حبوب اعتاد تقديمها مجاناً، الى القادمين الجدد بحجة قضاء الوقت، لكنه يستخدمها بعد التعود عليها في الإيقاع بالشباب لأغراض الدعارة.

سأله ضرغام عن قصة الخيمة؟

قال انها سكنه الخاص، أو إنها عالم يدخله غيره لما يكون خليلاً، يتغاضى الحرس عن سلوكه الشائن، خوفاً منه، كونه مستعد ذبح انسان بموس أعمى، تراه على مدار الساعة في جلوسه، ومشيه يحمل سكيناً حاداً، لكنه في الوقت نفسه لا يعتدي على أحد الا من يعتدي عليه، ومستعد لتقديم الخدمة لمن يطلبها حتى لو كلفته حياته، من شيمه النخوة، لا مانع لديه من الموت عوضاً عن آخر يستجير به، وقف مرات عدة ضد سجانين حاولوا الاعتداء على نزلاء المهجع.

أي تناقض هذا في الشخصية؟

سأل الأستاذ محمد، ثم أضاف سؤالاً آخراً:

- ما تهمته ونوع الحكم الذي أودى به، نزيلاً استثنائياً في هذا السجن؟

انه مهووس بعالم السرقة، مدمن عليها، حكم عليه عشر سنين متلبساً بسرقة بيت مدير الشرطة في سبها، ومثلها عشر سنين، لممارسته الرذيلة مع أطفال مدرسة كان حارسها، هرب من سجن

أبي سليم قبل خمس سنوات، وفي مواجهة مع الشرطة بصحراء سبها، أصيب في ركبة ساقه اليمنى، فألقيَّ عليه القبض بتهمة، زادت أحكامه السابقة عشر سنين أخرى.

توقف الترهوني برهة، ثم أكمل كلامه تعريفاً لأحكام هذا العنبر، (الخيانة، وتجارة المخدرات، والسرقة، واللواطة، وزنا المحارم)، وانتقل الى العنبر المجاور الرقم (٢) واصفاً أحكامه بالثقيلة عن القتل العمدي، والسطو المسلح، والتزوير، والعنبر الثالث لأهل السياسة، ومن يريد القائد إخفائه الى الأبد، والرابع نساء، وهو سجن شبه منفصل، فيه العجب.

أشعل سيجارة أخرى، ليقول أن امرأة قد توفيتْ قبل أسبوع في العنبر الرابع، افريقية، مرت عبر الأراضي الليبية مهاجرة قبل سنة، كانت وفاتها أثناء عملية ولادة على أيدي سجينات أخريات، أخفي مولودها وأحرقت جثتها في محرقة سرية خاصة بالسجن، تستخدم في الحالات التي يراد بها محو الأثر، وهناك غرف خاصة تجاور هذا العنبر لممارسة الدعارة، يسمع الأنين عبر جدرانها في بعض ليالي الشتاء شديدة البرودة، وقبل نهاية كلامه، أضاف بقصد التنبيه، نصائح بينها:

- لا أحد يمرض، فالطب بدائي أو غير موجود.
- لا أحد يضحك بصوت عال، فالضحك ممنوع، وكذلك البكاء.
- كتم الأنفاس قدر المستطاع، فهناك واشون في المهجع وفي كل مهجع، يعدون الأنفاس القريبة منها والبعيدة.

.....

أطلق العسكري الخفر صفارة سُمعت بوضوح، قال فتوحه بلهجته الدارجة (ياله عاد مدوا السردينة).

وما السردينة؟

سألت الترهوني فأجاب، انها طريقة النوم عندما يكثر العدد، وبحضور اليوم كثر العدد، وعلى الجميع افتراش الأرض، لا توجد في هذا السجن أسرة ولا مراتب، الا فتوحه فهو استثناء خاص، بأمر من الجهات العليا. هكذا هو القانون، وهكذا ناتج الثورة سحق لإنسانية الانسان.

توقف قليلاً، وكأنه تذكر نصيحة أخرى لم ترد في سياق كلامه السابق:

- لا تتكلموا بصوت مسموع بعد صدور الصافرة، فمن يعثر عليه متلبساً بالكلام بعد حلولها، سينقل الى الانفرادي، وهو عالم خاص لا ينتسب الى هذا العالم.

استلقيت على الأرض المكسية فرشاً، غير معروف النوع مثل غيري، فصارت هذه الأرضية قطعة صفار واضحة المعالم، أخذني العقل بعيداً في التفكير، شعرت بهموم تفوق عمري، وكل ما تجمع من أثر طوال عشرين عاماً، عشت أجواؤها حروباً، وحصاراً في بلادي، وحبساً في هذه البلاد بلا معنى، انتقلت بالتفكير مجبولاً بتنقل للأفكار قسري، حتى لم أعد قادراً على التحكم في بداية الفكرة ولا في نهايتها.

وصلت أو أقحمت في عقلي أفكاراً خارج السجن، قلبت طوالها صفحات الأصدقاء والجامعة والمنطقة، ثم أعادني القسر الى وضعيات النوم المتعددة، طوال ليالي الحجز الفائتة.

قارنت بينها وجدت طريقة السردينة فيها قدراً من الرفاهة، تفوق كثيراً الليالي الأربعة السابقة، على الرغم من الشبه الحاصل بينها في مسألة عدم التحرك أثناء النوم، لكن هذه الوضعية التي يمد السجين على ضوئها جسده، ليكون رأسه عند قدمي زميل له، ويمد الزميل الآخر جسده معكوساً، ليكون رأسه عند قدمي زميل آخر، مميزة بمد الجسم كاملاً على الأرضية، يعطيه قدراً من الاشباع السريري، وان لم يتحرك.

أطفأ فتوحه مصباح خيمته الوهاج، التزاماً بقوانين النوم، وصافرة الخفر، انتظر وقتاً قَدّرته نصف ساعة، كنت طوالها مشغولاً بالانتقال من فكرة الى فكرة، وكان هو منتظراً نوم الجميع مشغول بغزوة انحطاط يخطط لها، ولما اكتمل الظن في عقله غير المنطقي، من ان الجميع قد غطوا بنومهم في دهاليز الظلمة، خرج ماشياً على أطراف أصابعه لإتمام الغزوة، كأنه الشبح، سلك ممراً بعرض شبرين الى جوار الجدران الأربعة للمهجع، تفادى في مشيته أجساد الغارقين في همومهم، توقف عند رأس سعيد الطفل الصومالي، ضربه غزاً بأصابع قدمه اليمنى، كان رأسه باتجاه الممر في نظام السردينة، وقدماه عن رأس السنغالي.

تظاهر سعيد بالنوم، فأخرج فتوحه سكيناً من جيب بنطلونه الأصفر، مسكه باليد الشمال من شعر رأسه الأجعد، ووضع السكين على رقبته، ضغط بها قليلاً، سُمعت ردود فعله نشيجاً،

حاول التملص، وبعد تيقنه الفشل، وعدم التدخل للنجدة، وقف في مكانه عاجزاً يتلفت، ووقف فتوحه بمواجهته شاهراً السكين حتى سحبه من ياقة بدلته صاغراً، يمشي مطأطأ الرأس يتعثر، مثل شاة من قطيع أغنام يسحبها ذئب فريسة لا تقاوم.

أدخله الخيمة أولاً، ودخل من بعده منتصراً، ناما سوية الى ما قبل آذان الفجر، خرج سعيد من مخدعه يترنح من السهر، وخرج فتوحه من بعده الى المرافق الصحية، أخذ حماماً وتوضأ للصلاة.

قال سعيد بعد الصلاة، وهو عائد لإتمام حاجته الى النوم، لقد أعطاه فتوحه كبسولة وجرعة ماء، لم يعي ما حصل بعد دقيقة من التهامها.

.....

ينتظر النزلاء صافرة الغداء بجزع حتى صاروا يطربون على نبرتها ممدودة بالمقارنة مع الأخريات، الأهم من وجهة نظرهم عملية الخروج الى ساحة مكشوفة، فيها المشي مسموحاً، والتنفس حراً لهواء نظيف، وفيها كذلك لقاء الأصدقاء من العنابر الأخرى، وعليها وبين زواياها الميتة تمارس التجارة بيعاً وشراءً للمنوعات، كانت أكثر الممنوعات تجارة هي الحشيش، وبعض أنواع المخدرات التي يديرها فتوحه.

حملتُ والآخرين صحوناً من الالمنيوم الخفيف، لا يصلح تحويرها أسلحة عراك، كنا في الرتل نزلاء العنبر الرقم (١) يتبعنا في السياق نفسه، نزلاء باقي العنابر.

في هذا الشأن كان هناك نظام، لا يسري على فتوحه الذي مشى لوحده في رتل آخر، ومشيت مع الرتل حتى مقدمة الكدس الخاص بالعيش، أخذت واحدة، وعرجت على قدرٍ كبير يقف خلفه طباخ مقتدر، وضع غَرْفةً من الرز في صحني، وغرفةً أخرى من الحساء، يطفو فوقها البصل.

هنا في هذه النقطة، وعند هذا القِدْر المنتفخ انتهى نظام السير تباعاً بالدور، و بانتهائه انفردتُ وحيداً أفتش عن أيهم، وجدته كذلك يفتش في الأرجاء، جلسنا الى الجوار نتناول الغداء بشراهة.

كان أيهم ممتعضاً من الغداء، مشكلته لا يحب حساء البصل، ولا الرز في صحن ألمنيوم، لكنه أكل بشراهة، كأنه لم يأكل من قبل.

سألته بعد إتمام صحنه عن الحال؟

أجاب، لقد وجد نفسه في العنبر الرقم (٢)، وفي المهجع الخامس للأحكام الثقيلة، في مهجعه تعني الثقيلة أحكام المؤبد والاعدام، وأغلب نزلائه، مجرمون يستمتعون بالقتل، يستلقي الى جانبه اليمين شاباً، محكوماً بالإعدام عن جريمة قتل والده، وآخراً على الشمال محكوماً بالإعدام لقتله ثلاثة شرطة في مركز، يحتجز شقيقه الأكبر لقضايا مخدرات.

توقف أيهم ليأخذ شربة ماء، ثم أكمل حديثه بصيغة تعجب عن سلوك أغلب هؤلاء المحكومين بالإعدام، الذين يتصرفون وكأنهم غير مبالين، يتأملون الخروج بعفو من قائد الثورة.

- وهل لديكم فتوة في المهجع، كما هو فتوتنا فتوحه؟

أومأ بيده وهو ماسك الصحن، نحو رجل يمشي مع آخر مسافة

ثلاثين متراً على اليمين، انه فتوتهم، محكوم بالإعدام مرتين.

كان فتوتهم قبيح الشكل يتدلى الاجرام من بين شفتيه، وكأن الرحمة قد أزيلت من قلبه بعملية جراحية. سألته مرة أخرى لماذا انت حليق الشعر، كان شعرك غزيراً قبل اليوم؟

ضحك مهموماً وأجاب، ليس هو من حَلَق، وإنما حُلقَ له قسراً لأن قصة شعره لم تعجب الفتوة، وانه حاول الرفض في البداية فحصل على ضربه كف أطاحت به أرضاً، فقد على اثرها التوازن، والقدرة على الرفض أو الممانعة.

وصف ذاك الفتوة وحش يتعامل مع النزلاء كأنهم عبيد يباعون في سوق نخاسة، قسم النزلاء في الليلة الفائتة وجبات لترتيب سريره الوحيد في المهجع، وتنظيف المكان من حوله، جرح هشام المصري في ساقه بسكين حاد، لرفضه طلب تنظيف المرحاض بعد استخدامها من قبله شخصياً، وقد شد الجرح بخرقة قصها من الغطاء الذي يغلف فراشه، لم يشأ أحد التدخل أو دعوة الحراس.

تذمر أيهم في نهاية حديثة من الحال، قائلاً لا يعرف كيف سيكون الخلاص.

ساعتان هي مدة الغداء، انتهت بسلام بلا مماحكات، قال عنها الترهوني تحصل عادة بين سكنة العنابر.

رجع أيهم الى عنبره، وعدت أنا مع باقي النزلاء الى العنبر.

عقد فتوحه حلقة حديث، نادى قسم من النزلاء الى حضورها وأهمل آخرين، خص العراقيون بهذا الحضور، مؤكداً رغبته سماع أهل العراق، فتكلم الأستاذ محمد عن بغداد ونواديها، ودجلة

والحياة، وحرب الثمان سنوات، كان فتوحه يسمع مسروراً، مد يده الِي جيبه، أخرج المائتي دولار التي صادرها أثناء تفتيش الأمس، سلمه منها مائة، قال نتقاسمها معاً هذه اشتراكيتنا في ليبيا، واستمر في الضحك منتشياً.

شكى عثمان فراق زوجته وأطفاله وانقطاع الأخبار، وقلقه الشديد، ورغبته التعرف فيما إذا كانت نزيلة في العنبر الرابع. رد فتوحه بصرامة، ان الوصول الى عنبر النساء من غير المعنيين يكلف مائتي دولار، ولأنه نزيلاً في هذه المهجع وهو المسؤول عن نزلائه، سيتنازل عن مائة دولار حصته في هذه العملية، وعليه دفع حصة الوسيط مائة فقط.

لكني لا أملك المال، لقد دفعت للمهرب ألفي دولار، وما تبقى صادرته قوات خفر السواحل.

رد فتوحه بإيجاز (الله غالب).

أتعهد بدفع المائة دولار، في حال تأمين اتصال لي مع الأهل، قلت بكل ثقة، فاستهوته الفكرة، وسأل:

- كيف؟

سأطلب منهم جلب المبلغ، وسيجلبونه حتماً، لكني أحتاج وسيلة كي أتصل، هل يمكنك المساعدة في تأمين الاتصال.

- هل لديك رقم هاتف في الجماهيرية؟
- نعم لدي رقم مشير، ليبي صديق العائلة، يقيم في الشرقية، قريباً من الحي الفنلندي الذي نسكنه داخل الجامعة.
- ماذا سأقول لصاحب الهاتف؟
- أنا وأيهم لم نصل إيطاليا، واننا مسجونون في سجن

الجديدة.

طلب رقم الهاتف، فمددت يدي في جيبي وأخرجت ورقة، كتب عليها هاتف مشير، أخذها واثقاً ثم توجه على الفور نحو الباب، طرقها مرتين، وعند فتحها من الحارس الخفر، سارا معاً، غاب لدقائق عشر، عاد بعدها مبتسماً، يؤكد حصول الاتصال، واصفاً مشير بالشاب الطيب.

التفت صوب الترهوني، قال بصوت عال سمعه كل النزلاء، ان مشير هذا من ترهونة.

عاد وسلمني الورقة، مؤكداً أن كل شيء على ما يرام.

شكرته أولاً، وسألت عن نواياه بشأن عثمان، ومسألة الاستفسار عن زوجته والأولاد.

رد بتعجب، وكأنه غير راض عن الشك في نواياه، أنه عند كلمته، فأجبته، وأنا عند كلمتي أيضاً، ما دام خبر السجن قد بلغ العائلة، فسيصل المبلغ في الغد على الأغلب، لأنهم سوف لن يتأخروا عن الحضور.

طيب، قال وأكمل غداً بعون الله ستكون المعلومات عند عثمان، وإذا كانت موجودة في العنبر الرابع سيوصي بمعاملتها بالحسنى.

.....

جاءت الليلة جديدة في العنبر مشحونة كسابقتها بالقلق وببعض الأفكار، أعلن الخفير صفارة النوم، وأعلن فتوحه التوجه الى النوم، مرت نصف الساعة التي وضعها وقتاً تقديرياً لسبات النزلاء تعليباً

في السردينة، فتح من بعدها باب خيمته المحصن، خرج منها باتجاه سعيد الذي أبدل مكان نومه، غزه بإبهام قدمه الأيمن على مؤخرة الرأس، غزاً أخف من غز الأمس. تباطء الطفل قليلاً، لكنه نهض في النهاية مطاوعاً، مشى مأسوراً، كرر الحكاية ذاتها في الصباح الذي تلا، من انه قد غط في النوم أيضاً من غير علم بما حصل.

اقتربت صفارة الغداء، وقبل الإعلان عنها بقليل جاء الحارس مسرعاً فتح مزلاج الباب من الخارج، نادى بالاسم، مكتفياً بالقول هناك زيارة.

مشيت خلفه، أتعثر بأفكار في داخلي أخذت تتداخل غير واضحة، وآمال في وضع نهاية لما أنا فيه، ولكن اليأس كان يعيدها الى مكانها، فتخبو ثم تظهر، حتى بلوغ غرفة المدير، تنبهت عند الاقتراب من عتبتها، على صوت السجان طالباً التوقف.

نظرت من خلف العتبة، شاهدت الوالد جالساً على أريكة تجاور مكتب خشبي، يجلس خلفه مدير السجن:

رجل أشيب، على وجهه مسحة وقار، يرتدي ملابس ليبية تقليدية، منهمك في تبادل الحديث مع الوالد، ومشير الترهوني وسطهما يتنقل في الكلام، لتلطيف الأجواء التي كانت في الأصل لينة، حال التقاء نظري بنظره أشار الدخول، فدخلت مسرعاً، ومن غير كلام مني، شعرت بحاجة الى أن أشكو حالي، وقبل البدء بشكوى الحال والمأزق، سألني الوالد متفاجئاً عن ما جرى، لكنه سبقني في القول أنهم كانوا يتصورون وبضوء المعلومات التي زودهم بها زياد أننا قد وصلنا السواحل الإيطالية، وان زياد قد

حضر اليهم بالأمس، مطالباً بحلاوة الوصول، مؤكداً أننا جميعاً موجودون في الكنيسة استعداداً الى المغادرة الميمونة الى دول أوربا كما هو مرسوم.

كذب زياد ومحمد معاً هكذا أجبت، وأكملت شرحاً مفصلاً عن ما حدث، منذ الخروج من المزرعة، وقصة القارب، وخفر السواحل، الى الاستقرار نزيلاً في العنبر الرقم (١).

ضحك مدير السجن، وتعهد الاتصال بفتوحه لتقديم الحماية داخل المهجع والعنبر.

قلت، ليست لدينا مشكلة مع فتوحه، لقد وضعنا نحن العراقيين الموجودين في المهجع مسافة بيننا وبينه، مشكلتنا في كيفية الخلاص من هذا المأزق الذي وُضعنا فيه، إذ لم تعد لنا طاقة كافية للتحمل.

ستتخلصون، قال الوالد في رده وكأنه واثق من النتيجة، ثم نهض معلناً انهاء الزيارة، ولما أدرك الرغبة غير المرئية في مد الزيارة، تحجج ثانية بأهمية الذهاب للتفتيش عن حل للقضية.

قال بحزم لا لبس فيه، أن التأخير ليس في صالحها قضية حساسة، وان أي قدر منه سيؤخر عملية الخروج من السجن، وهذا ما لا يقبل حصوله.

وقفنا جميعاً، للتوديع والسلام، وتقديم الشكر الى المدير الذي كان عكس حراسه ودوداً، حال عبوري عتبة الباب استلمت كيساً من الورق، قال الوالد فيه وجبتي طعام لك وأيهم تكفيكم هذا اليوم، ثم أكمل عن أمل الانضمام الى العائلة لتناول الطعام في القريب العاجل، وانه سيبذل الجهد مضاعفاً لتحقيق هذا الأمل.

أدرك مشير الموقف الانفعالي، والتدافع القسري لدموع الوداع، حاول حسم وقعه سريعاً قال وهو في طريق الخروج من مكتب المدير، ستخرجون في القريب العاجل، تهمتكم ليست سياسية، عدت من بعدها الى العنبر متأملاً، وكأن أبواب الأمل قد فتحت تواً، تبخر نصف الهم في الطريق بين غرفة الآمر والمهجع، كنت أبتسم مع نفسي لم أعد قادراً على كتمان البهجة، كأنني أحلم، تنبهت الى مساجين كانوا ينظفون الممر، وقد طالت أيديهم كيس الأكل دجاجتين مشويتين، وتنبهت الى أني لم أقاوم. يبدو أن الأمل في الخروج من السجن كان أكبر من هم الدفاع عن وجبة غداء، وان كانت ثمينة.

دخلت على زملاء المهجع في قضية القارب، سألوا أولاً عن ماهية الزيارة وكامل القصة، أجبت تفصيلاً عن الأمل في قرب النهاية، فانفتحت أساريرهم، الى حد أنهم تناسوا حالة البؤس التي مروا بها الأسبوع الذي انقضى، الذي يشبه دهراً في طوله، وابتسم بعضهم ابتسامة الامل المشوب بالخوف.

دخل فتوحه على الخط، مبتسماً ليسأل عن أثر تلفونه مع الترهوني، وتفاصيل القصة، قلت، لقد خصك وجبة غداء فرختين مشويتين، سطا عليهما مساجين كانوا ينظفون الممر، أخذوها غفلة.

طرق على الباب طرقتين، هي الإشارة التي يعرفها الحراس آتية منه شخصياً، تعني فتحها. خرج من بعد فتحها مسرعاً، أعاد المنهوب، وجبة لم يبق منها صالحاً للأكل سوى فخذاً وجناحين، وكان منزعجاً يشتم.

قلت، هنيئاً، لقد قدمت لنا معروفاً لا ينسى، ثم سلمته ورقة المائة دولار الموعودة، بعد إخراجها من خبايا الخزين وأنا في الطريق، أعلن حال استلامها تأكده في الصباح أن محفوظة وأولادها موجودون في العنبر الرقم (٤) وهم بخير، وقد أوصى بمعاملتهم حسناً.

.....

(٩)

أرخى أمجد رأسه نعاساً وأحنى رقبته، قلت وقد نهضت من على الكرسي واقفاً، سنكمل ما تبقى من الحكاية يوم غد أو في يوم آخر يكون، رفض مستنفراً كل حواسه، أصر على سماعها كاملة هذه الليلة، لا يريدها متقطعة، فنزلت عند رغبته أعدت جلوسي على الكرسي، بالطريقة ذاتها، قلت:

بدا اليوم السابع في أقبية السجن مثل تلك الأيام التي سبقته ثقيلاً، أحسست بدايته مُرُ المذاق كطعم العلقم. استقطع فتوحه من صباحه ساعة بعد النهوض بقصد الاستحمام، فزاد المرارة كدراً يجلب الهم، رافقه مغص أردت معه أن ألبي نداء الطبيعة وسط استهزاء الترهوني، ولكي يكمل فصل الاستهزاء من النظام، وفتوحه دون الاصطدام المباشر، بمحرمات السياسة، قال (ومن يستطيع منكم تأجيلها خدمة للجماهير له أجران).

حاول الاستمرار في استهجانه اللذيذ، قطع عليه البدين ذاك الاسترسال، عندما فتح مزلاج الباب، فأثار الانتباه، أوقف كل مثيرات النقد والاستهجان، قال بلا تمهيد، ليتهيأ أصحاب قضية القارب للمحاكمة هذا اليوم، ستكون في دار القضاء بعد ساعتين، وسيكون التجمع في الساحة بعد ربع ساعة، عندها تأجلت مشاريع الإفراغ عند أهل القارب جميعهم، مَسكوا عضلات الأمعاء الغليظة خشية التأخير، وتلقي العقاب، والخوف من هراواته، وباقي الحراس.

شعرتُ حال سماع المحكمة خوفاً يفوق كل أنواع الخوف،

توزعت بسببه حبات العرق على وجهي وذراعيَّ، لعدم وثوقي إمكانية عبور عتبة المحكمة بسلام، نفذتُ الأمر، واكتمل العدد، وأجريَّ عد الموجود قبل الصعود الى باصين للنقل، وبعد النزول منهما داخل سياج يفرض هيمنته الأمنية على بناية من طابقين لدار العدالة.

لقد حافظت هذه الدار على شكلها الفخم، من أيام الحكم السنوسي حتى حلول اليوم موعد إجراء المحكمة، هذا فيما عدا بضع بقع رطوبة طالت بعض جدرانها، تؤشر مكان الحمامات، وانسداد مواسير في داخلها، حديقة هذه الدار، كانت حديقة، احتفظت بجزء من مكانتها، قاومت الإهمال، وقاومت نخلة وسطها هزال الزمن، ومثلها فعلت عدة أشجار من الأثل، وإن نزع المطلوبون الى العدالة من أغصانها أوراقاً، للتسلي قبل دخول المرافعات، وتخفيف القلق.

تدخلَ البدين في ترتيب الوقوف بعد النزول من السيارات مباشرة، شكل هذه المرة فصيلة بثلاثة صفوف، هي التشكيلة المفضلة من وجهة نظره أمنياً، أعطى بعد تشكيلها إيعازاً لبدء المسير، فكان مسيراً قد اختلفت في صفوفه حركة السيقان على الأرض بعدد السائرين، وبما يشبه سير المتوجهين الى ساحة اعدام قبل التنفيذ.

اقترب بالفصيلة مشياً أراده عسكرياً الى الركن الجنوبي من البناية، أعطى حال وصوله إيعازاً بالتوقف والانتظار، أبقى زميله السجان القصير مسؤولاً، وصعد هو الى الأعلى لإكمال مشوار مهمته حاملاً إضبارة القضية التي تضخمت في الأيام العشرة

المنصرمة، حداً اقترب الشبه في سمكها من تلك الأضابير السرية، لقضايا التآمر الوهمي على قائد الثورة.

أطل بعد قليل من شباك على السلم، كان بعض زجاجه مكسوراً، يشرف على الحديقة التي تقاوم الاهمال، وعلى وقوف الفصيلة في وضع الانتظار.

أعطى إشارة البدء في الصعود الى الطابق الثاني، حولها القصير أمراً شرع في تنفيذه على الفور. كنا في تلك اللحظات، أشبه بآلات تنفذ الأوامر بأدوات تحكم عن بعد؛ أو بالإشارات، دون الحاجة الى التفاعل مع العقل، تسهيلاً لخطوات التنفيذ.

تحرك الفصيل صعوداً على السلالم العشرين دون انتظام، مشى الجميع بتثاقل واضح، كأن الواحد أرهقه التعب في آخر مشوار تسلق للقمة، أدرت وجهي لمن حولي، أقارن حالي بحاله، أفتش عن سبب لهذا العجز، وجدت تشابهاً منقطع النظير، ووجدت الغالب يَجرون الأنفاس من بطون رخوة، مثل أطفال أجهدهم المشي في أول محاولة، ووجدت الحيوية قد تلاشت من النفوس، والطاقة لم تعد فاعلة لموازنة الخوف مع الجهد المبذول، على الرغم من أن غالبية الفصيلة من الشباب.

لقد هان عليَّ الأمر أو هان عليّ خوفي، حين شممت رائحة الخوف في النفوس القريبة من حولي، تنتشر في الأرجاء، مختلطة بافرازات العرق المالح.

كان عثمان قريباً يتعثر في مشيته كاتماً خوفه بقوة، يتلفت الى الخلف، الى رتل النسوة والأطفال الذي كان يعقب رتلنا في الصعود، تقوده بحزم سجانة قصيرة القامة وبدينة بدرجة

مضحكة حيث بدت عجيزتها ضعف الجزء العلوي منها، يبرز الظاهر منها الى الخلف بشكل ملفت.

حاول عثمان التأخر عن الرتل في عطفة السلم، لتخفيف شدة القلق على محفوظة، زوجته التي تقف أول صف النساء، ولرفع معنويات الأطفال، نهرته السجانة بهراوتها على الذراع أعادته الى الصف مذعوراً، كان سعيد الى جانبي، كأن قدماه تخذلانه في المشي، ومن الخلف والده الصومالي، يحاول مده بقدر من الشجاعة تعينه على تجاوز خذلان آخر خمسة سلالم، ولما شعر باستحالة النجاح وبأطراف ولده السفلى قد زاد تخاذلها، وتباطأت في الصعود، استجمع كل الشجاعة التي خبرها خمسون عاماً قضاها في سوح العوز، والشقاء في عبارة خاطب بها سعيد ابنه الناجي الوحيد من عائلة أكلتها الحروب القبلية،

ومصائب الفقر المتوالية، بالقول:

- كن رجلاً يا ولد.
- أنت لا تعرف ما جرى لي في أسبوع يا أبي.
- وماذا جرى لك يا ولد؟

اكتفى سعيد بالسكوت، وكف والده عن السؤال عند سماع ايعاز التوقف أمام باب، من الخشب المدهون بطلاء بُنّي، عُلقت على الجانب الشمالي منها، قطعة معدنية صفراء كتب عليها، القاضي.

.....

فتح البدين باب الغرفة المحكمة، أدى التحية الواجبة، استأذن الدخول، فدخلنا اليها غرفة واسعة، في طرفها البعيد تنتصب

طاولة من الخشب المضغوط، لونها جوزي، وكرسي خلفها مغلف من الجلد المدبوغ باللون الأحمر، يجلس على وسطه قاض مكتوب اسمه على قطعة معدنية صفراء، وضعت على يمينه (عبد العاطي) الذي يعاني نقصاً ما، ربما الثقة بتطبيقات القانون، حاول الوقوف في مكانه، أرجع الكرسي قليلاً الى الوراء ليحرر كرشاً كان مدفوناً تحت الطاولة، نجح في تحريره بكفاءة، أعانه على الوقوف باعتدال، ظهر من بعد الوقوف طويل القامة، ذو شعر أجعد مصبوغ باللون الأسود الفاحم، يميل وجهه المدور الى السمرة المخلوطة بقليل من السواد، رأسه الثقيل يتهدل الى الأمام، يجد صعوبة في السيطرة عليه أثناء الكلام، ونجد نحن منتسبي الفصيلة المقابلين له في الوقوف، صعوبة في تجاوز مشاعر الخوف، وهو يتحرك.

نظرتُ لثوان في يأس الى من حولي ثم اغمضت عينيَّ، عندما بدأ التحرك، دون الانشغال بكلمات قالها، كل ما كنت أفكر فيه تلك اللحظة هي الاحداث التي مررت بها، منذ وصولي الجماهيرية، حتى وقوفي في هذه المحكمة انتظر القرار.

القى نظرة استصغار معبرة، ثم خطى الى الأمام، كاد يصطدم بأجساد الواقفين في الصف الأول، عنّفَ من كان واقفاً في الصف الأول على وقوفهم قريباً من الطاولة بانفعال، صاحب تعنيفه زيادة في وتيرة إلصاق التهم شفوياً، وبعد افراغه الغضب عن طريق توجيه التهم المغلفة بغلاف الوطنية الثورية، أمر العودة الى الخلف، كي يتركوا له مجال التحرك.

نفذَ الواقفون الأمر رجوعاً من غير حساب الواقفين خلفهم

التصاقاً، وبعد كفاح في زيادة الالتصاق، حصل القاضي ثلاثين سنتمتراً مسافة لتحركه، فالغرفة على وسعها كانت مكتظة لا تستوعب هذا العدد الكبير، ونظام السردينة، وان طبق تلقائياً في هذه الغرفة، لم يحل مشكلة الفراغ الذي أراده القاضي، مجالاً لتحرك كرشه برفاه ثوري يساعده في إتمام مشوار التوزيع العادل للتهم قبل النطق بالحكم.

خطى خطوتين الى جانب طاولته الخشبية، اعتمر نظارته الطبية ذات اللون الداكن لإكمال معالم شخصية حكيمة، وعاود النظر الى المجموعة التي زاد في داخل أصحابها القلق أضعافاً، بعد تكدسها وقوفاً بالتحام خال من الحركة.

كان هذا الرجل غريب الأطوار عندما نظرت الى عينيه من خلف النظارة لم أرى سوى فراغ، بدأ خطاباً، استهله بخيانة الأمانة، ونكران ضيافة الجماهيرية، والتغاضي عن انفتاح خطواتها على العرب والأفارقة، ثم عرج على بعض فقرات الكتاب الأخضر، عن المساواة بين بني البشر، وأنهاها واصفاً محاولة العبور الى الضفة الأخرى من المتوسط، خدمة للاستعمار، وانتقاصاً من كرامة الأمة العربية.

كانت النهاية توحي، وكأنه قد أفرغ خزيناً في داخله، كان قد احتفظ به لهذه المواقف، يكون فيها حكم القانون قائماً على النوايا، وفعل الذنب المرتكب قابل للتأويل، بين جناية اجتياز الحدود دون وثائق سفر رسمية، وبين خيانة الالتحاق بدول الاستعمار الغربية.

لقد ارتعبت في داخلي، من تأكيدهِ في هذه الخطبة العصماء على

الخيانة، إذ تكررت في جمله المتعددة، عشر مرات، لقد أنهاها واثقاً من إفراغ الخزين، مقتنعاً بقدرته على الخطابة، وباحتمالات نقل بعض مقاطعه التي تتعلق بالخيانة الى اللجان الثورية للعدل، التي تتابع أنشطة القضاء كلها ولو من بعيد، فعاود الجلوس على كرسيه الأحمر، حشر كرشه الناتئ تحت الحافة القريبة للطاولة، فعم السكون تاماً أرجاء الغرفة المحكمة، نظر ثانية في الوجوه، ثم مسك مطرقة عدلية، ضرب بها على قطعة خشبية وضعت على سطح المكتب، فكسر السكون بالقول:

- حكمت عليكم المحكمة حضورياً بالسجن لمدة شهرين.

.....

أحسست كأن الأرض تدور بيّ في كل الاتجاهات، لم تعينني النفس ابتلاع ألمها حال النطق بالحكم، شهران في سجن الجديدة، تخيلتها زمناً أكبر من الطاقة الإنسانية على التحمل، وأكبر من أي ذنب قد أرتكب في هذه الدنيا، التي صارت في عيني تلك اللحظات ضيقة، تافهة لا تستحق العيش.

استمر الجميع في صمتهم، مع بعض تمتمات وقد تلبستهم ملامح الصدمة، ربما شهقوا مثلي في غصة غضب وتعجب، حتى لم يطلب أحداً منهم محامياً، أو استرحاماً، أو يسأل سؤالاً، أو يعترض.

قلت مع نفسي، لم هذه القسوة، إنها لعنة كنا نواجهها في كل مكان فيه جهة رسمية، أو شخصاً يمثل جهة حكومية، منذ أول عسكري وطأة قدماه قاربنا المنكوب، والى هذا القاضي الناطق

بالحكم في قضية القارب؟

لم أجد جواباً، ولم أفهم لمَ يعملون كل هذا ونحن الأقرب الى عابري سبيل، فارين من قسوة بلادنا الأصلية، نفتش عن أمل في مستقبل لائق، كذلك لم أجد تفسيراً لاختلاف الحكومات وأدواتها في كل بلدان العرب، عن حكومات وأدوات العالم الآخر، لما يتعلق في التعامل مع حق الانسان في الهروب من الظلم، وحقه في اللجوء الى أماكن فيها قدراً من الحرية، وأقل قدراً من الظلم.

في هذه المرة مثل سابقاتها اختلطت الأسئلة بالأجوبة فتضاعفت شدة البؤس، حتى وجدت نفسي عائداً مع المجموعة، مشياً بالرتل ذي الثلاثة صفوف، نتحرك بفوضوية بلا انتظام، أضع قدميَّ على الأرض بوقع مختلف، عن وقع الآخرين، غير مبالٍ لإيعازات البدين بضرورة الانتظام، فبلغت الحديقة وإياهم سكوتاً، ومنها شاهدت الوالد يقترب من الصف الذي اسير وسطه صمتاً، وحال اقترابه كسرت الصمت غير مبال بالعواقب، قلت لقد حُكمنا شهرين سنقضيهما في سجن الجديدة، سجناً لا استطيع تحمله.

اقترب مني أكثر، كاتماً غيضه، قال بصوت يكاد لا يسمع، إنَّ السلطة والمال عندهم أصل القرار. لم أفهم في وقتها مغزى القول، عدت الى الصمت في مشيتي ضمن تشكيلة الفصيل غير النظامية، يائساً تماماً، مكسور النفس مثل غيري.

كان مشهد الصمت في طريق العودة، يشبه تماماً سير جنازة، حتى بلوغ السيارتين اللتين بقيتا تنتظران، إعادتنا الى سجن الجديدة، هذه المرة سجناء رسمياً.

.....

أعاد البدين توزيع المساجين المدانين بتهمة السعي لعبور الحدود دون وثائق رسمية على العنابر ذاتها، حاول سعيد متوسلاً الذهاب مع والده وتغيير العنبر، فاصطدم بجدار الفشل، مع سيل سباب لاذع، وتأكيد لا لبس فيه، أن التغيير مخل بتعليمات الأمن، التي تحتم العودة الى المهاجع ذاتها والعنابر.

تألم سعيد، بكى بقسوة، حاول في بكائه، إطفاء حزناً في داخله يعادل وزنه، وربما يزيد كثيراً في تقييمات المشاعر والأحاسيس، كان كلما تذكر وقع القساة يطوقونه من كل مكان، لم يجد سوى الدموع سلاحاً للدفاع عن ذاته التي اقتربت من الانهيار.

نظرتُ اليه، وإلى زملائي في ممر العودة الى المهجع، وجدتهم جميعاً يتعاطفون معه، يبكون بحواس، ومشاعر دون دموع، لقد سبقنا في دخول المهجع من غير التوقف عن البكاء، فأخذه فتوحة بالأحضان ساعياً مواساته، وتخفيف الألم، فاسحاً المجال لنا العودة الى أماكننا السابقة، والى زملائنا الذين كانوا ينتظرون الالتفاف من حولنا طالبين التفاصيل، ونوع الحكم وأمده، إذ لا يكتفي النزلاء في العادة بالإيجاز، يودون الدخول في أدق التفاصيل، للتخلص من ضغط الوقت الفائض، وقبل الانتهاء من ذكر التفاصيل، وتقديم الوصف اللائق لهيئة القاضي وتشريح خطبته العصماء، جاءت صفارة الظهيرة معلنة حلول الغداء، ثم التعرض للشمس والنزهة في الساحة التي يغطيها التراب، شعرت بمجيئها قدراً من الضجر يفوق المعتاد، أعاقني عن الخروج، وعن تناول الطعام.

مددت جسدي المتعب على بساط الأرض، رحت بعيداً في

الذاكرة، أفكر بالمستقبل، أجد أعذاراً وتبريرات لما حصل، كي أخفف الضغط على ذاتي المتخمة بالتعب، صاح سعيد من مكانه جالساً القرفصاء، لا أخرج الى الغداء، سوف لن أتناول الطعام، أفضل الموت على تناول الطعام، فتقدم منه فتوحه مبتسماً ابتسامته خبيثة، حاول إقناعه على الخروج، لكنه فشل، فتركه جالساً وخرج.

قال بعد خروج الجميع، أنه حاول الانتحار في بلده، بعد مقتل والدته برصاصة من جار لهم ينتسب الى قبيلة تنازع قبيلتهم العداء، كان لحظتها يحتمي بحضنها طفلاً لم يتجاوز السابعة، سمع أزيز الرصاصة وهي تخترق شغاف قلبها، شم الدم النازف حاراً، ما زالت رائحته تقض مضجعه، وما زالت كوابيس تلاحقه أثناء النوم لجار بهيئة شيطان يطارده بسكين ليقطع رقبته، يصحو بعد النوبة ليجد نفسه غارقاً في البكاء.

بكى بحرقة ثم أكمل أن والده ثأر لوالدته بقتل ذلك الجار وزوجته سوية، لكن كوابيسه لم تتوقف، بل وزاد تكرارها، ومن بعد هذا انتقلوا من حيهم الى حي وآخر، وآخر داخل مقاديشو، وما زالت تلك الكوابيس تؤرقه، وتقلل ساعات نومه، ولم تحول دون إتمام مسلسل الثأر، والانتقام الذي توج في حش رقاب أخ له وأخت بضربة سيف، من أخ لذاك الجار تطوع في فصائل جهادية، لتحقيق رغبته في الانتقام.

حال توقفه عن البكاء، عبر وجهه عن قدر من الاهتياج بان لأول مرة ثم أكمل شكواه أنه كان لحظة مقتل أخويه مستلقياً خلف دولاب يلعب، شاهد الجاني يدخل بهيئة مجاهد، فتجمدت كل

حواسه، الا النظر صار يتلصص به، شاهده يرفع السيف عالياً ويهوى به على رقابهم شباب، لم يبلغوا الرشد، وهو يصرخ بصوت عال (كفار أولاد كافر، يستحقون عقاب الله)، وضع بعدها كف يده، في بقعة دم تكونت حول جسديهما مفصولي الرأس، طبع به سترته الجهادية، وخرج منتشياً يضحك، استمر سعيد صامتاً لدقيقة ثم أكمل أنه قد صحا من الصدمة جالساً على بقعة تكونت تحته من البول، يتابع أباه داخلاً ببندقيته المسجلة على فصيل مسلح، يؤمن كذلك بالجهاد، ختم قصته أنه قد خرج من الصدمة ضعيفاً، مرعوباً كارهاً أباه الذي بدأ الانتقام، وعشيرته التي أسست للانتقام، وبلده الذي غرق في وحل الفوضى والانتقام، وهو الآن في أوج الرغبة للانتحار. نظرتُ اليه بعاطفة الأخ الأكبر، هانت عليّ مصيبتي، وقل ضغط الحكم على كاهلي، قلت خذ نفساً عميقاً واهدأ يا صاحبي، فالحياة مليئة بقصص الموت والانتقام، وأضفتُ بصوت محزون، لو جوبهت كل قصة منها بمسعى انتحار لما بقيَّ أحد على هذه المعمورة. دنا من مكاني يرتعش، وسأل، ماذا عليه أن يفعل، وقد زاد فتوحه من ضعفه، ومن رغبته في الانتحار؟

لم أجد إجابة مناسبة، فالموضوع برمته كان يفوق قدرتي على صياغة إجابة مناسبة.

.....

مد الطفل جسده هادئاً، تخيلته اقتنع بالحديث، ومددت أنا جسدي، أخذتني غفوة يأس سريعة، حضرت الوالدة الى ذاكرتي في حلم عابر، كأنها تصلي، ترفع كلتا يديها الى السماء، تدعو من الله

تجاوز الغمة، نهضت من غفوتي السريعة على صوت السجان القصير، يأمرني لملمة الأشياء، ومغادرة المهجع.

ليس لي نفس في تناول وجبة الغداء هذه، ولا استعداد للخروج هذه الظهيرة، قلتها بتمرد، رد من بين أسنانه التي ظهرت في ابتسامة غير معهودة، بلغنا عنك حكم قضائي بالإفراج الفوري، واثنان آخران من القضية ذاتها.

هذا غير معقول، فالحكم كما تعلم قد صدر، حبساً لمدة شهرين.

رد بهدوء لم يخبره من قبل، انهم ينفذون القرارات المكتوبة، وكان المكتوب افراجاً.

- وهل تعرف الاثنان الآخران المذكوران في فقرة الافراج؟
- كلا.
- وهل بينهما أيهم؟

أصر على رزم الحوائج، والتوقف عن توجيه الأسئلة التي ستكون اجاباتها معروفة بعد قليل، ثم خرجت اتبع خطواته بخطوات سريعة، حتى اصطدم جسمي بجسمه أكثر من مرة، كأني أحثه على المشي السريع.

وقفت الى جانب مكتب التسليم والاستلام، أنفذ أمر الانتظار، لإكمال إجراءات الافراج واستلام الامانات، ولما سألت السجان الطويل، أني لا أريد الامانات المتبقية، فهل لي المغادرة، أجاب غاضباً انه القانون، ولابد من الاستلام، والتوقيع إزاء الاستلام، وان كانت منديلاً.

في خضم هذا الحوار المفتوح شاهدت أيهم، ومن خلفه الأستاذ محمد، يقتربان من المكتب، ودون القاء سلام، سألا عن ماهية

القصة، وطبيعة الكلام الذي جرى مع الوالد في حديقة المحكمة، وعن لغز اطلاق السراح دون الآخرين.

أجبت لم يبق من ذاك الكلام في ذاكرتي سوى، نتف حول السلطة والمال.

جلسنا الثلاثة، وظهورنا مسندة الى الحائط، نتبادل الدهشة، وعدم تصديق ما حصل وما يحصل، غير واثقين من تنفيذ أمر القاضي بالإفراج الفوري، ونتبادل كذلك المشاعر، وأوصاف ما جرى لعشرة أيام هي الأسوء.

قال الأستاذ محمد واصفاً حاله، كان طوال الوقت في هذا السجن وما قبله في قوات خفر السواحل يشعر أنها الأسوء في حياته، وعندما غادر المهجع قبل قليل شعر أن الأسوأ من حياته قد انتهى، وإن بوسعه العيش من جديد، لكنه عاد غير واثقاً من شيء، شاكاً في قدرته على العودة مثل غيره، للعيش من جديد، هنا لا سيما على أرض الجماهيرية التي يحكمها وحوش.

توقف عن الكلام متألماً، نظر الى العنابر، سأل لم هكذا يتصرفون كالوحوش، وأجاب عن سؤاله، لأنهم يشعرون بالإذلال، ان ما فعلوه ليس قليلاً، ستطارد المجموعة سهام أذاهم مدى الحياة، لقد كان ليلهم عذاب أبدي، وكانت الكوابيس طواله لا تكتفي بالظهور، بل هاجمت في كل وقت حتى في النهار.

توقف لينظر الى من حوله في السجن، ثم أكمل القول بانفعال مكتوم لقد كان هذا السجن مكاناً للقسوة، أو خلاصة لكل معالم الظلم في العالم.

.....

ضع اسمك هنا والتوقيع، قال العسكري قصير القامة، وسلمني الامانات قميصي، وجوربي العتيق الذي نسيت انه كان لي ودفتر ملاحظات، أمر التوجه صوب الباب للخروج الى العالم الآخر، تنفيذاً لقرار الافراج الفوري.

لقد وضعتُ قدمي اليمنى خارج باب السجن، ولما اتممت وضع اليسرى، شعرت أن الروح في داخلي غير الروح التي كانت قبل دقيقة من الآن، وشعرت أيضاً كمن يرى حلماً وعيناه مفتوحتان، فأغلقتهما لأتأكد.

نظرت الى أعلى، كأن السماء من فوقي غير تلك السماء التي كانت فوق محيط السجن، وشكل الأشجار، وخضرتها غير تلك الموجودة متفرقة داخل السجن، وهيأة الناس، غير هيأة أولئك الراقدين والقابعين داخل السجن، سجانون ومسجونون. تنفست قليلاً من الهواء الحر أحسست، وكأن صخرة جاثمة فوق صدري قد ازيلت.

تغيرت خطواتنا في المشي.

ضحكنا بصوت عال بسبب بلا سبب، كأن فينا مساً من الجنون، أو كأن صيامنا عن الضحك عشرة أيام قد انتهى، سرنا في الشارع الموازي لسياج السجن مستمرين في الضحك لأسباب في الأصل لا تُضحك.

أشر أيهم الى سيارة الوالد كانت تنتظر، فيات ١٣١ قديمة، يخرج التراب من ارضيتها عند المرور على طريق ترابي، يتصاعد الى أعلى، وأصوات ناشزة تصدر عنها، عند السير في الشوارع غير المستوية،

كان قد اشتراها بعد سرقة سيارته الأولى لكي تكون غير صالحة للسرقة، ومع هذا سرقت.

جلسنا نحن الثلاثة في المقاعد الخلفية، وفي الكرسي الأمامي جلس مشير، أول سؤال كان لنا عن كيفية الخروج، فتولى مشير الإجابة، قائلاً:

- إنهم علموا من مدير السجن بأمر المحكمة.

فبدأ التحرك بكثافة، كان موضوع الهروب، والتهريب حرجاً من النواحي الأمنية، يتجنب الخوض في تفاصيله عموم الليبيين الحذرين من ظلم السلطة، فاقترح الآمر الاستعانة بفتوحه خياراً لإيجاد حل، فهو صاحب خبرة في التعامل الأعوج مع مؤسسات الدولة الأمنية والعدلية، وصاحب نخوة. التقاه في زيارة خاصة بالأمس الأول، سأله ما العمل، وقد تقطعت السبل، طلب اسم المحكمة، ولما عرفها مختصة بالهجرة غير الشرعية.

قال طلبكم عند القاضي عبد العاطي، وليس لكم طريقاً سالكاً سوى تقديم الرشوة.

- لكنه قاض، كيف لنا تقديم الرشوة.

ضحك فتوحه حد القهقهة، قال ان لهذا القاضي كف يتلهف لأخذ الرشوة.

كان فتوحه منطقياً في كلامه، إذ وبعد نطقه بالحكم، وبالتحديد قبل طبع القرار والتصديق على مضمونه، طرق والوالد بابه عرّفوا عن أنفسهم والأصول العراقية والتدريس في الجامعة، فرحب الرجل بالزيارة، واستفسر عن الخدمة التي يمكن تقديمها، فأجيب

أنها من أجل قضية المجموعة التي حكمت شهرين سجن قبل قليل.

رد متأسفاً لقد نطق بالحكم، والمجيئ كان متأخراً.

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد قال مشير مؤكداً أنه نهض من مكانه وأغلق الباب التي كانت مفتوحة، وعاد الى القاضي، وشوّشَ في إذنه، فهمها وعداً قدمه بدفع مبلغاً في حال الاكتفاء بالأيام العشرة التي تم تنفيذها حجزاً، والحكم بإطلاق السراح الفوري، لأن المتهم طالباً في بداية حياته الجامعية، وهذا بحد ذاته ظرفاً مخففاً يؤخذ في العادة عند النظر في مخالفات، وقضايا الجنح البسيطة.

نوه له بالمباشر عن مبلغاً قدره ألف دولار، إذا ما حسمها عشرة أيام فقط.

رفض الألف دولار، لكنه لم يغلق باب المساومة، عاد الى طريقها طالباً ألفي دولار، ليكتمل الأمر ما دام القرار لم يطبع.

زاد الإصرار من جانبنا على ألف دولار، ثم وافق منتشياً على ألف وخمسمائة دولار. مسك قلمه ليضيف على مسودة القرار، التخفيف لظروف حاكمة، هنا تدخل الوالد شاكراً موقفه الإنساني ودخل عالم المساومة من جانبها الإنساني أيضاً، قال: إن لأرشد صديق جاء معه من بغداد، اتفقا على الهجرة معاً لأغراض الدراسة، لقد ائتمنت الأسرة عليه في هذه الغربة من والده الاستاذ الجامعي.

ماذا سيقولون للأب الصديق إذا أفْرِجَ عن أرشد لوحده وبقيَّ ذاك الولد في السجن ليكمل شهرين، لهم جاراً، موجوداً معهم في هذه القضية سيعتب هو أيضاً، يتأمل حسم موضوعهم الثلاثة صفقة

واحدة، لقاء ألفي دولار، أو يبقوا الثلاثة في السجن سوية، حتى تحين الفرصة لإطلاق سراحهم بعد انتهاء المدة، ويحسب الاتفاق ملغياً.

حاول عبد العاطي التمنع بداية والمراوغة، لكن المبلغ أنعش في داخلة الرغبة في الكسب، مبلغاً تعادل قيمته راتبه لعام كامل.

طلب جوازات السفر الثلاثة كانت قد جلبت تحسباً، مسك قلمه وأشر إزائهما حكماً بالسجن لعشرة أيام هي مدة التوقيف، لأنهم طلاب يرتكبون المخالفة أول مرة، ثم نادى على شرطي من مكتبه، بغية طبع القرار، وأرسال شرطي آخر الى السجن لغرض التنفيذ الفوري، معلقاً، أن قوانين الجماهيرية انسانية، لا تسمح استمرار الحجز بعد حكم الافراج من القاضي.

هكذا أصبحنا الثلاثة لقاء هذا المبلغ أحراراً، بلا أي تبعات قانونية، مع قناعة بعدم معاودة التجربة البحرية ثانية.

.....

عدت الى وضعي في المقعد الخلفي للسيارة، أقص تفاصيل العشرة أيام وكيف انقضت، وكم من الطاقة استنزفت، والأمزجة التي تغيرت، وكيف لي شطب وقعها من سجل الحياة. كان الجميع يسمع بألم، وكانت السيارة قد مرت الى جانب مطعم مشويات يضع على الرصيف المقابل منقلة على الفحم، قال أيهم: أشعر بجوع شديد، وانه لا يتحمل الانتظار.

أكلنا نحن الثلاثة كماً لم نأكل مثل مقداره من قبل، وعاودنا السير باتجاه البيت، وصلنا الحي الفنلندي قبل المغيب بكامل قوانا

العقلية، خرج سكانه العراقيون من مكامنهم الى الساحة الترابية، كان الشباب ينتظرون منذ انتصاف النهار، وكبار القوم التحقوا بهم بعد انتصافه، وتجمعات للنسوة تقف الى جنب، وكأنهم يشاركون بعضهم في إحياء حفلة عرس عراقية.

استمرت الوالدة جالسة في مكانها على عتبة الدار منذ الساعات الأولى للصباح، لم تتحرك من مكانها، كما قال مراد أخي الأصغر وأكد، أنها قد وعدت البقاء في حالة صيام حتى العودة الى البيت بسلام، وقد أخذ منها تعب الانتظار مأخذاً، نظرتْ الينا متوجهين صوبها، ونحن بداية الشارع المؤدي الى البيت، ونظرتُ اليها بحنو الطفولة المعهود، وكأني أتوسلها السماح على ما تسببته لها من قلق لا يغتفر، لاحت وكأن مشاعرها قد اختلطت بين فرح العرس الذي تنتظر، وبين عزاء الشكل الذي بان علينا نتيجة السجن عشرة أيام، حاولتْ الوقوف في مكانها، لم تعينها الساقين على تنفيذ رغبتها، كانتا خدرتين، أعانها مراد على الوقوف، فاتكأت عليه واستجمعت قواها، خطت خطوتين، تمايلت، فأعاد مسكها وأعادت الاتكاء عليه.

أخذتني وأيهم بالحضن مرة واحدة، صارت تُقَبِلُ كل منا قبلاً بالتساوي، ودموعها تنزل مدراراً، أحس حرارتها لسعاً للأماكن التي تقع عليها في جسمي، معلمة بآثار هراوات خفر السواحل، والسجانين فيزيد في داخلي الشعور بالذنب، وكأني ارتكبت جريمة مخلة بإحساسها المرهف. كانت دموعها تنزل بغزارة، وكأنها هموماً تجمعت منذ الأمس الذي عرفت فيه تفاصيل القصة، والى هذه

الساعة التي تأملت فيها الوصول، وعداً وُعدت به في الصباح من أننا سنعود هذا اليوم حتماً.

عادت الى مكانها جالسة على عتبة الباب، حاولت التعبير عن ألمها، شاكية حالها وما جرى الى الله، اختصرت شكواها، وربما الاحتجاج بكلمة واحدة قالتها باللهجة العراقية:

- (ليش؟)

من بعد شكواها، عاودت الكلام مخلوطاً بندب الحظ قائلة، لم تهدأ منذ اللحظة التي عرفت فيها البقاء في ليبيا داخل أقبية السجن، ولم تذق طعاماً من أي نوع، لعنت البحر وأوربا، واليوم الذي وافقت فيه الخروج هكذا بهذه الطريقة، مجازفة بحياة شباب هم الزينة.

أخذتُها ثانية بالأحضان، أعنتها على الوقوف، أدخلتها الى الصالة الصغيرة في البيت لتأخذ قسطاً من الراحة.

جلب لها مراد قدحاً من الماء، أخذت قليلاً منه وما تبق رشته على وجهها، مسحت به الدموع. ومن جهتي عدتُ الى الحديقة التي امتلأت بالمهنئين، أعيد الحكاية، لكل وجبة تصل من جديد.

يريد القادمون الجدد التفاصيل لا يكتفون بالإيضاحات العامة، خاصة وإن أغلبهم يفتشون لهم عن طريق للهروب الى الغرب، وقد ناقشوا في دروب التفتيش ركوب البحر مشروعاً، بين المشاريع التي تشغلهم في تلك الأثناء، يودون التأكد من سلامته، بالتأسيس على حكايتنا التي كانت هي الأحدث.

انتصف الليل، غادر جميع المهنئين الراغبين في سماع الحكايا المثيرة، وأهوال البحر سبيلاً للعبور، كان آخر مغادر عباس، وقبل

مغادرته قال، هناك خطاً بحرياً يتكلمون عليه في المعهد مضمون، من بنغازي الى قبرص هذه المرة، ومنها الى إيطاليا.

شتمه أيهم، محبة، ثم قال توبة أتوب الى الله، أتعهده عدم العودة الى البحر ثانية، وإن بقيت على أرض الجماهيرية ألف عام. ضحك أيهم ضحكة بأعلى صوته، وضحكنا معه، ثم أمرَ عباس قائلاً ابتعد عني في الوقت الحاضر، لم يتم نسيان مشورتك في مسايرة محمود وزياد، التي كادت تقدم المجموعة طعاماً لأسماك البحر.

وضع عباس قدمه عند الباب الخارجية لحديقة الدار، ثم توقف ليسأل بالمناسبة ما هي أخبار محمود؟

- لم يكن بطلاً كما كنا نتصور.

ضحك عباس، ولتلطيف الأجواء قال خذوا راحتكم، وسأتفرغ للتفتيش عن طريق تهريب جديد، لا يكون فيه محمود زميلاً لكم هذه المرة.

.....

(١٠)

توسدتُ المخدة الوثيرة في السرير بعد واقعة السجن في ليلتي الأولى منتشياً، فنمت نوماً ثقيلاً طويلاً، تمتمت مع نفسي وما زال العقل يضج بالأسئلة، ضرورة الخروج بقصد التفتيش عن النفس التي تاهت بوصلتها.

أشار أيهم بأطراف أصابعه، إشارة كسولة، كأنه يريد القول: اخرج ما شئت، فأنا باقٍ في الفراش، أعوض ساعات الصحو القهري طوال اسبوعين.

أخذني الطريق بين تجمعات السكن الجامعي، وحدائق مهجورة، ومخلفات بناء، واضعاً يديَّ في جيبي بنطالي بحالة تيه، أمشي بلا غاية محددة ولا اتجاه، ظننت في الأعماق أن إحباطي من تجربة القارب لم يتزحزح من مكانه، وجدت حال الابتعاد قليلاً عن الحي الفنلندي، كأن قدماي تسبقاني طوعاً الى البناية الرئيسة لكلية الهندسة، ومن غير معرفة السبب طاوعتها، فصرت بعد نصف ساعة أتجول بين قاعات الدراسة والنادي، وبعض أماكن مخصصة للجلوس كمن أضاع شيئاً، عثرت بالصدفة على مقعد خشبي فارغ من مقاعد الأماكن العامة، تراقب عينايّ بشغف صوراً مناسبة لإعادة ترتيب الذاكرة الدراسية من جديد. المألوف في طبع الطلبة تلك الأيام، كثر الحركة، وقلة الجلوس.

هممت بالوقوف كي أغادر المكان تحت رغبة الاستمرار بالحركة، فتقدمت طالبة، مفرطة الجمال، شكلها وكأنه مخزْن بالذاكرة.

انشغل العقل ثوان لتذكر متى وأين، سألتها بأدب:

- هل أنت من هذا الكوكب؟
- أجابت مستغربة: ماذا قلت؟
- هل انت من هذا الكوكب أم من كوكب آخر. أني لم ار في حياتي امرأة بهذا الجمال؟

ضحكت وهي تغادرني، فأعدت السؤال بعد تجميع الذاكرة صورتها المخزونة:

- ألم تكوني الفتاة التي حضرت لاصطحاب الرجل الوقور من الساحة الخضراء، قادماً من بنغازي قبل ستة شهور.
- نعم أنا، تلك الفتاة، وانت العراقي الذي تكلم عمي عن صديقه، وما فعله في تلك الرحلة الليلية.

ابتسمت ابتسامة حياء، أظهرت جمالها الفريد، واستأذنت الذهاب، قالت:

- لم يبق وقت الى المحاضرة القادمة.

مر أسبوع، لم تغرب صورتها عن ذاكرتي، فعدت الى الكلية والمكان، كأني أفتش عن شيء ثمين، ضائع مني.

حضرت والابتسامة على وجهها، قالت:

- لمحتك من بعيد، فجاء في ظني أنك قد حضرت الكلية كي تدرس.
- حضرت أفتش عن معنى ضائع.

التفتت نحوي نصف التفاتة، قالت:

- أمرك غريب.
- حَدسكِ نصفه صحيح.

توقفتْ قليلاً، ووجدت نفسي اقف الى جانبها، حركتْ شفتيها

بتأن قالت أنها لا تجيد حل الألغاز، ثم غادرت.

في اليوم التالي وجدتها جالسة في المكان، مشغولة بتقليب بعض الأوراق، القيت السلام بلهفة، أدركت معناها ببساطة، سألت بشكل مباشر:

- ما قصتك مع هذه الكلية؟

أجبت أني طالب هندسة من جامعة بغداد، تركت الدراسة هناك على أمل الدراسة هنا، وجدت نفسي غير صالح لها أو أنها لا تصلح لي، فصرت مهووساً بالتفتيش عن مكان يصلح لي ولها، آتي هنا بين حين وحين، نزولاً عند تلك الرغبة، حاولت العبور الى الضفة الثانية من البحر نزولاً عند تلك الرغبة، فشلت في أول محاولة، وعدت أفتش من جديد عساني أقتنع، أو أصل الى ما أريد، فحجت بيَّ قدماي الى هذه الكلية.

- وهل في حجك توصلت الى ما تريد؟

لقد كانت محاولاتي بالأمس خيبات متواصلة، أما اليوم أراه مختلفاً، ما زلت أجوب فيه، أرى المجهول فيه يفوق كثيراً حدود المعلوم، أحتاج بعض الوقت كي أعر ف نفسي أولاً، وذاك الشيء الثمين الذي أفتش عنه.

سرها الحديث، فتركت أوراقها التي لم يكتمل ترتيبها، وسألت بلطف:

- لِمَ لا تجرب هنا في هذه الكلية؟

ومن بعدها أكملت، ان والدها هو العميد، له حظوة عند لجان التعليم الثورية، سيسهل القبول.

أجبت علي الفور: مررت على هذه الكلية حال وصولي قادماً من العراق قبل أشهر، لكني لم أجد ضالتي، كما لم يجد البحر ضالته، فأعادني الى اليابسة خاسراً من العمر اسبوعين، لم تعد محسوبة على السُلَم الزمني لعمري، الذي بدأت أشعر أنه يجري سريعاً.

نظرتُ الى وجهها الجميل من قريب، وجدتها تستمع بكل حواسها، فعاودتُ الحديث شاكراً عرضها السخي، قلت ممتن يا ..... تعمدت ترك العبارة ناقصة كلمة واحدة.

أدركت من جانبها الغاية معرفة الاسم.

ردت بحياء وثقة عالية في النفس وسن، اسمي وسن.

قلت وقد هممت بالانسحاب، جميلة هي المرأة بداية نعاسها، ولذيذ هو الترف، فأدركت قولي تفسيراً لمعنى اسمها، واعجاباً به.

وقفت هي الأخرى تسأل مباشرة عن الاسم، ولما أجبتها قالت، وقد لملمت أوراقها بيدها الناعمة، وأصابع طليت أظافرها باللون الأحمر الفاتح، أتمنى أن تجد طريقك وتنجح في المحاولات القادمة، سعيدة بمعرفتك، هكذا ختمت كلامها وهي تتهادى مثل حمامة وتبتعد قليلاً، دقائق أحست مرورها سريعة، لذيذة.

نَظرَتْ الى ما حولها ملياً، كمن لا تريد المغادرة، ثم عاودت الكلام قائلة بالمناسبة، لقد قرأت بالأمس عبارة في رواية استعادتها الذاكرة الآن (يتعلم الانسان من الألم).

قلت وقد انفرجت أساريري، حداً كدت أقبلها شاكراً هذا القول الحكمة.

أدركتْ من جانبها رغبتي البريئة في تقبيلها فاحمرت وجنتيها، وابتسمت خجلاً، ثم سكتت.

استمر الصمت بيننا لثوان، فاستعجلت تجاوزه، قلت فرحاً:

- وجدتها.
- ماذا وجدت؟
- نفسي التي كدت أفقدها، قوة الداخل في ذاتي، الفشل الذي لا يدوم أبداً.
- لم أفهم.

سأقص عليك الحكاية كاملة، في لقاء أتمناه يكون في الغد، وفي هذا الوقت تحديداً، إن لم يكن لديك مانع.

- لا مانع.
- أهذا وعد؟

أومأت لي: نعم.

مددت يدي لإتمام تعزيز الوعد مصافحة، ومدت يدها الجميلة فأحسست رغبة في البقاء ماسكاً يدها. استلتها ناعمة ثم غادرت بحركة، تشبه حركة القطة البرية، وتركت فيّ شوقا لا يقاوم... يبدو ان الانسان لا يجد نفسه أبداً ان لم يجد امرأة، اليس يقال ان الانسان يبحث عن نصفه الاخر.

.....

أراك تضحك من قلبك المتألم، قال أيهم وهو باق على السرير، يدعك عينيه بأصابع يده اليمنى، لم يأخذ كفايته من النوم اثنتا عشر ساعة، أجبته عن اكتشافي معالم القوة في ذاتي، خلال الساعتين التي خرجت بهما تجوالاً في الجامعة، وأدركت إمكانية

التعلم من الألم، عدت منها وكأني أرى العالم بعين غير العين التي كنت أراه بمقلتها، وأنا غارق بهموم السجن والفشل.

سأل وهو ما زال باقياً في خط الأفكار ذاته:

ماذا بعد؟

لقد تبددت من داخلي مشاعر الحقد، وتغيرت نظرتي الى الانسان والطبيعة والمستقبل، كما زادت مساحة الفرح في مشاعري، تيقنت في داخلي خزيناً من القوة والحب، والأمل يفوق ما استنزفته أيام السجن، والانتظار في المزرعة والبحر، تدفعني جميعها صوب التجريب مرة أخرى، وأخرى حتى الجلوس في قاعة الدرس إياها في كلية هندسة، رسمتها في مخيلتي هي الأحسن.

القى عليَّ نظرة تململ غريب، ثم سأل:

- من أين أتى كل هذا فجأة؟

قصصت عليه تفاصيل آخر حوار جرى على حافة الدكة، وشعوري بالشوق للتحدث اليها في موعد الغد، وعن الخطوة القادمة، قلت غيّرْ ملابسك كي نخرج الى وسط المدينة، نفتش عن عمل نعوض به بعض الخسارة، نعين أنفسنا على العيش، حتى يحين موعد الخطوة القادمة.

سوق العمل الليبي محدود، يعم فيه الكساد طول البلاد وعرضها، كما أن المعرفة الشخصية في جوانبه المبهمة قليلة.

أنتهى يومنا مشياً بقصد الاستطلاع في شوارع العاصمة، واستفسارات من بعض المكاتب الموزعة على الشوارع القريبة من الساحة الخضراء، لم نجد في جميعها فرصة واحدة تستحق الذكر،

بل وجدنا فائضاً من العمالة المصرية والسودانية، زادها الأفارقة والعراقيون فيضاً.

اقترب منا السبت بعد عطلة نهاية الأسبوع، خرجنا ساعات العصر نلف الشوارع مشياً، اقتربنا من مروّج لبضائع نسائية، على الرصيف المواجه للبحر في الساحة الخضراء، طريقته في الترويج غريبة، تقترب من فن التهريج.

مهرجٌ يتلبس هيأة حيوان، أو ملابس خيطت على شكل حيوان: أسدٌ أو نمرٌ أو حتى أرنب، مهمته لف الساحة أو ركن منها، تأدية حركات لا تشبه حركات الحيوان أصلاً، عشوائية تبعث على الضحك، أملاً في الشراء، أو الحث على الشراء.

قلت سأجرب عمل المهرج أكسر فيه نحس البطالة، وقد خيمت بظلها الباهت هذه الأيام، تقدمت خطوة من المروّج سألته:

- كم تدفع لهذا العمل؟
- ربع دينار لكل ساعة، تستطيع الصمود فيها لابساً هيئة الأسد، لدينا شاغر فقط هو الأسد.

لبست البدلة قماشاً من القطن، كانت مناسبة في طولها، استطيع منها النظر الى من يكون أمامي من فتحة في الرأس مغطاة بقماش شفاف، كان الرأس هو الأثقل، محشو بالقطن المضغوط، ودعامات من المعدن الطري.

قاومت حرارة الجو في تحدٍ صارخ، تحركت نصف ساعة على أصوات الموسيقى، ترويجاً لبضاعة نسائية إيطالية الصنع، وهي في الأصل ليست إيطالية. شعرت في نصف الساعة الثاني، وكأن جسمي قد نشف ماؤه، لم يبق من مكوناته السائلة كافياً لإدامة

الحركة، تباطأت حركتي في الدقيقة الأخيرة من الساعة، اقتربتُ من السيد المروّج، أخبرته بصوت خافت، قدرتي على العمل في هذه المهنة ساعة.

رد واصفاً القدرة جيدة، وهناك إمكانية لأخذ استراحة والبدء ساعة أخرى.

- هذا يكفي، لقد عوضت نصف خسارتي.
- ماذا تقصد؟

لا أقصد شيئاً، إنها قصة تجاوزها الزمن، وعمل إن طاوعتك السير على خطاه سأبقى العمر كله أعمل بلا تعويضٍ لربع الخسارة، قلتها فسلمني ربع دينار متفق عليه أجراً.

ابتأست وسن لما أخبرتها تفاصيل هذه القصة في اليوم الثاني لمّا التقينا على الدكة الخشبية في الكلية، قالت لا أرى داعياً للولوج في هذه الدروب، بينما ضحك أمجد على الموضوع ملء شدقيه، وطلب المزيد من التفصل عنه سلوك عده نوعاً من الجرأة.

وجد أيهم فرصة تدريس خصوصي لطالبتي متوسطة، قالت عنهما وسن عند اقتراحها قيامي بهذه المهمة، أنهما قريبات لها من الأب، ولما اعتذرتُ لعدم إجادتي تدريس البنات المراهقات، ضحكت راضية واوكلت المهمة الي أيهم، راح بسببها يغيب طوال ساعات الصباح، وأغيب أنا تجوالاً في شوارع المدينة، حصلت عن طريق هذا التجوال على فرصة عامل تقديم، في كافتيريا الواحة، أول شارع عمر المختار، ثماني ساعات، تبدأ عند السابعة صباحاً.

كان اليوم الثاني للعمل مزدحماً، وضعت عدداً من الكراسي وطاولات على الرصيف، بدأت تلبية الطلبات، عدت بطلبية

لشخصان يجلسان في المقدمة، وجدت على آخر طاولة من الجهة المواجهة الى الساحة شابتان بزي جامعي قد جلستا تواً، اقتربت منهما لتسجيل طلبيهما، ألقيت السلام مرحباً، كانتا وسن وزميلتها، طالما شاهدتهما يسيران معاً في الكلية.

قلت طلباتكن على حسابي، قالت بعصبية غير معهودة لم نجلس هنا كي نطلب، بل شاهدناك منهمكاً ونحن في طريقنا الى الكلية، فأخذنا الطاولة الأخيرة بقصد التكلم معك، والمغادرة سريعاً، ليس من اللائق الجلوس في هذه الكافتيريا، ثم سألت:

- هل لك أن تأتي معنا الى خارجها لدقائق كي نتكلم؟

استأذنتُ رب العمل، طويل القامة، ذا شارب كث، الذي يرتدي الملابس الليبية الشعبية، ويجلس على كرسي مرتفع، أمام طاولة عليها هاتف من الطراز القديم، تشرفُ على أرجاء الكافتيريا، والشارع من جانبه الشمالي.

أذنَ الرجل بامتعاض، فسألتْ وسن بنفاذ صبر واضح:

- ماذا تفعل بنفسك؟

أجبت بسخرية، أعمل بقصد التعويض المفروض لخسارة التجربة الفاشلة للقارب.

-لكن عملك في هذه الكافتيريا، سيخسرك نفسك والمستقبل.

- ماذا تقولين؟

هذا فخ يستدرج الشباب ليوزعوا الحبوب المخدرة، لقد غرق في مستنقعها قريب لنا يقارب العشرين، جاء من مدينة بنغازي، ليعمل فيها مؤقتاً تمهيداً للحصول على فرصة أفضل، انتهى به المطاف نزيلاً في السجن.

انتظريني هنا، سأجلب قميصي من الكافتيريا، قلتها باستعجال، قالت وهي تضحك:

- اترك قميصك هو خسارة، على إجمالي خسائر القارب.

توقفتْ عن الحديث بداية سيرنا نحن الثلاثة معاً، ثم عاودته بالقول، دعنا نكمل في السيارة، خلال الطريق الى المكان الذي تريد، ومن بعدها ستعود هي الى البيت، وقد خسرت محاضرة أخرى، حملتني خسارتها مسرورة.

قلت بقليل من الحسرة، سأعود الي البيت، يبدو أنني سأضيف الى سجلي نقطة فشل أخرى واستحالة تعويض الخسارة.

ضحكتُ وكذلك أميرة زميلتها السورية، وهي تراقب ما يجري باستحياء، قالت: كنت أنتظر على الدكة ذاتها يومياً، منذ ثلاثة أيام لم تأتِ، قلقت وأردت الذهاب الى المخصف، لكن الخجل منعني.

التفتتْ الى أميرة التي أخذت لها مكاناً على الكرسي الخلفي في سيارتها الحديثة، بعد أن أخذتُ مكانها في المقدمة، كأن في التفاتتها توافقاً على رأي متفق عليه مسبقاً. سألت:

- هل هناك مانع في رفقتهما الى البيت، للتعرف على الوالدة، وعلى الذوق الليبي في الطعام؟

توقفتُ عن الكلام لأدير أفكاراً وردت في عقلي، ثم قلت: هذا أمراً صعب في مجتمعكم الليبي المحافظ، كما هو حال مجتمعنا العراقي.

تبادلت مع أميرة ضحكة بريئة، قالت ان والدتها ألمانية، تزوجها الوالد يوم كان مبعوثاً للدراسة في جامعة هامبورغ، تتعامل معها بثقة عالية، وفقاً لمفاهيم الحضارة الأوربية نسبياً.

رحبت الوالدة الألمانية، عرّفتْ عن نفسها إيڤا، بلغة عربية غير واضحة، تدخلت وسن للترجمة في بعض جوانبها، كانت سيدة ناضجة في بداية الخمسين من عمرها، جميلة، متحضرة، أكملت دراسة الدكتوراه في الهندسة بجامعة هامبورغ هي أيضاً، أكدت أنها لم تعمل بسبب مصاعب العمل المختلط في المجتمع الليبي، لديها مخططات لمشاريع عمل حر عندما تسنح الفرصة، فتحت موضوعات الدراسة في ألمانيا، فضلتها على البلدان الأوربية، لجدية الألمان، ومجانية الدراسة، أكدت أنها ووالد وسن اتفقا على إرسالها، ابنتهما الوحيدة لدراسة الماجستير هناك حال تخرجها من هنا، ابتسمت بثقة عالية، وقدمت نصيحتها الوحيدة، ضرورة التوجه للدراسة هناك.

كانت طوال الساعتين التي قضيناها في بيتهم القريب من البحر تتكلم بطريقة، وكأنها تعلم بطبيعة العلاقة بيننا، وتتمنى استمرارها نزولاً عند رغبة وسن.

استأذنتُ الانصراف، شاكراً الغداء والنصح والحديث العذب. أصرت وسن على إيصالي الى البيت لمعاينة المخصف.

.....

انتهت المدة المتبقية خمسين يوماً من أمد الحبس، لباقي المدانين في مسألة القارب، حضر المخصف في يومها الحادي والخمسين ضرغام، وفريد يرافقهم الأستاذ محمد، أخذنا الحديث الى تجربة السجن القاسية، وماهية الخطوات اللاحقة.

قال الأستاذ محمد عن نفسه عاد الى التدريس، وقال ضرغام سيتمتع هو بإجازة محارب يعيد خلالها الحسابات، ونوه فريد عن قراره إكمال مقاولة أخذها قبل تجربة القارب، لعمل ديكورات بيت ضخم، ونوه عن حاجته الى عمال، ومساعدين ليعوض الأيام التي فاته العمل خلالها، وهو في السجن، ولغرض التسليم في الوقت المتفق عليه، عرضَ فرصة مواتية للعمل معه، وتعلم صنعة الديكور، صنعة يراها تجمع بين المهنة والفن، حدد أجراً مائة وخمسين دولاراً في الشهر، كان أجراً زهيداً، فالعمالة في ليبيا رخيصة، أو حتى مستعبدة، ومع هذا قبلنا في ترحاب، ذهبنا الى عملنا الجديد داخل بيت، لأسرة ليبية ثرية، في منطقة گرگارش.

كان عمال فريد من دول وأقوام شتى، أسكنهم في غرف البيت مكاناً للإقامة، وضع المصريون والمغاربة، وبعض أفارقة في غرفة، وأبقى العراقيون في غرفة مستقلة، زادهم الأساس في هذه البقعة من الأرض، فرش يمد على الأرض وتلفاز مصحوب بجهاز (ساتلايت)، كانوا عمالاً في غالبهم لم يكملوا الدراسة، توقفوا عند مراحلها الابتدائية، جاءوا ليبيا محطة للهجرة الى الغرب، يظنونه مكاناً مناسباً للبداية.

في ثاني يوم عمل رفع فريد مرتبة كل منا نحن الاثنين، الى مرتبة مساعد، بعد أن اختبر قدراتنا العالية على التعلم. فريد حدي في سلوكه المهني، لا يجامل.

بدأنا المشوار تقليداً لحركاته في خلط المواد الجبسية، وتركيب القوالب، وعمل النقوش، كانت هناك أخطاء بسيطة، وكان فريد قاسياً في تعليم مهنة يتقنها جيداً، يتنازل في سياقات التعليم

والعمل عن الصداقة، يضعها جانباً، يتحول طوال ساعاته الى اسطة من اسطوات أيام زمان، ينفعل، يتعصب أسلوب ساعدنا في تعلم الصنعة في أسبوع، واتقانها في عشرة أيام، وثقَ بعدها في تحميلنا مسؤولية أجزاء من عمله، دون توجيه أو مراقبة.

كان العمل تجربة حياة جديدة، فيها اختلاط مفيد بشباب مختلفي الطباع، مشاركتهم الغداء وحكايا الاستراحات، والأهم منها تغير سلوك أيهم الغذائي، فقد نسيَّ التمنع عن تناول بعض الصنوف، صار يمسك رأس البصل كما يمسكه باقي العمال، يضربه كفاً يفتته، ليضع منه قطعاً في عيش مصنوع على الطريقة المصرية، ويأكل ما يكفي منه حتى يشبع.

عشرة أيام انقضت تركيزاً على التعلم واتقان الصنعة، أخذت من بعدها إجازة تأخير عن العمل ساعتين، توجهت في أولهما الى كلية الهندسة، والى الدكة إياها في الركن الشمالي، وجدت وسن قد سبقتني اليها جالسة وكأنها تنتظر، قالت بعد الوصول مباشرة، لقد أنبأها الحدس قدومي هذا اليوم، فأخرت العودة الى البيت بعد انتهاء محاضرتين حصة اليوم، وجلست تنتظر.

عاودنا الحديث عن أوربا وألمانيا، واقتراح الوالدة للدراسة هناك، ومشروعها في الدراسات العليا، تقليداً لمشوار والدها، عرجنا على العمل، لم تكن مسرورة سماع اتقان الصنعة في قضايا الديكور. قالت لا تليق.

أجبت بكثير من الكرامة: لقد قال العرب أن العمل عبادة، والفراغ فساد لا يطاق، وتعويض الخسائر لازم وان كان جزءاً بسيطاً لا يرقى الى معنى التعويض، لأنها حسب الظن، ومهما كان

العمل لا تعوض، وختمتُ القول أن الدراسة ستبقى على رأس الأولويات.

سكتت قليلاً، وكأنها غير مقتنعة، وعاودت الحديث قائلة أن لديها خبراً مفرحاً، ثم سألت مازحة:

- ماذا ستدفع لقاء سماعه؟
- وعدٌ بالجلوس على هذه الدكة ساعة إضافية.
- فقط!
- لم يكن عندي أثمن من الجلوس عليها، انها الأجمل في الكلية، بل والأجمل في ليبيا، والعالم.
- سيفتح مطار طرابلس بعد غلق دام طويلاً.

نظرتْ الى استجابتي التي فضحتها عيني، وأكملت، لقد سمعتْ عمها الذي يعمل في المطار مديراً لأحد الأقسام، خلال حديث له مع والدها في الأمس، أنهم في الطريق الى فتح المطار، ربما بعد أسبوع من الآن. سيكون السفر في الجو أكثر أمنا من طريق البحر، ومناسبة في الوصول الى أوربا مباشرة.

لكن الأمر ليس سهلاً، ولو كان كذلك لوجدنا معظم شباب العرب يتجولون في شوارع أوربا دون تردد.

أجابت بثقة عالية، ستصبح سهلة إذا كانا معاً.

استأنفت حديثها عن المطار والسفر متفائلة، نظرت بعينين وقد اغرورقتا بالدمع. قالت: وإن كنت لا أريد ذهابك على انفراد، لكني لا أملك سوى الوقوف داعمة الى آخر المشوار.

قالتها بهمة عالية وأخذت حقيبتها اليدوية من على الدكة، ثم غادرت بإشارة وداع، خانها الصوت في اكمالها لفظاً، لكنها أعادت

السيطرة على تلكؤها، وطلبت تكرار اللقاءات قبل المغادرة.

أجبتها بقصد التخفيف من أثر الموقف، كيف لي المغادرة دون القدوم الى المحج، هذا مستحيل.

عقدنا الثلاثة، فريد وأحمد وأنا، اجتماعاً في المخصف أثناء المساء، تبادلنا وجهات النظر في حال فتح المطار، كانت لفريد خبرة سفر جواً، جرب هذا المطار قبل الغلق مرتين، فشل في الوصول الى قاعة المغادرة في المرة الأولى، وفي الثانية أعيد من مطار فرانكفورت.

قال علينا متابعة الموضوع، وانتظار التسيير الفعلي لرحلات الخطوط، سيكون الأسبوع الأول هو الأكثر مناسبة للنفاذ، لضعف الرقابة، وتخبط الإدارة التي سوف لن تتمكن من التحكم في السيطرة على الحركة بالشكل المطلوب أوربياً، ومع هذا ستكون الخطوة الأولى، الحصول على التأشيرة التركية التي ستوفر إمكانية التوقف في دولة أوربية، بحجة التحويل (ترانزيت)، وفي حال الفشل، يمكن الاستمرار حتى مطار إسطنبول، ومنها العبور الى أوربا بطريق البر أو البحر.

ضحك أيهم، ثم قال إنه غير مستعد تجربة البحر ثانية، كفاه ما عاناه من رهاب البحر، عند هذا انتهى الاجتماع على أمل تحقيق آخر في الغد، نكون قد بدأنا خطوات تهيئة المطلوب من أوراق لازمة للتأشيرة، كان الأهم من بينها عقد عمل.

عقد العمل في شركة بناء، أنجزتهُ بما تبق من الليل وهمياً بالحاسوب، صورتُ الهويات والجوازات، وأعددت اضبارة لكل منا على انفراد، دفعتنا بالتوجه صباحاً الى القنصلية التركية.

.....

دخل فريد مكتب القنصل أولاً. كان القنصل يقابل غير الليبيين للبت في أمر التأشيرة، خرج بعد عشرة دقائق مبتسماً، يلوح بها، وضعتْ على جواز سفر لم يتبق من صلاحية نفاذه سوى ستة شهور.

أعقبه أيهم وقد تأخر ربع ساعة، خرج هو الآخر ضاحكاً ضحكة المنتصرين، ماسكاً الجواز من الصفحة التي وضعت عليها التأشيرة صالحة يلوح بها، فأخذتُ من جانبي جرعة تفاؤل، دخلت المكتب واثقاً الحصول على الثالثة دون تأخير.

قلبَّ القنصل أوراق قدمتها، سأل:

- كيف توافرت لكم الثلاثة فرصة عمل في الشركة الشرقية الليبية لأعمال البناء؟
- مدير الأفراد عراقي، سهل العمل.
- ألم يكن العمر صغيراً على العمل في الشركة؟
- لكني أعمل، حتى يحين موعد قبولي في الجامعة كي أدرس.
- ما طبيعة عملك؟

فني في أعمال الديكور، قلتها واثقاً، لكنه لم يقتنع. قال:

- لا يمكنني منح التأشيرة.

شعرت لحظة الرفض صفعة على الوجه، فاقت قوتها هراوة البدين في سجن الجديدة، خرجت بسببها أجر قدميَّ جراً يغطي الخذلان وقعهما على أرض بلاطها مرمر.

قلت وأنا ماشٍ لم أتوقف: انه لم يوافق.

تابعت بعدها السير خطوات ثقيلة في الطريق المحاذي لبناية القنصلية، تذكرت السجن، وكيف كنت اتخيل الحياة بين جدرانه

هي الأسوأ الذي أملت أن ينتهي، لأعيش من بعدها كما يعيش الآخرين، حياة آمنة فيها قدراً من المساواة، لكني وبعد قرار القنصل تيقنت بقاء الأسوء، وتيقنت أيضاً أن الواحد منا في هذا العالم الفسيح قد لا يحظى بالمساواة.

كررت مثل هذا القول، أو قريباً منه حال وصولي البيت.

رد الوالد من أن المزاج أضحى كئيباً لموقف عابر، وللتخفيف منه لا بد من إيجاد معنى لما نحن فيه، والمشاركة في التفكير عن حلول أنسب.

جلست في المخصف على طاولة عليها حاسوب مفتوحة شاشته منذ الليلة، أبقيت أمامي التأشيرة التركية الموجودة على الصفحة الرقم عشرة في جواز أيهم، تمعنتها جيداً، أعدت تفحصها والخطوط الممدودة، وبعض نقاط تحت العدسة المكبرة، أبقيتها راسخة في عقلي بعد التكرار، صورة مجسمة مثل صور الصفحات الخاصة بنظريات الفيزياء التي تعودت حفظها في عقلي صوراً أيام الثانوية، لأعيد كتابتها في الامتحان بطريقة الرسم المتقن، فتوجهت الى رسمها على شاشة الحاسوب لوحة مستنسخة.

تعددت محاولات الرسم، لم أقتنع بتسع محاولات، وتعدى الوقت سهراً الى ما بعد الفجر، كان السكون في المنطقة، وحول المخصف، والبيت طوال الليل رائقاً، يساعد على التركيز والعمل الدقيق، كأن الحركة قد انتهت تماماً.

وقفت بعد ساعات عمل متواصلة جوار الطاولة الساكنة، أنظر من شباك مشرف على الشارع الفرعي، أتطلع منه الى السماء من فراغ تركته الأشجار في خشوع ورهبة، كمن يطلب منها العون،

فومضت في عقلي فجأة، صورة مجسمة للرسمة المطلوبة، عدت مستعجلاً لأضع تفاصيلها على الحاسوب، ولما دخلت أشعة شمس الصباح من طرف الشباك، كنت قد أكملتها، على وفق القياسات والزخرفة المثبتة في النسخة الأصلية، أعطيت الأمر المناسب الى الطابعة الملونة، لإنتاج نسختين كانتا متطابقتين للأصل، مسكتهما في يدي، صحت من مكاني جالساً حول الطاولة، لقد فعلتها.

أفاق أيهم من نومته على نبرات الصوت، منزعجاً، سأل بعصبية واضحة:

- ماذا فعلت؟

مسكَ نسخة من التأشيرة المزورة، قارنها بتلك المثبتة على جوازه، لم يجد بينهما أي اختلاف سوى الورق التي طبعت عليه الأصلية أكثر سمكاً وخشونة.

قلت وقبل توجيه أي سؤال عن الورق: انه موجود في مكتبة وسط المدينة.

.....

(١١)

وقف مدير سلطة الطيران الليبي خلف طاولة في مكتبه الفخم توزعت على نصفها (ميكروفونات) لفضائيات حضرت لتغطي الحدث المهم، أعلن بفخر، فتح المطار الدولي للعاصمة طرابلس يوم الثلاثاء، تغيرت نبرات صوته حدة، حال اقترابه حافة التوجيهات العليا، للقذافي قائد الثورة، وحثه الدائم وضع ليبيا في المقدمة على أعتاب القرن الحادي والعشرين.

هكذا قال، فاستجبنا بمضاعفة جهد العمل وجبتين، لإكمال الترتيبات الأخيرة في مقاولة الديكور، وتسليمها قبل الوقت المحدد، استعداداً لتطبيق خطة السفر حال فتح المطار، وقبل يوم التسليم اقتطعتُ من ساعات العمل المضاعفة ساعة قصدت الكلية، تلبية لموعد لقاء كان قد تأجل بسبب العمل.

جلستُ على الدكة ذاتها، أتأمل إطلالة القادم الجميل في أية لحظة.

مر الوقت مصحوباً بشريط ذكريات، عن اللقاءات السابقة التي بدأت تتحول الى مشاعر غامضة ولكنها لذيذة، وبعض التأملات عن مستقبل ستكون فيه الدراسة معاً في جامعة هامبورغ.

لم يبق من وقت الساعة المستقطع الا القليل، بضع دقائق لا أكثر، فازدادت وتيرة القلق.

لم تحضر وسن، ولم تظهر في الصورة من بعيد، على العكس من لقاءاتنا السابقة التي كانت تحرص فيها، من طبيعتها حرصاً شديداً على تحقيق سبق الحضور.

هممت بالوقوف للتوجه الى القاعة رقم خمسة، حيث مكان المحاضرة التي تحضرها في مادة الرسم الهندسي هذا اليوم.

خطيت، كانت خطوتي الأولى مشوبة بالقلق، اعترضتني أميرة، وقد بدت على وجهها الأبيض مسحة حزن، لا يمكن حجبها عن الناظر أبداً.

وقفتْ بالمواجهة، لم تعطِ مجالاً للاستفسار، دخلت في الموضوع مباشرة، كأنها تحمل هماً تريد التخلص منه مرة واحدة، قالت بألم مكتوم، سقطت وسن من طولها في محاضرة الأمس، رافقتها أثناء عملية النقل في اسعاف الى مستشفى الفاتح التعليمي، شخصها طبيب عراقي مختص ورماً في الدماغ.

انحدرت على وجنتيها دمعتان، حاولت اخفاءهما، ثم عاودت الحديث، كأنها تريد إخراج كل الهموم التي رافقتها من يوم أمس حتى هذا اليوم.

توقفتْ عن الكلام نزولاً عند نوبة بكاء لا تقاوم، أدخلتني قسراً في حالة ذهول، تعثرتْ على أعتابها الكلمات في حنجرتي وهي ترتجف، وتوقفت في عقلي القدرة على التركيز. لم تعد قدماي قادرتين على حمل جسمي على نحافته، فجلستُ على الدكة مصدوماً، ثم وقفتُ وقد غمرني التوتر من أعلى فروة الرأس حتى أخمص القدمين.

قلت: نعم؟

ردت وما زالت وسط النوبة الشديدة للبكاء، ما حصل، ثم أخذتْ فرصة بكاء أشد وعاودت الكلام، قائلة لا أخفيك خطورة الحالة، ومع هذا فإن والدتها حصلت لها آخر الليل حجزاً عن طريق

معارفها طبيباً ألمانياً اختصاصياً في مستشفى نمساوي لأغراض الفحوص، والنظر في احتمالات العملية الجراحية لإزالة الورم، إذا ما تطلب الامر ذلك. ختمت حديثها بالإشارة الى أن وسن طلبت منها تخفي سبب تغيبها.

تركتُ أميرة واقفة في حيرة من أمرها، كأن في داخلها رسائل أخرى لم يكفِ الوقت لها، توجهتُ صوب المستشفى بقلب مضطرب، صرت أجري على غير هدى كأني مصاب بلوثة، حتى وصلت بابها المفتوح للدخول العام.

وقفتُ أمام سريرها لاهثاً.

قالت في توتر، وهي تفحص وجهي بحثاً عن علامات يمكن استغلالها لتهدئة الذهول: لم أكن أتوقع هذا، لكن طبيبكم العراقي طمأنني، أنه في الغالب ورم حميد.

تعطلت كلماتها برهة وهي تمسح دموعها الجارية بمنديل ورقي، حتى توقفت تماماً، فمسكتُ يدها، قلت، قدرة الله واسعة.

ردت بابتسامة متعثرة، كنت أعد مفاجأة إيصالك الى المطار يوم سفرك، وتحديداً الى باب الطيارة، حتى اتفقت مع عمي صالح، لتسهيل هذا بالوقت الذي أريد ثم أضافت، آسفة على الاخلال بوعد قطعته على نفسي.

سألغي فكرة السفر، انتظر شفاءك، قلتها بصوت متقطع، فصمتت لحظة أخرى من التردد، ثم قالت: كنت أتأمل وصولك أوربا أولاً، لتأسيس المشوار هناك، لكن كل تأملاتي ذهبت أدراج الرياح وانهار كل شيء، وبدلاً من الذهاب من بعدك، سأغادر أنا أولاً، حال تسيير الرحلات من مطار طرابلس يوم الثلاثاء، لقد نصح

الطبيب الألماني المختص في الأورام، سرعة الوصول الى مستشفى سالزبورغ الجامعي حيث يعمل.

من بعد هذا تحول بكاؤها نحيباً، فتح مسارب حديث تشاؤم بدأته عن الموت والفراق الأبدي، تخيلته كابوساً وأنا في حالة حلم، ولما ألقت إيڤا السلام عند دخول الغرفة، تيقنت أنه ليس حلماً، قلت سنلتقي، وسأكون في المكان الذي تكونين، وسنتعلم معاً من آلامنا.

نظرتْ مستجدية الأمل، قالت: لِم لمْ نحاول السفر معاً، على الطائرة ذاتها؟

كفي عن التفكير في الموضوع، ما يهمنا الآن وصولكِ النمسا سالمة، قلتها بلا أمل، فردت بإصرار، لا بد من السفر معاً على طائرة واحدة، لأنه الأمل الوحيد الباقي في رحلة الحياة.

.....

أمتنعتْ مكاتب حجز التذاكر عن قطع تذكرة الى تركيا ذهاباً عبر النمسا، طلبوا تأشيرة عبور (ترانزيت)، لكن النمسا مثل جميع دول أوربا لا تمنح التأشيرة الى العراقيين، والخطوط التركية فتحت خطاً مباشراً من طرابلس الى إسطنبول، فأنهت كل محاولات التوقف في البلدان الأوربية، وجعلت فكرة وسن للسفر سوياً عبر النمسا، أضغاث أحلام، وحولت الجهد باتجاه الحجز المباشرة الى إسطنبول، خياراً هو المتاح وعبور بري لحدود اليونان، ومنها الى ألمانيا هو الوحيد.

أكد فريد معرفته بمهربين عراقيين الى اليونان، وأكد كذلك امتلاكه تجربة، وصفها صعبة وخطيرة، كرر الصعوبة لفضاً استثار فضولنا نحن الجالسين الى جانبه نجمع المعلومات لتحديد طريق التجربة الثانية في مسيرة العبور، كأنه يتهرب من ذكر التفاصيل، بطريقة استفزت أيهم، ودفعته المطالبة باستهزاء، إخرج الدرة التي قال أنها تجربة صعبة.

قال قلها، لسنا ناقصين فراغات في حكايانا، كأنك وضعتنا على موقد ناره هادئة، نريد صورة كاملة كي نرسي على بر، ليس أمامنا وقت كاف لتجريب الفشل، وإعادة التجارب مرات.

ضحك، فريد ضحكة حكواتي متمرس، وبدأ قص تجربته في عبور الحدود التركية براً كما حصلت، وعنها قال: لقد اتفقنا في مقهى يرتادها عراقيون في مدينة أدرنه (Edirne)، مع مهرب عراقي يدعى جليل، شاب في عمر الأربعين وربما أكثر بقليل، بدا وكأنه يعرف الطرق جميعاً، وخبايا الجبال والغابات، العالم بالطبيعة والأشجار والحفر، وطرق الدوريات، المراوغ الذي ينام مثل الذئب بعين مفتوحة، حتى لقب الشيطان.

وَضعَ جليل، أو الشيطان شروطه في ذلك الاتفاق، ثلاثمائة دولار للفرد الواحد، واستعداد للمشي ثلاث ليال في غابات كثيفة، وأراض مرتفعة، ووديان تغطيها ثلوج، واستراحة يقتصر التمتع بها على النهار، وإطاعة الأوامر بلا نقاش.

ختم شروطه بشرط أخير، التزود بمعلبات تكفي ثلاثة أيام بلياليها، غذاءً للفرد الواحد، وافق العراقيون العشرة، المجتمعون في المقهى، بضمنهم أسرة من أربيل أب وأم، وابنتهما الطفلة ذات

الستة عشر عاماً، قدمهم أقرباء لوالدته كردية الأصل، ذوي منزلة خاصة.

سُلِمت النقود قبل ساعة من الشروع، بكفالة صاحب المقهى التركي، أحضر جليل عند استلامها، سيارة باص نقلت المجموعة على هيأة سواح في سفرة جماعية، وصلوا حافة غابة مكتظة بأشجار الصنوبر عند حلول المساء، يجهلون مكانها والاتجاه.

بدأ المشوار مشياً كان هو في أوله، وأبقيت الأسرة عند المنتصف لتأمين حمايتها، قال إنها شرف العراقيين، فتحمس الشباب في الذود عن هذا الشرف.

كان شتاء قارصاً في الشهر الأول من السنة، انخفضت درجات الحرارة في الغابة دون الصفر، معظم ساعات الليل وبعض من النهار.

توغلنا داخلها، سيراً يتبع فيه الجميع جليل قائداً، وهو من يحدد المصير، يمسك كل فرد عصاً، يستدل بها على الطريق في ليل موحش، صوت الهواء المشبع بذرات الماء المتجمدة، عند ارتطامه بأغصان الأشجار يوحي، وكأنه صوت الشيطان، وتوحي مشية جليل وأوامره المتواصلة في التوقف، والاختباء بروكاً على الأرض الموحلة، وكأنه حاكم هذه الغابة.

انخفضت اليوم الثاني درجة الحرارة دون الصفر خمس درجات، تساقط الثلج بداية الصباح، رقدنا بقصد الاستراحة، في حفر ملأها الصقيع حتى حلول المساء.

نادى جليل الاستعداد لمعاودة المشي، وحال النهوض تبين موت رامي الصديق القريب تجمداً. رفض الانتظار حتى الدفن،

هدد بالتحرك، وترك من يشرع بالدفن وحيداً.

قال عندي توقيتات ألتزم بها، وحياة المتبقين التسعة، أهم من جثة ميت راح ضحية طموحه في العيش بين الاوربيين، كان كلامه في تلك اللحظة منطقياً، فَغُطيّت الجثة بأغصان أشجار يابسة، واللحاق بكبير الشياطين مشياً سريعاً، يتعثر فيه الجميع بأذيال الخيبة.

كان جليل مملوءاً بكم من القذارة، لا يمتلك الشيطان الحقيقي مواصفاتها، وكانت الأسرة تتجنب اقترابه منها، ومن ابنتهم خاصة، صار في الليلة الثانية يراودها عن نفسها، يتحجج مرة بالانفتاح الأوربي الذي اليه يتجهون، ومرة أخرى بحق الحب في الحياة، وهي المراهقة ترفض سلوكه بإصرار وتتمنع.

وقف نهاية تلك الليلة على حافة مرتفع حاد، قريباً من شروق الشمس بقليل، أصر عدم اكماله المشوار، الا بعد الخلوة بها في المكان الذي وصلوه، وفي هذا الوقت الذي ستبدأ فيه الاستراحة طول النهار.

واجه ممانعة قوية من الأسرة، وقدر من الإصرار، فاقترح الزواج منها نهاراً واحداً، زواج مسيار أو متعة على أي مذهب يريدون، مع وعد قدمه إعادة ثلاثمائة دولار اجوره منها في عملية التهريب مهراً، تستحقه في هذا المكان.

كان الموقف حرجاً للجميع، حوّلَ الستة المتبقين من هذه المجموعة الى أنذال مع سبق الاصرار، الا شاب من الناصرية، المدينة الجنوبية، تقدم منه، عتب عليه أولاً، حاول ثنيه، رحمة بها طفلة لا ترغب رسم نهاية لحياتها العاطفية، هكذا اغتصاباً،

ولما لم يجد بد من ذلك، تقدم لمنعه بالقوة، فقابله بطعنه سكين أسفل البطن، حركها الى الأعلى، بطريقة احتراف أخرجت كل أمعائه خارج جوف البطن، سقط على إثرها يتخبط في دمه.

سكت الجميع أنذالاً سكوت خرسان، وكأن ألسنتهم قُطعَت من جذورها، فخضعوا لإرادته مستسلمين، أدار الأب وجهه حياءً، ورفعت الأم يديها الى السماء، سألت:

- لماذا يحصل ما يحصل؟

بكت بعويل ردد المكان صداه.

أما هي الطفلة التي لا تقوى فقد مشت تنظر في كل الوجوه، نظرة عتب واستهجان ثم سارت، فاقدة السيطرة على وعي لها تبددَ تماماً بين الأشجار، سارت الى جانبه مطأطأة الرأس مكسورة، ومشى الى جانبها ماسكاً يدها من الرسغ، مزهواً بفحولة الغابة التي لا تقهر، كان منظرها مثل الشاة التي يختارها الذئب تسايره جرياً من الخوف.

دخل مغارة، عارفاً خباياها جيداً، بقيَّ فيها حتى حلول المساء، خرج واثقاً من فحولته، تخلفه الطفلة ملطخة أذيال فستانها ببقع من الدم تفوح منه رائحة الاغتصاب، معلناً بداية الليلة الثالثة والأخيرة.

انتهت الليلة الأخيرة مشياً كأنه في جنازة، توقف الركب في ساعتها الأخيرة، عند واحة خضراء بين أشجار صنوبر كثيفة، لتلقى التوجيهات عن كيفية عبور الحدود بعد خمسين متراً كل على حدة، وقفوا في صف عريض، وقد اختلط الأمل في داخلهم بقلق المجهول، فسمعوا من قريب أصوات سحب أقسام من بنادق

آلية، وكلام باليونانية، أداروا صوبها الوجوه، تبينت مجموعة عساكر، بملابس سود، وملامح غير واضحة.

تسمر الجميع في المكان، لم يفهموا شيئاً ولم يستجيبوا، أو بالحقيقة لم يجد أحد متسع من الوقت كي يستجيب، إذ طُرِحَ الواقفون أرضاً من مهاجمين شرسين، وفي ثوان وثقت الأيادي الى الخلف، وعند الاستفاقة من الصدمة، لم يعد جليل موجوداً، لقد توارى مختفياً بين أشجار، وحفر يعرف الشيطان دروبها.

.....

ضاقت الدنيا في وجوهنا نحن الثلاثة من جديد، أشهرنا العجز، رفعنا الراية البيضاء، بعد تأكيد آخر مكتب حجز، استحالة الحصول على تذكرة طيران عبر النمسا، انطلاقاً من المطار الطرابلسي الذي سيفتح يوم الثلاثاء.

قصدنا البحر يأساً لانضاج الخيار البديل، قبل مغيب الشمس بقليل، ولقضاء وقتاً ميسوراً بعد الانتهاء من تسليم المقاولة.

لم تحل مياه البحر الهادئة ولا نسمات هواؤه الباردة ضيق النفس، ولم تخفف من ضغط صار يعصرها ويزيد من الضيق، فاستأذنت التوقف عن المشي، والتوجه صوب المستشفى لزيارة وسن، سألتْ متوترة عن آخر محاولات الحجز؟

رفعنا الراية البيضاء، وضعنا مخططاً لعبور تركيا براً الى اليونان، ومنها الى ألمانيا محطة ستكون الأخيرة كما هو الاتفاق، قلتها، فرفضت الفكرة بغضب واضح، لمخاطر لا تقل عن تجربة البحر، وَعدَتْ مسعىً تحاول في مجاله، لكنها لم تفصح عنه، اكتفت

بالقول، تعال المستشفى في الغد بعد الساعة الثالثة عصراً، وستتعرف على التفاصيل والاحتمالات.

ما أن دنت عقارب الساعة الثالثة عصراً، وقفتُ على عتبة الغرفة الخاصة في هذه المستشفى التعليمي العام، دخلتها متهيباً، وجدت وسن ترقد مكبلة بأجهزة قياس ومتابعة متعددة، وعلى وجهها كمامة أوكسجين، أزالت الكمامة، رسمت على وجهها ابتسامة موجوعة يغلفها الألم، التفتتْ الى رجل أخذ له مكاناً على كرسي خشبي بمواجهتها، قالت عمي صالح.

العم صالح شاب في أوائل الثلاثينات من العمر، يرتدي بدلة أنيقة، ذات لون رصاصي، يبدو على هيئته التحضر، ترك مرض وسن على وجهه بعض علامات كدر، كأنها حديثة، تؤشر هيئته العامة موظفاً مسؤولاً، وتؤشر طريقة جلوسه على الكرسي، كأنه قد حضر من دائرته الى المستشفى مباشرة.

تقدمتُ منه خطوة لإتمام السلام، نهض من على كرسيّه، فبادرتْ وسن بالقول إنه وبالإضافة الى كونه عمها فهو صديقها الأقرب.

ابتسمت ثانية كذلك بألم، وأكملت إنه كاتم أسرارها، وهي أيضاً كاتمة أسراره، توقفتْ عن الكلام قليلاً، لتجاوز حالة التعب التي يسببها الاستمرار في الكلام، بلا استنشاق الاوكسجين، أعادت الكمامة الى مكانها على الوجه، أخذت منه ما يكفي لتمكينها الاستمرار في الكلام، ثم قالت مخاطبة عمها صالح:

- هذا هو الزميل العراقي الذي حدثتك عن مشكلته، وأصدقاؤه وجدوا صعوبة في الحصول على تذاكر سفر،

(ترانزيت) عبر أحد المطارات الأوربية.

أعاد الرجل جسمه الى حالة الجلوس، وضع ساقه اليسرى على ساقه اليمنى، سأل:

- وماذا يريد الزميل من أوربا؟

أنا الذي أريد، قالت بثقة، وأكملت إن وجوده الى جانبها يرفع معنوياتها، ثم غيرت صيغة كلامها الى سؤال ملؤه الغنج:

- ألا يهمكم رفع المعنويات؟

- وهل بنتكم الوحيدة لا تستحق....؟

ضحك الرجل ضحكة يخفف بها ألمها، قال من يجرؤ، وجميعنا في خدمة وحيدتنا العزيزة، ووعد التحدث عن الموضوع بعد انتهاء الزيارة.

رفضت بدلع طفولي تأجيل الحديث، أصرت على أن تكون طرفاً في حلوله، شاهداً في الوقت نفسه، فنزل عند رغبتها، طلب قص الحكاية بالتفصيل، فأوجزته الرغبة في الحصول على تذاكر سفر عبر أوربا وتجاوز عقبات المطار.

- أي عقبات؟

- تأشيرة عبور، لا يمنحها الأوربيون لأهل العراق.

تدخلت وسن ثانية، سألت عمها بشكل صريح ومباشر عن موعد حجزها والوالدة الى النمسا وعلى أي خطوط؟

- بعد الغد وعلى الخطوط الليبية، وهي الرحلة الأولى لها الى فينا.

سألت مرة أخرى، وكأنها تملي الأوامر على عمها كاتم أسرارها:

- أليس ممكنا ان يكونوا معها على الرحلة ذاتها؟

عندها سيكون عوناً للوالدة في هذه الرحلة، وتحسباً لأي طارئ. أجابها جاداً، لا تقلقي بهذا الشأن، سيكون طاقم الطائرة جميعه بخدمتها.

لكني لا أطمئن الى الطاقم، وجود الجماعة معاً، سيكون هو ملاذي الوحيد، لا حل غير هذا الحل قالت بإصرار، فتقدم منها، وقبلها على جبينها.

قال سيكون لها ذلك، سيطير الرجل وزميليه على الرحلة نفسها، لكنه لا يتحمل مسؤولية ما قد يحصل في مطار فينا، واحتمالات الإعادة الى طرابلس في حال ارتكاب أخطاء، وتلك مسألة أخرى فيها مخاطر عدة. لا عليك، ان الاوربيين يختلفون عنا نحن الليبيين، قالت بمزاح متقلب.

أجابها مازحاً:

- لأنهم أخوالك.

لا أنسى جميلك عمي حبيبي ما بقيت في الحياة، قالت بلهفة عشق ميؤوس، فأخرج صالح من جيب سترته، بطاقة (كارت) مثبت على أحد أوجهها الاسم، والعنوان الوظيفي، رئيس قسم الحركة في مطار طرابلس الدولي، وعلى الوجه الثاني أرقام هواتف البيت والعمل، ناوله عند مد اليد للمصافحة مودعاً، ثم قال سأنتظركم غداً في المكتب بعد الساعة العاشرة مع جوازات السفر.

ختم حديثه بالقول وهو يضحك، خذ بالك من بنتنا حبيبتا، والا قسماً بالله، سنعيدك من أوربا حافي القدمين، وانت عارف الليبيين.

أجبته بطريقة ساخرة قاصداً تلطيف الأجواء، نعم أعرف جيداً، لقد علمت ذلك لمدة أسبوعين، سيظل ما فعلوه يطاردني الى الأبد، لقد سلبوا مشاعري الداخلية، حداً لا يمكن نسيانه، وعموماً اطمئن سيدي سيكون قلبي لها ملاذاً ما حييت.

.....

ضغط صالح في تمام الساعة العاشرة صباحاً، على زر جرس مثبت على طاولة مكتبه داخل بناية المطار الدولي، حضر موظف يبدو مؤتمناً، سلمه الجوازات الثلاثة، وألف دينار ليبي، طلب منه قطع ثلاث تذاكر طارئة على حصة اللجان الثورية، وبالتحديد على الرحلة الرقم (٩٦٣) الى النمسا، ومنها على الخطوط التركية الى إسطنبول، عبر مطار فينا.

قَلَبَّ الموظف ثلاث جوازات، قال ولكن؟

قطع عليه الطريق، بالقول قلت تذاكر طارئة.

غاب عشرين دقيقة كنت أنتظر متوتراً، لم أطمئن الى إنجاز مهمة حسبتها مستحيلة، وكان أيهم وفريد ينتظران في صالة الاستقبال، يحسبونها كذلك مستحيلة، وصفوا حالهم فيما بعد، حال من سقط وسط بحر ليس له قرار.

انتهت الدقائق العشرين، فحضر الموظف، ومعه ثلاث تذاكر على الخطوط الجوية الليبية الى فينا، ومنها على الخطوط التركية الى إسطنبول، سلمها الى العم صالح، وقال وهو يبتسم ابتسامة تمكن: لا بد من الذهاب الآن الى المستشفى لإخبار وسن بالنتائج، والتنسيق معها مسألة الحضور الى المطار غداً في التوقيت ذاته،

للدخول سوية، لأن الموضوع لم ينته بعد، ولا يود مواجهة عقبات أمنية قد تظهر فجأة.

ضحكتْ وسن حال مشاهدتها التذاكر بتفاؤل قوي، وكأنها تضحك بعد سنين من الحزن الشديد، زادت في داخلها الثقة بالنفس، أخذت زمام المبادرة، صارت تخطط، وتدير دفة المشروع بثقة عالية.

قلت ستقلع الطائرة الليبية في العاشرة مساءً، فعاودت الضحك ثانية، كأنها ليست واثقة من طيرانها بالموعد، إذ لم يصدف أن طارت في موعدها من قبل، ومع ذلك لا بد من حضور المطار بالساعة التاسعة.

- لكنهم أبلغونا حتمية الحضور قبل ساعتين من موعد الإقلاع.
- لا تقلق، إذ أن الدخول بالتوقيتات الاعتيادية، يوفر الوقت أكثر الى التدقيق في تفاصيل الأشياء، ويزيد احتمالات الاعتراض، فيما الدخول سوية مع تأخير محسوب، وقليل من المساعدة، سيوفر فرصاً أفضل للضغط في تجاوز العقبات.

.....

نظرتُ الى الساعة في صالة المطار كانت التاسعة تماماً، سمعت نداءً لمسافري الخطوط الليبية الى النمسا هو الأخير، فيه تأكيد على ضرورة التوجه الى صالة المغادرة على الفور، فزاد القلق في داخلي حد التململ، شعرت لحظات ندم على الالتزام بخطة وسن،

لكن سيارة اسعاف وقفت جانباً، بددت ذلك الندم، صار شعوراً بالذنب من شك حصل لبعض لحظات.

نزلتْ وسن على نقالة متحركة، مثبت على ذراعها اليسرى خرطوم، يسير الى جانبها العم صالح وإيڤا والدتها الشقراء وقد بدا عليها الحزن الذي اضفى عليها شيئا من المهابة، وبدت كأن الأيام الأربعة الأخيرة جعلتها اكبر من سنها الحقيقية بعشر سنين.

سرنا الى جانبهم مسرعين، فأشار العم صالح تسليم التذاكر والجوازات الى موظف كان ينتظره، اختفى من بعد استلامها بين دهاليز المكاتب، ليتركنا مع موظف آخر من القسم الصحي، أخذنا عبر ممر، يبدو وكأنه ممراً خاصاً بالأمن، أوصلنا الى صالة المغادرة، في انتظار الجوازات، انتظاراً لم تتجاوز ضغوطه النفسية خمس دقائق، حضر من بعدها الموظف، وقد ختم الجوازات ختم المغادرة، فتنفسنا الصعداء.

كانت الصالة خالية من المسافرين، لقد تركوها جميعاً، أخذوا أماكنهم على مقاعد الطائرة، لم يبق منها شاغراً سوى الستة الأمامية محجوزة لمجموعتنا، توجهنا صوبها بدلالة مضيفة من أصول مغربية.

قال أيهم لست مطمئنا إذ بدى المطار، وكأنه في حالة تيه.

أجبته وأنا كذلك، إذ أن صعودنا عبر ممر خاص، وبهذه السرعة يشبه فلماً من أفلام جيمس بوند، الأمر الذي زيّد في داخلي الشك، وعدم الاطمئنان.

أخذنا أماكننا على الكراسي الأمامية الثلاثة في الجانب الأيسر، وأخذت وسن ووالدتها، ثلاثة أخرى الى جوارنا في الجانب الأيمن.

جلستْ هي على الكرسي القريب من الشباك، تتأمل المطار والضياء من حول الطائرة، وكأنها في وداع أبدي، وجلست أنا في الكرسي القريب من الممر أتأملها من حيث لا تدري، قبلهّا العم صالح من جبينها، وقبل إيڤا مودعاً، وعرجَ قبل نزوله على مقصورة الطيار.

جلسنا في الأماكن المخصصة، خُرْسٌ لم نتكلم، يفكر كل منا في لحظة الإقلاع، وفك طلاسم نحس كانت مغلقة، لسنة قضيناها، محاولات فك على الأرض الليبية.

اقتربت المضيفة الى باب الطائرة، تريد غلقها.

تأملتُ خطواتها خطوة خطوة، ومع كل خطوة دعاء أن تفعلها بسرعة، لكنها لم تفعلها، وقبل مد يدها على العتلة كي تفعلها، دخل موظفان يرتديان الملابس الرسمية بدل مدنية، يمسك كل منهما جهازاً لا سلكياً، يصدر أصواتاً أغلبها (عُلمْ) كأنهم رجال أمن.

نظر الأول منهما الى ركاب الطائرة نظرة عامة، قصد شخصان من بعد أماكننا بثلاث أماكن، طلب جوازاتهما فعاد القلق في داخلي يتصاعد مرة أخرى، نظرتْ وسن الينا، ابتسمت بصعوبة لأغراض الطمأنة.

تفحصَ الرجل الأول جوازاتهما، وأصدر أمراً بالنزول، ومن بعدها توجها الاثنان الى مؤخرة الطائرة أنزلا بالتوالي ثالث ورابع، ثم عادا الى المقدمة يلقيان النظر من جديد، توقفا الى جانبنا، سأل الأول:

- هل أنتم مصريون؟
- كلا.

طلب الجواز، سلمته في الحال، وكذلك فعل أيهم وفريد.

مسكتُ أنفاسي أتطلع الى ردة فعله، قلت مع نفسي، هنا فعلَ النحس فعلته، وهنا تسجل الفشل المحتوم للمحاولة الثانية، هممت الى الوقوف تنفيذاً لأمر نزول كنت أتوقعه.

رفعت وسن كمامة أوكسجين كانت تضعها على فمها والأنف، أشرت الى أحدهم كان يحمل بيده الجوازات الثلاثة، دنا منها متجاوزاً كرسي والدتها، تمتمت في أذنه، ما لم نسمعه في حينها، فأعاد لنا الجوازات، قال سفرة سعيدة.

أغلقت المضيفة المغربية باب الطائرة، حال خروجهما في تمام الساعة الحادية عشر ليلاً، متجاوزة الوقت المحدد ساعة واحدة فقط، وأعلنت ربط الأحزمة استعداد للإقلاع.

درجت الطائرة على الممر الجانبي بلغت المدرج، وقفت على أوله باتجاه الشمال، دفع الطيار مقبض الخنق(Throttle levers) الى الأمام مرة واحدة، فتعالى صوت زئير محاركها، ومع تعاليها خفتت مثيرات القلق مرة واحدة.

استقرت الطائرة في خط طيرانها فوق البحر المتوسط بعد ربع ساعة طيران بزاوية صعود، أطفأ الطيار مصابيح ربط الأحزمة، بدأ الركاب يتحركون في أماكنهم، فاستأذنتُ والدة وسن مساعدتها مسك كيس الماء المغذي الموصول الى الذراع.

جلستُ على الكرسي الى جانبها، شكرتها على ما قامت به وعمها، سألتها ماذا تمتمت في أذن رجل الأمن.

قالت عمي صالح هو مسؤول اللجان الثورية في المطار، وضغطتْ بأصابع يدها على أطراف أصابعي بحنان فيه وجع نفسي حاد، كانت أصابعها، وكأنها فقدت قدرتها على الضغط، لكنها لم

تفقد نعومتها، ولم تفقد أضافرها تلك الصبغة الحمراء التي تحبها.

.....

نظرتْ من شباك الطائرة الى السماء، كأنها تطلب شيئاً ما، ثم عادت لتبدأ الحديث بوهن، عن الألم وجميع الاحتمالات، وحساب أيام البقاء في المستشفى. قالت لم يبق من هذه السنة الدراسية سوى أربعة شهور، ستشد من بعدها الرحال الى هامبورغ، لتأسيس قاعدة هناك، وتقوية لغتها الألمانية التي تجيدها شفاهاً، رسمت صوراً مبعثرة عن المستقبل لا تخلو من الأمل. لم تكمل وصفها، جفل جسدها اضطراباً شعرتُ لحظتها، وكأني أسقط من فوهة بئر الى قاعه في أعماق الأرض.

شهقنا معاً، تلقفتْ آذاننا صراخ الركاب ودعواتهم بلغات عدة، نزلت كمامات الأوكسجين من الأعلى مرة واحدة، فتحت مصابيح التحذير، صرخت في مكانها مذعورة، ومثلها فعلت إيڤا والنساء الأخريات، الا المضيفة المغربية.

ركزتُ على حالة وسن، ثبتُ الكمامة على وجهها أولاً، فتمسكت في ذراعي القريب بكلتا يديها وما زالت تصرخ بروحها المسلوبة، حاولت تهدأتها، ومعها نفسي التي تحتاج هي الأخرى الى تهدئة، نظرتُ من شباك الطائرة، شاهدت مياه البحر، تبعد أمتاراً من جسم الطائرة.

فتح الطيار مصابيح طائرته كلها، أعلن البقاء في الأماكن والحفاظ على ربط الأحزمة، شرح الحالة تعرض طائرته الى مطب هوائي، أنزلها من ارتفاع الثلاثين ألف قدم الى ألف قدم مرة واحدة، أكد السيطرة على الموقف واتمام تجاوز الأزمة، كان الطيار قديراً

بحق.

ركزتُ في النظر الى وجه وسن الشاحب ذي الشفايف المزرقة، وراح الدمع ينزل من عينيها بغزارة، قالت بصوت يكاد لا يسمع أنها تختنق، فوضعتُ كف يدي على جبينها، قلت تنفسي، لقد نجونا، راحت عندها تتنفس بسرعة، حتى إعلان الطيار العودة الى الحالة الطبيعية، قالت لا تريد الموت في البحر، صارت تكرهه، تخافه من تلك الساعة التي تكلمت فيها عن تجربة القارب.

استمر قلبها يخفق بقوة، حاولتُ التخفيف من شدة توترها، رحت أقص حكايا الماضي وتجارب الرياضة أيام المنتخب الوطني لسلة الشباب، أصرتْ على ذكر المستقبل، وخطط الدراسة والعيش في هامبورغ، قالت أنها لا ترغب في إكمال ما تبقَّ من الحياة في الجماهيرية العظمى، ترفض العيش كما عاشت والدتها تناقضاً، أو صراعاً بين الحب، ومقت العيش وسط التخلف.

قربتُ فمي من إذنها الندية، همست أملاً في اكمال المشوار هناك في هامبورغ، مهما تكن الصعاب، وعدتها حتمية الوصول الى هناك، وإن تطلب الموقف مشياً طوال فصل كامل من السنة، وحال ملامسة عجلات الطائرة مدرج المطار شكت صداعاً قوياً، أشارت الى فقدان بعض ذكرياتها القديمة، ومع هذا كانت متماسكة، متفائلة بتجاوز محنة الورم، والعيش ما تبقَّ من العمر مع قوم تجري دماؤهم في عروقها ممزوجة بالدماء العربية.

توقفت الطائرة قريباً من الخرطوم رقم ثمانية، والى جواره وقفت سيارة اسعاف، نزل منها مسعفان صعدا سلماً يفضي مباشرة الى الخرطوم، ومنه الى باب الطائرة، دخلاها متوجهين الى

الكرسي الأمامي، تكلما مع إيڤا، سألا وسن، وعن امكانيتها المشي خطوات الى باب الطائرة، حيث الكرسي المعد طبياً للوصول الى الإسعاف؟

أومأت بالإيجاب واثقة، خطت خطوة واحدة وتعثرت، كادت تسقط على الأرض.

أمسكت ذراعها، فأعادت توازنها، وضعتْ يدها على كتفي، واليد الأخرى على كتف أيهم، اتكأت علينا خمس خطوات حتى جلوسها على الكرسي الموجود عند باب الطائرة من الخارج.

أشر رجل يرتدي سترة فسفورية لماعة بحزم، ضرورة العودة الى المقاعد، وانتظار إشارة المضيفة، فأومأت بيديها مودعة، عندها مدت إيڤا يدها الى حقيبة يدها أخرجت ورقة مكتوب عليها عنوان المستشفى، وأرقام هواتفها، قالت سوف ننتظر.

.....

أذنت المضيّفة المغربية لنزول الركاب، أشارت لمجموعتنا أولاً، خرجنا الثلاثة معاً، ابتسم رجل الأمن ذو السترة الفسفورية، ابتسامة مكافئة لإعانتنا وسن في نزولها، بدأ طلب جوازات البعض للتدقيق في التأشيرات الممنوحة.

قال فريد لقد تجاوزنا عقبة، وهناك أخرى حتى وصولنا قاعة (الترانزيت)، بجوازاتنا، والخروج منها بلا جوازات.

هكذا كانت الخطة.

تتبعنا على هداها الإشارات الى باص نقلنا الي بناية ثانية ضمن محيط المطار، وممر منها يفضي الى قاعة (الترانزيت)، عند

منتصفه مرافق صحية للرجال، دخلناها على الفور، كان الوقوف داخلها صفاً، سبقنا اليه فريد.

لم يتنازل فريد عن حقه في أن يكون الأول.

خرج بعد خمس دقائق، يبتسم منتصراً تمزيق الجواز، سار باتجاه القاعة، دخل من بعده أيهم وفعل الشيء نفسه حسب المخطط المرسوم.

تأخر الرجل الذي تبع أيهم داخل المرافق الصحية فعتب ليبي يقف من بعده في الدور، عتاباً فيه نقد بصوت عال، دخل على إثر سماعه شرطي بكامل عدته، سأل عن أصل الصوت، خلته سيكتشف أمري فاقتربت قواي من النفاذ، مسكت بطني، مثلت دور المصاب بإسهال قوي، استأذنت الليبي في تجاوزه الدخول، أذن الرجل مرحباً فض مشكلة اسهال طارئ.

دخلت عرين التمزيق، عقبة هي الثانية في الخطة، أخرجتُ مقصاً صغيراً من حقيبتي، بدأت قص الأوراق بألم، أجهزت على جميعها واحدة تلو أخرى، نظرت اليها نظرة أخيرة، قبل سحب مياه الصنبور لتأخذها الى العدم.

تنفست بقدر من الارتياح، خرجت أشد حزام بنطالي.

رمقني الشرطي نظرة تعجب، لم تثر في داخلي الخوف، فقد تخلصت من الوثيقة الوحيدة التي تثبت هويتي، ومن بطاقة دخول الطائرة، اتجهتُ صوب القاعة واثقاً.

قال فريد علينا الانتظار أربع ساعات حتى اقلاع الطائرة التركية، لنتجاوز الترحيل القسري، ثم أخذ مكاناً له على أريكة، مد عليها جسده وسط القاعة، وفعلنا مثله حتى شارفت الساعات الأربع

على النهاية، جاء قبل انتهائها بقليل صوت مذياع ينادي بأسمائنا نداءً أخيراً للصعود الي الطائرة التركية، لم نلتفت اليه، ولم نتحرك من على الأريكة حتى انتهاء الساعة الخامسة، نهضنا للتجوال بين الممرات، وقاعات أخرى على غير هدى.

مر شخص يرتدي سترة فسفورية، سأل عن أسباب تواجدنا في هذا المكان، أجبته بثقة عالية:

- مهرب أوصلنا، أخذ جوازاتنا وغادر المكان، نحن عراقيون مضطهدون، نطلب اللجوء.

إجابة تقليدية لطالبي اللجوء في المطارات الأوربية.

أمر بالوقوف في المكان، اتصل من جهاز يحمله، حضر على أثره شرطيان، سارا بنا الى غرفة داخل المطار، سبقنا اليها آخرون من أجناس متعددة، يبدو أنهم سلكوا الطريق نفسه في طلب اللجوء، ولما حل الصباح، أحضرت عاملة في منتصف العمر، وجبة إفطار، تكلمت الألمانية، لم يفهمها أحد، فتحولت الى الانجليزية البسيطة، فهمنا منها انتظار موظف الهجرة ليبت في الأمر.

حضر الموظف، أجرى تحقيقاً أولياً، قال ستنقلون الى مكان إيواء خارج المطار، كان هذا المكان (ترايس كيرخن)، معسكراً، أو قلعةً عسكريةً متروكة، تعمد النمساويون وضعه مأوى مؤقتاً للاجئين، لم يشددوا الحراسة على منافذه، ولم يبدأوا إجراءات التسجيل قبل ثلاثة أيام.

سألت مصرياً نزيلاً، قبل رفع الحقيبة من على الظهر عن السبب؟ فقال يعطون المجال لفرار اللاجئ الى دول أخرى، كي تخف عليهم الأعباء، لهذا تراهم لا يمنحون الا اللجوء السياسي.

(١٢)

ما أن وُضعتُ حقيبة الظهر الخفيفة على السرير المخصص في القاعة رقم تسعة، في مركز الايواء، حتى بدأت جولة حرة، لاستكشاف الأمكنة والقاعات، عدت بعد الاكتفاء لأخذ قسط من الراحة، وتفريغ الشد العصبي الناتج عن الطريق، كان السرير مريحاً، نظرت الى النزلاء كانوا خليطاً من الأفغان، والعراقيين العرب والأكراد، وأفارقة تركوا القارة السمراء، أشهرهم كبير هذه القاعة وسيدها، أسامة المصري، منحه البقاء لأكثر من سنة عملياً شارة مقيّم أقدم ومرجعاً في كل الأشياء.

قدم أسامة تفصيلاً للعيش في هذا المركز، وقواعد التلاعب بالضوابط والتعليمات، تطرق ضمناً الى طبيعة القوانين السائدة، والى تاريخ المعسكر، وإن ملكيته تعود للجيش النمساوي، منذ أكثر من قرن، هجره من بعد الحرب العالمية ثانية، يوم أفتى عقلاؤه من القادة، تقليص جيشهم لتفعيل النماء، فحولوه بانتفاء الحاجة، إلى مركز إيواء مؤقت للمهاجرين، قوامه عنابر حافظت على هيكلها مكاناً للنوم، يستوعب الواحد منها أربعين سريراً، تُشغل وتخلى تباعاً على مدار اليوم، وباباً واحدة، تتحكم بالداخلين والخارجين، حسب ضوابط يصعب تجاوزها بالطرائق غير الرسمية، وسياج حديدي يحيط بمعظم أركانه، يمكن القفز من عليه بطرائق غير رسمية.

- ماذا تعني بالطرائق غير الرسمية؟

سألته وهو مستمر في الشرح، فأجاب بلهجته المصرية المحببة:

(لو كنت عاوز تهرب، وانت لازم تهرب، ما تقدرش تخرج من الباب الرئيسة، الا بالكارنيه الخضرة أو الورقة البيضة).

- وما هي الكارنيه يا ريس؟

سألته ثانية، فأجاب بالطريقة ذاتها:

(هو إنتو متفهموش عربي).

الكارنيه سيدي، بطاقة هوية، تمنح هنا بعد أسبوع من الوجود بلا مخالفات، أما الورقة البيضاء، فهي سماح للخروج لسبب طارئ.

ولغرض كسب السبق في سوق التعامل، قال ان السبب الطارئ يمكن شراؤه، ومن لا يملك المال الكافي للشراء، يمكنه القفز من على السياج، مع الأخذ في الاعتبار ليس كل مكان من السياج يصلح للقفز، إذ أن أغلبه مغطى بنظام مراقبة عن طريق الكاميرات، والمهم هنا أن لا تراك عيون الشرطة عندما تتلاعب أو تقفز.

أكمل أسامة الشرح ترغيباً وترهيباً، ثم سأل:

- ما ذا تريدون؟

قال فريد، أريد هاتفاً أتكلم منه مع صديق، للانتقال بسيارته مشوار تهريب آخر خارج النمسا. فحدد له تكلفة المكالمة مائتي شلن، ومثلها لورقة الخروج.

- سأدفع، لكني لا أملك عملة سوى الدولار.

ابتسم أسامة راضياً قبل التوجه من مكانه، قاصداً شنطة جلدية تضم كل مقتنياته، مغلقة بقفل أمين، أخرج من وسطها هاتفاً خاصاً بالاستخدام التجاري الطارئ، تحفظ عليه بطريقة تعطيه قدراً من الأهمية، تكفي لرفع سعر المكالمات، وأخرج أيضاً حزمة

شلنات، حَسبَ سعر التصريف منها الى الدولار نمرتين تزيد عن السعر المصرفي، مقداراً لربح يعدهُ استحقاقاً في ظروف المجازفة والاحتكار، كان الرجل صياد فرص ماهر.

- ما خطوتك القادمة؟

سألتُ فريد، فأجاب ببرود: سيكون الافتراق هنا حتمياً، ولكل طريقه الذي يريد.

لكننا اتفقنا نكمل المشوار معاً الى آخر الطريق. رد بإصرار:

- يصعب مفاتحة صديق لتحميله عبئ مجازفة نقل صديق آخر في سيارته خارج النمسا.

أخذ وقتاً توقف فيه عن الكلام للتفكير بأمر ما، ثم سأل عن قرارنا نحن؟

أنا عن نفسي ملتزم بوعد، الاطمئنان على وسن، ومن بعدها سأتجه الى ألمانيا، وهناك أفك راحلتي، وأبدأ.

ومن جانبه قال أيهم، أنه باق على الاتفاق في السير معاً الى آخر المشوار، وسيطمئن عليها أيضاً، تسديداً لدين يقره، ولا يمكن نسيانه.

رد فريد باستهزاء مع حركة ليده اليمين بدأها دائرياً: ما زلتم صغاراً لم تخبروا الحياة، ثم أخذ الهاتف الى خارج القاعة، عاد من بعد إتمام المكالمة منتشياً، سأل المصري عن سبل الخروج من الباب الرئيسة لهذا اليوم، أعطاه مائتي شلن أخرى، واستلم في المقابل ورقة بيضاء مطبوعة، تسمح لحاملها الخروج ساعة واحدة، اشترط عليه استخدامها بين الساعة الثانية والثالثة بعد

الظهر، موعد خفارة رجل أمن عربي الأصل من الشمال الافريقي يتحكم في الباب.

أفرد من بعد ضمان الخروج جسده على السرير، وراح في التفكير، ساعة قبل تفعيل الورقة البيضاء. ومن جانبي وأيهم أخذنا الوضع مشابهاً كل على سرير، حاولت إيجاد تفسير لسلوك فريد المفاجئ، سألت نفسي:

- لمَ تعمد الخروج عن الاتفاق؟

أعطيته الحق ضماناً لمصالحه في ظروف صعبة، لكني لم أتجاوز مشاعر ضيق شعرت بها، وكأن السند الذي كنت أتعكز عليه هوى من تحت أقدامي، فأبقاني معلقاً في فراغ.

قال أيهم، فريد هو فريد، يمثل جيل الحروب والحصار، شريحة ليست قليلة من الشباب يضعون مصالحهم أولاً، يستعجلونها على حساب الغير. ألم تلاحظ كم عدد مرات الفشل في محاولته الوصول الى أوربا؟

لقد أفرغ أيهم ما في جعبته من انفعالات غضب، اقترحَ استمرار البقاء في المركز حتى انقضاء اليوم، بغية المراقبة، وجمع المزيد من المعلومات، والتهيؤ للمغادرة قبل الشروع بإجراءات التسجيل، وطبع الأصابع.

قال أسامة لا تمدوا البقاء فخير البر عاجله، وأعطى مثالاً عن نفسه خسارة انتظار سنة بطولها، لم تحسم الإجراءات، أكد أنها متعمدة، إذ لا يدعم النمساويون اللجوء في بلادهم، يحبذون الهروب منها دون خدش الحياء الفعلي للقانون، وبالمعنى الأدق

أنهم يغضون النظر عن الهروب من المركز، لمن يقرر التوجه الى دولة أخرى.

أسامة تاجر حاذق، خبير بفنون الخروج تسللاً عبر النمسا، اقتطع من وقته وقتاً مجانياً لإعداد الخيارات الملائمة للتنفيذ، قدم في جلسة الليل التي استمرت لما بعد منتصفه، تصوراً منطقياً لثلاثة منها، قال عن الأول سيارة أجرة يمكنه تأمينها، تأتي قريباً من المركز، تقل مباشرة الى مدينة نمساوية على الحدود الألمانية.

وثانيها القطار السريع، من محطة (Wien Hauptbahnhof) الى ميونخ في ألمانيا، محاسن هذا الخيار رخص الكلفة، ومساوئه إيقاظ الشيطان، والتودد له كي لا يفتح أبواب النحس، لأن فتحها يعني دخول الشرطة، وهي قاسية في تعاملها، وأقل ما تفعله إعادة المعني مكبلاً بأغلال الى المركز، ويتم عندها أخذ طبعات أصابعه، ثم إدخاله في دهاليز الإجراءات، خطوات أبطأ من زحف السلحفاة الهرمة، يتعفن اللاجئ لزمن لا يعرفه الا الله.

وثالثها، الانتقال بقطار داخلي الى مدينة نمساوية قريبة من الحدود الألمانية، ومنها الاجتياز مشياً على طريقة السواح، وهو في العموم ليس صعباً، ولا خطراً فالحدود الاوربية مفتوحة.

قلت بلهجة رضا، إنه الخيار المطلوب، ثم أدرت رأسي الى أيهم، لأسأله الرأي، فأيد على غير عادته الإصرار على مناقشة التفاصيل، وتفرعاتها قبل ابداء الرأي. رفع يده هذه المرة موافقاً، كأنه عضو في برلمان عراقي.

.....

تناولت أول فطور صباحي في المركز، يقدم جماعياً، عدت الى العنبر مع آخرين، أفراداً وجماعات، والى جوارنا أسامة يتنقل بين هذا وذاك، يجيب على الأسئلة ويلبي الطلبات حسب أولويات بعضها مثبت من ليلة أمس، فهو حاسوب بُرمج باحتراف رباني.

بعد معرفته نية الذهاب الى سالزبورغ، المدينة النمساوية الأقرب الى الحدود الألمانية، أكد ضرورة مناقشة التفاصيل خارج القاعة، باع معلومة المكان الصالح للقفز من على السياج خلف المطبخ الرئيسي للمركز والدقيقة التي تكون فيها الرقابة عمياء، بمائة شلن، معها دليل على موقف سيارات الأجرة، يبعد عن المركز مائتي متر، عند منعطف الشارع الموازي الى السياج، قدم نصيحة مجانية أن يكون السفر في قطار بعد الظهر، حيث الانخفاض الملموس لحركة الشرطة، مستوى النصف على وجه التقريب.

لم يشكل القفز من على السياج في ثوان مشكلة، فما زالت الأجسام طرية، والعضلات تعمل بكامل طاقتها، وكذلك المشي الى الجوار امتاراً، مفعمة بالحيوية والثقة، حتى الدخول المُطَمئن الى الشارع الفرعي مائتي متر، وظهور سيارات الأجرة تقف بالدور.

استلم صاحب السيارة الأولى في الدور، ورقة مكتوب على ظهرها الأبيض اسم المحطة، هز رأسه قبولاً، أدار المحرك، وكأنه عارف مسعى الابتعاد عن المركز، لاجئين نيتهم الهروب، لم ينطلِ عليه تمثيل التحرك تحت عباءة السياحة قدوماً من الشرق، إذ كان طوال الطريق الى المحطة يتكلم بلغة انجليزية بسيطة عن الشرق، وأسباب الهجرة على الرغم من غنى معظم بلدانه.

سألتْ الموظفة المعنية بقطع التذاكر بابتسامة ترحيب جميلة، من خلف الشباك الأول في محطة القطار، عن نوع التذكرة المطلوب قطعها الى سالزبورغ، لم أفهم قصدها، فقطعت حسب اجتهادها التذكرة الأرخص، وفقاً لتسعيرة تلك الساعة من النهار، استمرت بالشرح واستمر رأسي في التحرك الى الأعلى والأسفل بشكل آلي مثل رقاص الساعة تعبيراً عن الموافقة على أمر لم أفهمه.

وضعتُ أمامها حزمة أوراق نقدية، أخذت ثلاثمائة شلن حق تذكرتين، وأعادت الباقي الى يدي، مع ابتسامة تعاطف معنا، شباب بدأوا نهج السياحة مبكراً كما كانت تظن.

تحرك القطار في موعده، تبين قطاراً عادياً يتوقف في جميع المحطات، استغرق الى المدينة المطلوبة سالزبورغ بحدود الساعتين.

كانت المدينة نظيفة، ضاحكة ليست مزدحمة، أخذتنا الأقدام على أرصفتها خارج المحطة الرئيسية، تدور بنا من حولها وقريباً منها، نذرع شوارعها، نتجنب فنادقها ونزل الشباب، هكذا كانت نصائح أسامة، التي ختمها، ضرورة قضاء الليل في جامع أتيب (Atip Salzburg) جامعاً تركياً قريباً من المحطة، إمامه مصري من الزقازيق، معروف بطيبته، واستعداده تلبية المناسب من الاحتياجات مجاناً، في مسعى منه التقرب الى الله، وكانت باب الجامع مفتوحة مع صلاة المغرب، والدخول منها الى الحرم مع مصلين آخرين طبيعياً، المصلون مسلمون من كل القوميات، وإقامة الصلاة جماعة خلف الامام، دفعت بنا التراص وقوفاً في

الصف الأخير، اكتملت خلالها الصلاة ثلاث ركع، زدنا اثنتين بقصد التأخير، ومن بعدها التنحي جانباً لتمثيل الجلوس من باب التقوى.

بدأنا قراءة القرآن حسب توجيهات قدمها اسامة في ساعة صحوة، تبرع طوالها منح المشورات بالمجان. تقدم منا الامام، تبين من أوصافه هو المصري المقصود، هيئته وهالة الوقار تبعث على الاطمئنان.

سأل عن دوافع التأخير؟

قال ستغلق أبواب المسجد حتى حلول موعد صلاة العشاء.

أجبت الحاجة لازمة الى البقاء في هذه المدينة، ليلتين أو ثلاثة، ومن بعدها التوكل على الله صوب الالمان، لإكمال المشوار.

تمنع بداية عن الحديث واسداء النصح، أو اتخاذ قرار، فأعطيناه إشارات عن أصولنا العراقية وأسامة ومركز الايواء، والمصريين في العنبر التاسع، عاد مزاجه من بعدها ليناً، ذكر إنه كان في العراق نجاراً الى نهاية الثمانينيات، وعن محلة المربعة، وكيف كان الوقت يمر سريعاً، وأهلها الطيبون.

توقف قليلاً عند ضرورة الالتزام بالقيم الإسلامية والشريعة، ثم اعتذر بأدب جم عن كثر توجيه الأسئلة، نهض بعد الفراغ منها مطمئناً، مشى الى الأمام في طريق يصل المخزن الملحق بالجامع، قال عنه المكان الأنسب للنوم في هذا الفصل من السنة، والأبعد عن عيون المتلصصين، والمخبرين وكلاء الشرطة من بين المصليين، الذين يصعب تشخيصهم، فضل التقليل من الدخول الى الجامع والخروج منه، إلا في حالات الضرورة، والأسلم أن تكون في أوقات الصلاة، أبقى الباب مشرعة، ترك الزاوية البعيدة مسموح

استغلالها، وسجاجيد كانت مخزنة تصلح فراشاً، وأخرى مثلها وبعض ألحفة متهرئة تناسب الغطاء، قال لا تفوتوا صلاة العشاء.

أقام صلاة الفجر، حضرها ثلة من المصلين غالبهم أتراك، وبعض عرب من الشمال الأفريقي، غادر المحراب بعد الانتهاء منها دون الالتفات الينا، كان وكأنه قد اطمأن لوجودنا عابري سبيل.

بقيَّ من المصلين، إثنان يقرئان القرآن بينهم جزائري معروف من الامام، كلفه غلق الباب بعد الانتهاء من قراءة القرآن، انتظرنا خروجه بغية المصاحبة دليلاً، يفيد في التعريف بالمدينة التي نجهلها تماماً.

سألني بعربية فصحى عن أصولنا ومن أين المجيئ؟

أجبت: مريض لنا في المستشفى، نود الاطمئنان على صحته والرحيل.

سألناه عن حاجتنا الى هاتف نقال؟

توقف على الفور جوار الرصيف، أخرج من جيب سترته الجلدية ثلاثة هواتف، عرض اختيار واحداً.

- وهل تبيع الهواتف متنقلاً؟

سألته على سبيل الدعابة، سكت في البداية، ثم حدجنا بنظرة فيها لوم أو عتب او اعتراض على المزحة، ثم قال بلهجته المحلية: (لا يا صحابي، إنها من الخواجات).

أخترنا الأول نوكيا صغير الحجم، طلب له سعراً أربعمائة شلن مع شريحة جديدة.

مد يده في جيب آخر لسترته أخرج علبة فيها شرائح، اختار واحدة بشكل عشوائي، وضعها مكان القديمة، جربه، بطلب رقم

يخصه فكان شغالاً، استلم المبلغ نقداً، ودعا من الله المباركة في استعماله.

- هل تعرف مطعماً شرقياً مناسباً لتناول الفطور؟

سأله أيهم فاصطحبنا الى مطعم صغير لعراقي كردي يجيد الصنعة، جلسنا معاً على مائدة فطور، توالت طوالها الأسئلة آخرها سؤالاً عن المستشفى الخاص بأورام الدماغ؟

أشار بتعاطف واضح الى جهة الشمال، والى مسافة مشي بالشارع ذاته لعشرين دقيقة، ستكون عندها المستشفى شاخصة، بناية بعشرة طوابق ذات لون أبيض.

.....

بناية المستشفى على الناصية، هي الأضخم، بين بنايات مجاورة، كما هو الوصف الذي وصفه الجزائري، دخلتها بتوجس واضح، كمن يتخبط في ليل حالك الظلمة، أسأل الماشين مرة، وأتابع العلامات الموشحة بالضياء الأبيض مرة أخرى، حتى الطابق السادس، قسم الأورام الدماغية. فَتشتْ عاملة استعلاماته في حاسوب أمامها عن الراقدة وسن، طلبت لقباً وتاريخ الميلاد لتسهيل الدلالة، وحال استلامها التاورغى لقباً، أشارت الى الغرفة رقم سبعة، في آخر الممر. تقربتُ اليها بخطوات بطيئة وقد استبد بيَّ القلق، أفكاراً شتى ذات أبعاد سوداوية يصعب السيطرة عليها في الأمتار القليلة المتبقية، زادت من البطء، لكنها لم تعيق الوصول، وأخيراً طرقتُ الباب طرقتين خجلتين، خرجت إيڤا بعينين يملئهما الصمت، ووجه ظهرت عليه المعاناة على أشدها،

رحبت وكأنها وجدت من يخرجها من قعر بئر استسلمت فيه للحزن الكئيب، وأخذتني بالأحضان.

وقفنا معاً أمام السرير الذي ترقد عليه وسن، وأسلاك تمتد منها الى أجهزة ملأت الغرفة، تغط في نوم عميق، قالت إيڤا نوبة فقدان للوعي صارت تتكرر من يوم أمس، نتائج الفحوصات ورم كما قال الأخصائي العراقي في مستشفى الفاتح، أخذوا من وسطه في الأمس عينة، للتأكد من طبيعته.

كانت إيڤا ذابلة، محمرة العينين كأنها لم تنم، وعلى الرغم من مصيبتها، سألت عن حالنا، وكيفية الوصول الى المدينة، فكانت الإجابة تفصيلاً عن المركز، والقطار
والجامع، والبقاء في حال انتظار حتى نهاية القصة.

لم تؤيد الانتظار، فالعلاج قد يأخذ وقتاً ويطول، ترى في استمرار الوجود غير الشرعي في المدينة خطورة غير مبررة.

قلت دعينا ننتظر، والوجود في الجامع نسبياً أمين.

قطع الطبيب بدخوله الغرفة سير الحديث، سأل فأجابته إيڤا بثلاثة كلمات ألمانية، حوّلَ نظره اليّ وابتسم ابتسامة خفيفة، ثم توجه صوب وسن، أجرى فحوصاً تركزت على حركة العينين، سجل من بعدها ملاحظات، تكلم بضع كلمات ثم خرج.

حاولت إيڤا إيصال ما قاله مجاملة، ترجمته بكلمات حزينة من إنه لم يلمس تحسناً، ولا حل يراه ممكناً قبل ظهور نتائج التحليل، نصح عدم تعريضها الى الضوضاء.

حسم الطبيب بنصيحته القاطعة أمر الزيارة، زاد تشخيصه بعدم وجود تحسن، مقادير الإحساس اختناقاً بالألم، شعرت

لحظتها دفقة دوار شديد في رأسي وحزن، دفعتني الى التركيز على الأجهزة الرابطة كمن يتوسلها لإحداث التحسن، وضعتُ أصابعي الخمسة على جبهتها الندية، حركت خصل من شعرها، مسكت أطراف أصابع يدها، تحسستهم واحداً بعد الآخر كما كنت أفعل من قبل، نزلت دمعة من عينيها دون أن يرمش لها جفن.

سأحضر للزيارة عصراً، قلت وأكملت سأدعو لها في الصلوات الخمس.

لم يتغير الحال وقت العصر، ولا عند حلول المساء، بل على العكس ازداد الشعور بالفقدان. قلت في نفسي يا لها من خسارة.

فتحت عينيها بعد الزيارة المسائية، توهمتها تسأل، ثم عادت وأغمضتهما جزعاً، قالت إيڤا يخشى الأطباء تأثير الورم على خلايا الدماغ، وفقدان بعض القدرات ذات الصلة بالذكاء والذاكرة.

بكت عند هذا القول بغزارة دمع وصوت مكتوم، أخرجنا وقعه من الغرفة مشياً بنصف الوعي، كررتْ عبارة تريدها كما هي، أكثر من مرة، وأضافت لا تريد لها موتاً قبل موتها، إذ ليس لها في هذه الدنيا سواها.

كفكفت دموعها وبالكاد، تمالكت نفسها مؤكدة عدم جواز البكاء قريباً من سريرها، طاقة سلبية قد تزيد مصاعبها، وقد تؤخر الشفاء.

كان اليوم الثالث في هذه المدينة كما هو في اليومين السابقين، زيارتين للمستشفى، وكمون في الجامع ليلاً، أكدت إيڤا في آخر زيارة لهذا اليوم الثالث ظهور نتائج التحليل، ورماً حميداً.

صحتُ دون سيطرة مني على بوابة اللسان، حمداً لله، كم كنت قلقاً، ثم توجهتُ الى سرير ما زالت راقدة عليه بهيأتها السابقة، أسلاك تحيط بها ووجه زادت براءته طفولة في عمر الشباب.

فتحتْ عينيها استجابة الى رخامة الصوت.

مسكتُ يديها، قلتُ تشجعي، أنت قوية، حاولتْ النطق، فلم تخرج الكلمات من بين شفتيها الطريتين. حركتْ رأسها الثقيل قليلاً كنوع من الاستجابة، وربما من الملل ثم عاودت فقدان الوعي، وراحت في غيبوبة دون حراك.

في الطريق الى باب المستشفى قالت إيڤا، لقد قرر الأطباء إجراء عملية لرفع الورم بالساعة العاشرة يوم غد، لا يريدون التأخير فكلما كان مبكراً كان التأثير أقل على القدرات العقلية.

وقفتُ الى جانبها مودعاً، أعطيت رقم الهاتف النقال، للتواصل عند الحاجة، فعانقتني وقد بللت دموعها خديها الذابلتين.

.....

تشعب الحديث مع أيهم بعد غلق المسجد عند آخر صلاة، كان حديثاً في معظمه تأملات فرج وقرب العبور للفصل التالي من الرحلة، ووعد في أن تتم بعد إجراء وسن عمليتها في الغد. لم ينته الحديث بعد، رن جرس الهاتف النقال، كانت إيڤا، ترجو بصوت أثقله الحزن، تبكير الحضور باكراً قبل السابعة صباح الغد، لكي أحل مرافقاً، لأنها ستسافر غداً باكراً الى فينا، بقصد المراجعة الحتمية للسفارة الليبية، ولما وجدت صمتاً في الجانب الثاني، أكملت حديثها شرحاً مفصلاً، عن عدم تحويل المبلغ المتفق عليه

لأغراض العلاج، الى حسابات المستشفى التي اضطرت، تأجيل العملية الى حين استلامه.

شكت التأجيل، قالت سيزيد نسب فقدان القدرة العقلية، بينت صيغة العلاقة الطردية بين الوقت والضرر، أعادت الرجاء ثانية، للبقاء الى جانبها حتى العودة آخر النهار، وإنها قد أبلغت المستشفى بهذا الاجراء، واتفقت مع الطبيب أن يكون التأجيل الى بعد الغد، وقد حجز صالة العمليات حجزاً أولياً، يُنفذ عند تحويل المبلغ أصولياً.

كان البقاء في المستشفى فرصة للمتابعة عن قرب، وضعت كرسياً الى جانب السرير، أمْنَ الجلوس عليه سماع أنفاسها وهي تعلو وتهبط، فاقت من الغيبوبة مرتين، لم تتكلم، ولم تغير نومها، فتحت عينيها فقط، حركتها في جميع الاتجاهات كأنها تفتش عن حلم ضاع في الأرجاء وربما عن والدتها، لتعود الى سباتها عاجزة عن تحقيق الحلم وعن العثور على تلك الأشياء التي ضاعت من شبابها.

مع كل استفاقة لها أحس قوة تدفعني اليها، كلمتها في المرة الأولى عن شد الأزر، وفي المرة الثانية مسكت يديها، تحسست أصابعها بطريقة قرأت عنها في علم الطاقة لامتصاص الألم.

هكذا كان الحال جله جلوساً حتى الساعة الثامنة مساء، عادت إيقا وقد تملكها الحزن الشديد كمن فقد الأمل.

سألتها:

- لمَ هذا اليأس البادي عليك؟

انفجرت باكية، مع عبارة علقت على أطراف لسانها صارت ترددها بشكل متكرر، إنهم ليسوا بشراً.

- ماذا تقصدين؟

لقد وصلت السفارة، قصدت محاسبها، سألت عن المبلغ الذي يفترض تحويله الى المستشفى علاجاً على حساب الدولة، ففتح المحاسب درج مكتبه، أخرج إضبارة راجعها ورقة بعد أخرى، وكأنه لم يراجعها من قبل، وبعد اكماله المراجعة دار حوار معه، تبين تفاصيله أنه لا ينتمي الى فصيلة البشر، لقد رد ببرود على سؤال عن أسباب عدم التحويل بالقول:

- سنحول المبلغ كاملاً هذا اليوم، أين هي المشكلة؟

أجبته ان المشكلة تكمن في العملية التي يفترض عملها اليوم وقد الغيت، فكان رده عند سماع هذه الاجابة بوقع البرود ذاته (الله غالب، سيعملوها غدوه، أو بعد غدوه، هي الدنيا طارت).

ولما سألته وأنا أرتجف:

- هل تعلم أن أي تأخير في الوقت مقداره دقيقة، يعني فقدان جزء من القدرة العقلية.

قال بلهجة ذات بلادة، أنتم الخواجات نسيتم رب العالمين.

ختمت القول:

- كدت انفجر غيضاً من الداخل، لكني سيطرت على أعصابي عارفة أنه قادر على تأخير التحويل الى ما يشاء، ولم اخرج من غرفة مكتبه الا بعد الاتصال بالبنك، والتأكد من تحويل المبلغ.

.....

حبسنا الأنفاس بشدة حال أخذ وسن الى صالة العمليات، كانت كاتي، الأخت الأصغر لإيڤا، ثالثتنا في حبس الأنفاس قد وصلت أول الصباح.

ست ساعات انتظار في حسابات المواقف كانت هي الأصعب، قضيناها في اجترار أحاديث جلها أمل أثناء الجلوس في الغرفة، أو مشياً في الممر المجاور، لم يخرج طوالها أحد من صالة العمليات، حتى تجاوزت السادسة ربع ساعة. بعد دقيقة من حدود تجاوزها خرج الطبيب الجراح منهكاً، توجه صوبنا فسبقناه الى الغرفة، قال لقد أخذ الورم منها مأخذاً، نما خلال الأسبوع الأخير بطريقة غريبة، سبب تلفاً في بعض خلايا الدماغ، سيؤثر حتماً على التركيز والذاكرة، أكد على الذاكرة القديمة، ما يعني فقدانها كثير من المعلومات التي خزنتها طوال حياتها، وأكد كذلك حاجتها الى تدريب مكثف للتكيّف الى الحياة الجديدة، لا يوجد حسب علمه، دواءً لتعويض التلف حتى هذه اللحظة، لكن البحث العلمي لم يتوقف، قد يتوصل في المستقبل، ليس القريب من الآن.

ختم حديثه الطبي بتأكيد حاجتها ثلاثة أيام تبقى داخل المستشفى لالتئام جروحها، يمكنها الخروج بعدها الى بيت هادئ، ومن بعد أسبوع يمكنها البدء بالتدريب على يد أخصائيين، تدريباً مكثفاً لاستثارة ما بقي من معلومات، وخبرات في الخلايا الأقل ضرراً، وعد كتابة تقرير مفصل عن سبل التدريب المطلوبة.

توقف عن تقديم شرحه المفصل، وسأل:

- هل في ليبيا مدربون مختصون بهذه المهمة؟

ردت إيڤا بلهجة تهكم:

- لو امتلكت ثقافة اختصاص فنية، لما وصل الحال الى ما وصلت اليه وسن.

هز الطبيب رأسه ، وغادر بعد التأكيد على معاودة المعاينة بعد خروجها من العناية المركزة في حدود الساعة.

عُدنا الثلاثة الى اجترار الحديث، ننتظر انتهاء الساعة، وقد تلبسنا الحزن من فقدان الأمل. كانت أحاديث إيڤا طوال هذه الساعة ندماً عن شباب استنزفته في طرابلس، وكيف دفنت نفسها هناك في مقابر الأحياء.

- ما قرارك بعد اليوم؟

سألتها كاتي، فأجابت بإصرار: أنها سوف لن تعود الى طرابلس، ستصطحب وسن الى هامبورغ حيث تمنت العيش في ربوعها، والدراسة في جامعتها، ستضعها بين الألمان نصفها الثاني، وستحاول هي العودة الى التدريس في الجامعة، والأهم إيجاد مركز لإعادة تأهيل وسن عساها تعويض ما يمكن تعويضه.

- ماذا بشأنك أنت؟

التفتت اليّ لتسأل.

أجبتها، سأحرص على اكمال الجزء الخاص بيَّ من الاتفاق، أوله محاولة الوصول الى ألمانيا، ثم دراسة الهندسة بطبيعة الحال، والانتظار عسى أن يعيد التأهيل بعض من المياه الى مجاريها، وعساي المشاركة في بعض جوانبه، وإن استمر عشرات السنين.

أفاقت وسن من التخدير بعد انتهاء الساعة، كانت مشوشة التفكير، تفاجأت من هذه الوجود في الغرفة، لم تعد تميز بالقدر الكافي، سألت:

- أين أنا ومن هو هذا الغريب؟

أجلت إيڤا الإجابة، وتوقفتُ من جانبي عن أي محاولة للإجابة، وتوجهت الى العزلة، أستذكر تشخيص الطبيب بعد العملية من إنها سوف لن تعود الى حالتها الطبيعية.

انتظمتْ الزيارات في اليوم التالي، ويومين من بعده، تحسنت تحسناً ملحوظاً في قدراتها الحركية، والتأم الجرح، وعادت نتف من ذاكرتها القديمة.

بعض اللقطات صارت تظهر على السطح الممسوح، ضبابية غير واضحة لا تنفع في إعادة المشاعر، وصار مزاجها أقرب الى الاكتئاب منه الى المرح، والى العدائية في النظر الى الآخرين أكثر من الانبساط، باستثناء العلاقة مع والدتها التي زادت تشبثاً بوجودها في القريب، وكأن نكوصاً قد حصل في المشاعر الى سني الطفولة.

غداً ستترك المستشفى قالت إيڤا، ستتوجه أولاً الِي ميونخ مع كاتي الى منزلها في أطراف المدينة، تستريح يوماً أو يومين بانتظار وصول الزوج، ثم يطيرون من بعد وصوله الى هامبورغ، يسكنون مؤقتاً في بيت الأسرة، حتى يجدوا لها سكناً آخراً، والى حين يتخذ قراره في طلب التقاعد من عمادة الكلية كما وعد، أما عن نفسها وعن وسن، أكدت ثانية استحالة العودة الى طرابلس.

حالة من اليأس مخلوط بقليل من الأمل، قد تملكت المشاعر طوال التفصيل الجاري لقرار البقاء، فقلت سنترك المدينة في الغد نحن أيضاً، نتوجه صوب الحدود مشياً، أحضرت خريطة مؤشر عليها طرقاً نيسمية، بين المزارع والحقول، سنسلك الطريق الخامس حتى الدخول الى ألمانيا، ومن بعدها نتوجه الى أقرب مركز شرطة، نسلم أنفسنا، كي نبدأ مشوارنا الثالث.

لو كانت وسن شريكة في القرار، لما وافقت على تنفيذه، قالت إيڤا، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة لا تخلو من مظاهر الحزن، وأكملت، كونها الوصية عليها في حالتها العاجزة عن اتخاذ قرار، فإنها لن توافق على اتباع هذا الطريق، لأنه طريق لا يمكن أن يكون آمناً، ومن غير المعقول الموافقة على سلوك فيه، ولو قليل من الخطر.

أخذتْ نفساً عميقاً وعادت الى الحديث، مطالبة بالبقاء في المستشفى الى تمام الساعة التاسعة صباحاً، الوقت الذي ستصل فيه كاتي بالسيارة لتنقل وسن الى بيتها، وتستأجر سيارة لتنقلنا نحن الثلاثة، نتبع سيارتها حتى ميونخ، ومن هناك يتم اكمال المشاور الثالث، لضمان عدم العودة الى النمسا ثانية.

قالت عنه الحل الأمثل، أدركتُ حينها انها تتصرف بدافع اموي خالص.

.....

لا حاجة الى سيارة أجرة نأخذها لعبور الحدود، قالت إيڤا حال الوصول الى المستشفى وحقائبنا معلقة على ظهورنا، وأضافت،

أنها حصلت على موافقة خاصة لنقل وسن في سيارة إسعاف من المستشفى الى بيت كاتي في ميونخ، ستكون هي معها، وأشرت الينا الاثنان مع كاتي في سيارتها، التي وصلت في التو، شابة في الأربعين، مليئة بالتفاؤل والحيوية، تحركت خلف سيارة الإسعاف نشطة، أصدرت أمراً طارئاً باللغة الإنجليزية الى أيهم ليمد جذعه الطويل على مقعد السيارة الخلفي، وكأنها تعرف تفاصيل القصة، ونوايا اللجوء والهجرة، وكي تعطي الأجواء قدراً من التفاؤل لتخفيف التوتر، أكملت أمرها السابق بأمر لاحق ضرورة تمثيل دور النائم حتى الوصول الى البيت.

سألتها عن السبب إشباعاً لغريزة حب الاطلاع.

أجابت بلهجة فيها مرح خاص بغية إبعاد الشبهة، ثم أكملت بالتفصيل:

- لتفادي اقتراب الشرطة من روائح يشمونها عن بعد.
- ألا تعلمون أن أمر مرافقتكما لي في سيارتي شابان تصغراني بالعمر كثيراً، وتختلفان عني بالشكل يمكن أن يجلب الشك، والشرطة الألمانية ذكية شكاكة، وغرامة نقل اللاجئين عالية جداً، قد يصاحبها سجن.

ضحكت مستدركة، قالت ومع هذا فلا تقلقوا لقد حسبت كل شيء، وإن أوقفني شرطي وسأل، سأقول وجدتهما واقفان على قارعة الطريق، وقد أعجبت بشكلهما كوني مغرمة بالأشكال الشرقية. أعادت ضحكتها بوسامة ثم سارت خلف سيارة الإسعاف ملتزمة بالسرعة المحددة، مائة كيلومتراً في الساعة، حتى التحويلة الأولى الى طريق سريع، قالت مبتهجة والآن مرحباً بكم في ألمانيا.

- أين علامات الحدود والمباني الرسمية؟

أجابت بتهكم واضح، لا توجد علامات حدود بين الدول الأوربية، وما بقيَّ من مبان عندها، لم تعد تستخدم للجمارك والجوازات، أبناء هذا الجيل يستدلون على الحدود من تبدل إشارة الهاتف النقال:

- هل معكم هاتف نقال؟

لما تأكدت من وجود الهاتف النقال، طلبت التدقق في الشبكة التي ستكون قد تحولت الى الألمانية.

انفتح الطريق داخل ألمانيا رحباً، لم تحدد سرعة القيادة على سطوحه المستوية جيداً، ضغطت على دواسة الوقود بقوة، نهضت سيارتها الرياضية المرسيدس من مكانها وكأنها تقفز، تجاوزت سرعتها في ثوان مائة وثمانين كيلومتراً في الساعة، نظرت الى التعجب البادي على وجهي، قالت أنها تسلك هذا الطريق السريع بين الحين والحين، كي تسير أسرع من سرعتها الحالية، لأنها تهوى القيادة بالسرع العالية، تتمتع بالتوتر الذي يكوّنه ارتفاع الادرينالين، مع ارتفاع عداد السرعة.

أخرجت هاتفها النقال وما زال عداد السرعة عند مستواه عالياً، تكلمت بالألمانية بعض عبارات، ختمت الحديث بكلمة تانكشن (شكراً)، وللمجاملة عادت تفسر اتصالها بمطعم أوصت عامله غداءً لسبعة أشخاص، من بعده قالت، أنها رتبت دعوة في البيت على الغداء ترحيباً، ومن بعده يمكن الذهاب الى المكان المطلوب، مشيرة الى أنها تعرف طباع الشرقيين، لأنها أحبت في مطلع شبابها شاباً شرقياً من بغداد.

عشرون دقيقة فَصلَتْ وصولنا بسيارة كاتي، عن وصول الإسعاف بعدتها كاملة.

نزلت وسن ذابلة، مترددة، تقدمتُ لمساعدتها، تمنعتْ في البداية، كأنها تراني أول مرة، طمأنتها إيڤا واستمرت تشرح لها بعض تفاصيل عن زوج خالتها الذي تقدم نحوها مقبلاً خديها، وعن ابنة خالتها الصبية والبيت في أطراف مدينة ميونخ، وحديقته الغناء بمساحة تزيد عن الألف متر.

دخل الجمع صالة غير مزدحمة بالفرش، فحرارة الجو كانت منخفضة.

وصل الطلب وجبة غداء حارة يغلب عليها السمك المقلي والبطاطا، فتشاركت كاتي زوجها ترتيب المائدة، لاحظت السكوت بعد تناول الحصة في الوجبة كاملة.

قالت بمرح اعتادته بطبعها، أنها تحس القلق واضحاً على الوجوه.

ردت إيڤا: لهم الحق يريدون حسم موضوعهم، لقد تأخروا كثيراً، أرى ضرورة حسمه بالتوجه الى مركز الشرطة هذا اليوم، فطلبت كاتي وقتاً للتأكد من المكان الأنسب للتسليم، قالت لكل ولاية ألمانية، إجراءاتها في موضوع اللجوء، لا بُدَّ من التأكد منها، ونهضت من مكانها، سحبت من على الطاولة القريبة حاسوبها اللوحي، وضعته على ركبتيها، بدأت تفتش في الشبكة العنكبوتية، قالت عن ميونخ إجراءاتها معقدة، وقراراتها تتأخر.

هامبورغ هي الأنسب لنا وهي محطتنا الأخيرة، قلت، فراحت تفتش ثانية، أشارت الى أن التسليم على أرضها، يفضي الى توزيع

خارجها، والى جهة ألمانيا الشرقية على وجه الخصوص، والشرقية في هذا الوقت تعاني بعض أنشطة عنصرية نازية، وفرص عمل قليلة.

تجاوزت هامبورغ واستمرت تفتش في مقاطعات أخرى، استقرت عند مقاطعة كولونيا، قالت هي الأحسن بالنسبة الى السرعة في اتخاذ القرار، وتوزيعها يتم عادة على مدنها، الهادئة بعض الشيء.

أيد زوجها الرأي، قال انها مقاطعة جميلة أهلها طيبون، تعيش وسطها أقليات من أقوام عدة. هناك قطار سريع من ميونخ اليها، داخلي ركوبه لا يثير الاستغراب، ولا يسبب أية مشكلة، تعهد إيصالنا الى المحطة، والمرافقة حتى ركوب القطار.

تقدمتُ من إيڤا احتضنتها كمن يحتضن أم، كانت طوال مدة تعرفي اليهم قريبة من الوجدان، قالت رقم الهاتف عندي لا تنقطع عن التواصل، ستكون موجودة، ومستعدة لأي طلب، وستحرص على تذكير وسن قصة حب لن تنسى.

تقدمتُ من وسن حذراً في وداعها، وقف من حولي الآخرون في مشهد مثير، تمنعتْ كذلك، وكأن نصفها الشرقي قد تحرك حياءً، على الرغم من تواجدها مع نصفها الغربي بانسجام.

.....

(١٣)

نزلنا من القطار في محطة كولونيا نتلفت، كانت وتيرة القلق قد هبطت الى أدنى حد، فنحن الان في المانيا ولا احد يستطيع ان يعيدنا الى حضيرة الأغنام، كنت أسمع وقع أقدامي وهي تطأ أرضاً جديدة وكانت الأشجار المتناسقة بانتظام على جانبي الشارع النظيف مع قليل من المارة تبعث على الارتياح، وكانت درجات الحرارة قد انخفضت الى ما دون الصفر، لاح في الواجهة شرطي بملابسه الرسمية، يسير على مهل في نفس الاتجاه الذي كنا عليه، اصطففت الى جانبه واثقاً والى جواري أيهم داعماً للمعنويات.

رد بصوت خشن، وكلمة واحدة (هلو) على التحية التي ألقيتها.

قلت نزلنا من شاحنة نجهل سائقها طالبين اللجوء.

لم يتفاعل بالقدر الذي تأملته.

أعدت الجملة مرة أخرى، بوقع أبطأ، تخيلته لم يفهم لغتي الإنجليزية الواضحة، فأخرج من جيب سترته خريطة مفصلة لكامل المدينة، أشر على شارع يمتد طولاً الى الضفة القريبة لنهر الراين، والى ثلاثة بواخر ترسو على الحافة، قال هي المركز المختص باللاجئين.

درجنا باتجاهها نضحك دون سبب، ربما لسهولة وصولنا خط النهاية.

بان النهر حسب وصف الشرطي بعد نصف ساعة من السير الحثيث، والبواخر الثلاث تتقدمهما ساحة مفتوحة. كانت الباخرة الوسطى هي الأكبر، علقت على دفتها قطعة تحمل اسم المركز،

متطابقة مع وصف الشرطي تماماً.

أعدنا الشريط اللفظي، نزولاً من الشاحنة وسائقها المجهول، أمام موظفة شابة تجلس حول طاولة وضعت في صالة الاستعلامات، فَتحَت حال سماعها القصة ودون نقاش يذكر حاسوباً، سجلتْ بيانات الاسم والتولد والدولة، وطلبت اتباع خطواتها الى الباخرة الراسية الى اليسار، وغرفة وضع على بابها الحديدية الرقم ثلاثة بارزاً، سبقتنا في الدخول اليها بهدوء، أشرت على سريرين متجاورين، تبين في الصباح أن شاغلي الأسرة في هذه الغرفة، أفغانيان وإيراني، وكرديان عراقيان يصران أصلهما كردستان، ومصري يؤكد إنه عراقي من محلة المربعة، وسوري من القامشلي يجيد اللهجة العراقية الغربية.

ثلاثة أيام انقضت هي المدة المقننة للبقاء إقامة مؤقتة في الباخرة، غير مسموح فيها الخروج من هياكلها الحديدية والساحة المقابلة، في صباح اليوم الرابع توقفت على أرض تلك الساحة حافلتان، جمعتنا كل النزلاء سارتا بنا خمس ساعات باتجاه الجنوب، رست الأولى عند مدينة تريير (Trier)، قريباً من دوقية لوكسمبورغ، مثلث الحدود الألمانية الفرنسية البلجيكية. ترجلنا عند إشارة السائق، أنها المحطة الأخيرة.

أجلتُ النظر في موقع الوقوف للتفحص، من طبعي التدقيق في كل الأشياء، بدى لي ترتيبه هو الآخر ثكنة عسكرية، هجرها أصحابها منذ أمد بعيد، إثر الخسارة المفزعة للحرب، حولتها الحكومة المحلية مركز إيواء لمن يقصدها لاجئاً، سألت عن قصص المعسكرات التي تحولت مراكز إيواء في الدولتين اللتين

مررت بهما فلم أجد إجابة.

وزعَ الموظف جميع القادمين على العنابر، فاكتمل ملاك العنبر السادس، عشرة أسرة، قرأ التعليمات العامة، ترجمها تونسي الى العربية، وزع ملابس داخلية، ومعجون أسنان، وصابون ومناشف، أكد حق التجوال في المدينة مشروطاً بحمل ورقة تعريف خاصة.

قال حال تسليمه الورقة، والى جانبه المترجم التونسي، سترونها مدينة تنتصب على تل يكسبها جمالاً وهيبة، ومبان تمتد أعمارها مئات السنين، حددها المؤرخون هي الأقدم بين المدن الألمانية، الشاخصة الى هذا اليوم.

عدّل من وقفته بعد تيقنه حسن الاصغاء، أضاف الى أن تاريخها يعود الى الرومان الذين، تركوا قلاع وكنائس وقصور، شاهداً حياً على حضارة لها الفضل، في إعطاء المدينة وجها سياحياً.

استرسل في الكلام وكأنه عالم آثار، قال عنها مدينة كانت في القرن الرابع مركزاً للمسيحية شمال الألب، أشار من مكانه الى كنيسة يزيد عمرها عن الألف عام، تطرق الى حمامات كانت جزءاً من الحياة الرومانية، أوصى في نهاية الحديث ضرورة المشاهدة، وأوصى تخصيص يوماً لكل معلم. فكان له ذلك، وكان الالتزام بتوصياته حرفياً. توقف عن منح الورقة في اليوم السادس، قال موجها كلامه لي وأيهم، لا يمكنكم وثلاثة آخرون الخروج هذا اليوم، ستعقد المحكمة جلستها في الساعة العاشرة صباحاً، لا بد من التهيؤ لها... إنها مسألة ملزمة.

.....

- لِمَ توقفت عن الكلام هكذا كمن أصيب بصعقة كهربائية؟

سأل الرجل المشرف والتونسي يترجم حرفياً، فتنبهت الى نفسي ساكتاً، كمن يعيد التوازن المفقود أوقات الصدمة، فأجبت هكذا أنا لا أحب المحاكم، أدركتُ منذ النشأة أن طبعها قاسٍ، وقضاتها منتمون الى الحزب الحاكم يأتمرون بأمره، يحكمون إعداماً لمن يحكي طرفة، وسجناً مؤبداً لمن ينتقد الحزب وأبناء الرئيس.

- هل يعقل هذا؟
- بل يعقل وأكثر.

سكتُ من بعد الإجابة المختصرة برهة، وكأن في حلقيَّ غصة، وأكملت أن أساليب الإدارة، وعبثية الحروب وفتك الحصار، دفعت بنا أبناء هذا الجيل، وتلك الأجيال التي سبقت، الى التعايش مع الخوف، وعدم الاطمئنان الى المحاكم والحكام، والى ترك البلاد، والتفتيش بين الأصقاع عن وطن بديل لا نخاف الحاكم فيه، ولا المحاكم.

ضحك بسخرية قوية، قال حاكمكم والمحاكم والأحزاب خارج هذا الزمن، ومحاكمنا هنا غير محاكمكم هناك، والقضاة غير القضاة، سترون الفرق شاسعاً بعد قليل.

عقدت المحكمة جلستها في هدوء، ذكرني بصخب المحكمة الطرابلسية. قلبَّ موظف في بابها أوراقاً بحوزته، أومأ عند اكتمال الساعة العاشرة، إيماءة الدخول، لا أنكر لحظة دخولي بقايا الخوف من تلك المحكمة، ضربات القلب تصاعدت بشدة، أضحت مسموعة، وكأني قد عدت الى لحظات نطق عبد العاطي حكمه بالسجن شهرين.

أخذتني نظرة سريعة الى جوانب غرفة المحكمة ومن فيها والأثاث، وجدتها بسيطة غير تلك المحكمة، ووجدت قاض غزا الشيب مفرقيه، يجلس مبتسماً خلف طاولة مكتب بسيطة من الخشب الصاج، ليس له شبه بالقاضي عبد العاطي، وامرأة تجلس الى يمينه، أنيقة المظهر، بين يديها حاسوباً لوحياً، أضفتْ قدراً من الاطمئنان على أجواء المحكمة، والى اليسار مترجماً هو التونسي، اكتملت بوجوده المحكمة.

هدأ الروع، عاد القلب الى وضعه الطبيعي، وأعلن القاضي بدء الجلسة تأكيداً على الاسم والعمر والأصل، ثم طلب إثباتات هوية، كان الاثبات الذي رافق الرحلة اعتزازاً، هوية طالب في كلية الهندسة، كانت الورقة الثبوتية الوحيدة التي امتلكها، أومأ برأسه دلالة على قبولها وسأل عن أصل القصة، فجاء الجواب إيجازاً:

كنت طالباً ألتقي مع مجموعة تؤمن علناً بالحرية، تتعاطف مع دعاوى الحياة الأفضل، داهمت سلطات الأمن صفوف دراستنا أول النهار، اعتقلت واحداً من المجموعة هو الأقرب اليّ، فدخلت في دوامة خوف دفعت بي وآخرين الى ترك الدراسة، والهروب الى خارج البلاد خشية الاعتقال، وهناك
تواصلت مع جهة سياسية معارضة.

- هل لديك اثباتات؟
- في جعبتي أقراص مدمجة لنشاط تلك الجهة، مقرها لندن.

شاهدها من بعيد، اكتفى بتسجيلها، تكلم مع المترجم، مشيراً الانتقال الى غرفة مجاورة.

الغرفة المجاورة خبير لهجات، بدت هيأته، ولهجته عراقية بغدادية.

سأل أولاً عن آخر سكن، فذكرت بغداد، الأعظمية.

قال سأعرض بعض كلمات، كررها من بعدي، واعطي لها معنى:

الباچة: أكلة من رأس الخراف وكراعها.

البستوگة: إناء من الفخار، لحفظ الزيت والمخللات.

جلافيط: فضلات اللحم من الدهون والغضاريف.

چفص: أخطأ.

ملأ نموذجاً وضع عليه توقيعه، ذهب به الى القاضي، عاد مشيراً لزوم الذهاب الى غرفة ثالثة لأخذ طبع الأصابع.

جاء دور الشاب المصري بدعواه، بغدادي من المربعة، لم يصمد طويلاً أمام خبير اللهجات الذي أمطره بكلمات تناهى الى السمع منها:

(چيچان چان چايچي. حنقباز. خرنگعي).

خرج من غرفة الخبير، يكلم نفسه، عبارة مصرية: (إيه ده).

.....

يوم المحكمة كان مميزاً، أنهى إضطراب الخوف في النفس الحائرة، وأثار بدلاً عنه قدراً من الثقة والاطمئنان، ودفعني الى العودة الى العنبر، حيث الاصطفاف المحتوم لزملاء ينتظرون تفاصيل وقائعها.

تعوّدَ نزلاء العنبر العائدون من المحكمة، مثلهم مثل القابعون في السجون، قص تفاصيل محاكمتهم، وَصفَ ردود فعل القاضي،

وأخصائي اللهجات، وتعوّدَ المنتظرون التقاط كل التفاصيل، لبناء قصص لهم تعينهم عبور العتبة الأهم في طريق اللجوء.

في المقابل يميل العائدون الى ذكر التفاصيل، وكأنها عبئاً نفسياً يريدون التخلص منه، وطي صفحته الى الأبد، وبالمحصلة يحكي الجميع قصصهم، يعيدون فيها ويصقلون.

عاد السوداني جار الله، من المحكمة منكفئاً على ذاته مغتاظاً، قال لا فائدة، لم يصدق القاضي قصته. سألته:

- ما قصتك التي لا تصدق؟

قال أسكنه الحظ منطقة، ثم عدل قوله، لا لقد أسكن الحظ أسامة بن لادن، زعيم تنظيم القاعدة منطقته يوم وصوله الخرطوم عام (١٩٩١)، فاشتغل عن طريق معارف في الحي محاسباً في شركته وادي العقيق كان قد أسسها يوم وصوله، سرعان ما تسلق سلمها الوظيفي في سنة واحدة مدير حسابات، موثوقاً به مقرباً للزعيم، صار يوفده لمهام متابعة أموال بطرائق استهوته بداية، لكنها أثارت ريبته نهاية الأمر.

كانت معظم الإيفادات الى أفغانستان، يقضي الوقت طوالها مع أفراد قبائل في القرى، وبين الجبال، شهور وشهور يتابع وصول تلك الأموال، الى رؤساء قبائل وجماعات مسلحة وسياسيين، يعود من بعدها الى السودان عن طريق الباكستان.

حال الوصول الى الخرطوم من آخر سفرة قابل أسامة لتقديم استقالته، أخبره أن ما عمل في مجاله لثلاث سنوات عالماً ليس عالمه.

رد أسامه بغضب، أنه قد اطلع على معلومات تعرض الشركة الى الخطر، فلا مجال للاستقالة.

شكى الأمر الى جار له في جهاز المخابرات، زوده بتفاصيل الأموال المنقولة، وحركتها في عدة بلدان بينها العراق وسوريا والباكستان، وانتهاءً في أفغانستان، تعرض بعد شهر من الشكوى الى محاولة اغتيال قريباً من الدار التي تسكنها العائلة إرثاً لأجداده.

ألزمته المحاولة ترك مدينته الخرطوم، والتوجه الى إقليم دارفور، قضى فيها سنة متخفياً، شعر في شهرها الأخير متابعة لوجوده، فحزم أمره ليلاً، ركب الصحراء، متوجهاً الى ليبيا، في طريق مليء بالجوع، والعطش وحر الصحراء، ومن بعدها عبر البحر مع آخرين في قارب متهالك، غرق قبالة السواحل الإيطالية التي وصلها مستعيناً بنجادة، أعانه الحظ إذ لم يصل من ركاب القارب سواه وعراقيان، ودفعه هذا الحظ الذي قال عنه عاثر في نهاية المطاف الى هذا الكامب، من قبل سنتين، أكسبه الزمن، وكثر المارين على عنابره قدرة تأليف قصص لمن يأتي حديثاً، يقبلها القاضي، الا قصته هو وان كانت حقيقية لم يصدقها هذا اليوم ولم يقبل بتفاصيلها، إذ سأل مجموعة أسئلة، توحي، وكأنه اتهام بوجود علاقة له مع القاعدة، وأسامة بن لادن.

علق أخيراً، إنها مصيبة أو لعنة حلّتْ، وكأنها تطارده أينما يكون، على الرغم من أنه سلك طوال هذه السنة سلوكاً مخالفاً للشريعة الإسلامية ولطبعه في السودان، صار مدمناً على الحشيش، بائعاً له، زبوناً دائماً لنوادي القمار، وأماكن الدعارة، رفيقاً لبنات الليل، ومع هذا لم تنفع جميعها في إقناع القاضي ابتعاده عن الإرهاب

الذي اسماه إسلامياً، لم يبق له خياراً في حال الإصرار على هذه العلاقة غير الموجودة سوى، الردة عن دين الإسلام واعتناق المسيحية.

أخذ نفساً من لفافة حشيش، ثم أكد أنه سيفعلها ان تطلب الأمر، عساها تنفع في التخلص من تلك اللعنة، ومن ألم يقض المضاجع طوال الوقت.

ضحك دلاور الكردستاني، بدا وجهه باهتاً جداً، يعبر عن معاناة حقيقية، خاطب السوداني بعربية تكثر فيها أخطاء التذكير والتأنيث من أن ألمه قد ينتهي يوماً حال تداعي أركان الاتهام في العلاقة مع المنظمات الإرهابية، بينما الألم الذي في داخله هو قد تسبب له عاهة نفسية مستديمة لا تنتهي.

التفتنا صوبه نحن الجالسين قريباً منه، كمن يسأل عن طبيعة الألم وماهية العاهة، قال وقد نهض من سريره، أن مهرباً تركياً وقحاً سلمه الى مهربٍ يوناني جشع، أوقفه عند شاحنة بضائع مبردة (تريلر)، أكد حاجة السائق واحداً، لاكتمال الحمولة خمسة، يعبرُ بهم الأراضي اليونانية البلغارية الى المانيا.

حسم السعر بل جدال ثلاثمائة دولار، وقبل استلامه المبلغ، أكد إنها وسيلة عبور صعبة، تحتاج الى جرأة عالية وقوة تحمل، لكنها الأرخص من بين وسائل، أخرى ليست متاحة في ذلك الوقت.

لقد أثار المهرب في داخله المباهاة بالقوة، ودفعه عدم امتلاك ما يكفي من النقود الى القول بعزيمة المؤمن لنتكل على الله، وتقدم متحدياً سلم المبلغ، واستسلم الى سائق تفوح من ملابسه رائحة

العرق الجاف، وبقايا كحول. سار الى جانبه طوعاً كناج من الغرق يتملكه الرعب، أدخله تحت الشاحنة، فتح مشبكاً من حديد على شكل قفص مستطيل، يقترب طوله من تابوت في القياس الشرعي، مثبت بين ضلعي الهيكل الحديدي للشاحنة، كان هو الأخير ومن قبله أربعة مشبكات مثبتة بالطريقة ذاتها، مشغولة جميعها، تبعد عن الأرض بحدود المتر، مد جسده المطاوع في الداخل على البطن، أكد له السائق عن طريق الإشارة ضرورة بقاء الوجه نحو الأسفل، فهم منه كي لا يخنقه القيئ، وأغلق بابه من عند القدمين، ثم سار باتجاه المقصورة منتشياً باكتمال العدد.

شعر حال تحرك الشاحنة كأنه مدفوع الى الموت، اذ كلما زادت السرعة، يحس اقتراب الأرض ودنو الموت.

عاد الى وضع الجلوس على سريره، قال وقد بلغ ذروة الألم، لما نظر في حينه الى تلك الأرض المسرعة، أغمض عينيه رعباً، وعاد بالنظر ثانية وثالثة، كمن يعاقب ذاته بوخز مئات الأبر، فزاد الإحساس في داخله اقتراب الأرض من رأسه مسافة إصبع لا غير، وصار يتخيل احتمالات ارتطامه بسطحها المسنن في أي لحظة، ولما استقرت السيارة في سرعتها فقد الإحساس بالمسافة والزمن، وحل في داخله الوهم، تقيأ أول مرة حتى فرغت معدته، ثم تقيأ من بعدها مرة، ومرة أخرى، كانت جميعها مجرد تقلص لعضلات المعدة، وآهات غير مسيطر عليها، كاد يغمى عليّه بعد أول تجربة قيء، قاوم جهد ما يملك من قوة، الا انه بالنتيجة فقدها، وبات لا يحس ما يدور من حوله، كأنه يسمع صراخ الاسفلت ويرى جريان الأرض من تحته حمم براكين.

أربع وعشرون ساعة هي الرحلة لجسد مسجى في تابوت، لا حركة داخلة سوى لعينان تدمعان ندماً، وشفتان بفم يفتح ويغلق تلقائياً، يتقيأ الهواء، ويصرخ مؤازرة للعينين على الندم.
توقف السائق بعد انقضائها، سحبه من القدمين، اللتين طاوعتاه دون سيطرة منه، لم يقويان على حمله بعد التحرر من سطوة التابوت، مَدَهُما وباقي الجسد على أرض معشوشبة تجاور رصيف الطريق، حاول تجميع أفكاره المشوشة، والتخلص من أزيز الأرض الذي كان قد ملأ عقله، هكذا بقيَّ مستلقياً والأربعة الآخرين وقتاً لا يتذكر مقداره.

قال زميل لهم بغدادي تابوته الأول، كان قد تمالك نفسه، تلك قطعة تدل على مدينة، أو منطقة تهجى كلماتها آسفارت (Ausfahrt) لابد من التوجه صوبها، للتأكد انها مكاناً ألمانياً، ساروا الخمسة على هديّه، تبين أنها اشارة خروج من الطريق، أوصلتهم مشياً الى منطقة خدمية، كانت فعلاً ألمانية.

قبل ختام دلاور حكايته تذكر ملحقاً لها وقال بلهجة ذات دلالة فيها وجع، أن الازيز ما زال يملأ أماكن في عقله، وما زالت الكوابيس عن شاحنة تدهسه تهاجمه كل ليلة، لا يعتقد أنه سيتخلص من ألمها أبداً.

اسبوعان مرا على المحكمة أنهت قلق الانتظار، وتحليلات تبدأ في العادة رجماً بالغيب، طوال ساعات السمر الليلية، حضر صباح اليوم الأول من الأسبوع الثالث موظفاً مخولاً يحمل أوراقاً، بدأ المناداة أسماءً متسلسلة، طلب التوجه الى حافلتين وقفتا قبل قليل، جاء اسمي مع آخرين في الحافلة الأولى، وجاء أيهم في

الثانية، وبقيَّ جار الله السوداني في مكانه يتأمل ساعة الارتداد تحولاً الى الدين المسيحي، نظر الينا بإمعان، ابتسم مودعاً، قال بمهابة انتم لستم أول من ودعت، وسوف لن تكونوا الأخيرين.

.....

سارت الحافلتان خلف بعضهما، ساعتان متواصلتان على طريق سريع، افترقتا عند دوار كل في طريق ريفي، تحيط به أشجار وحقول. رست الأولى آمنة عند قرية (بروخملباخ) (Bruchmühlbach) في مدينة عند الجنوب الغربي لألمانيا بمحاذات الحدود الفرنسية، ورست الثانية عند قرية أخرى تبعد عنها، وقتاً يقترب من الساعتين بالسيارة.

أطفأ السائق محرك حافلته، عند بناية بأربعة طوابق، في كل طابق أربع غرف، بتصميم جعل الواحدة أشبه بالمعزولة، وجعل واحدنا عند التوزيع عليها يشعر بآدميته والخصوصية أول مرة.

تجمع الآتون عند الصالة الرئيسة في الطابق الأرضي، بعد إيداع حوائجهم في الغرف المخصصة، وزعت المشرفة نقداً بالعملة السائدة آنذاك ثمانون ماركاً، قالت هو الراتب الشهري، كان ذاك الراتب الأول على قلته، قيمة لا تقدر بثمن، تلمستهُ أوراقاً اكسبتني شعوراً بالاطمئنان، وتوقع الاقتراب من تحقيق الهدف.

رحبت ثانية بطريقة مليئة بالود والاحترام، تمنت ومساعدها سرعة الاندماج بالمجتمع الألماني. قالت بكل عطف عن أهل المنطقة طيبون، أصولهم مزارعون، تحمل قريتهم معنى الريف الألماني الجميل، بيوت متباعدة تحيط بها حقول ذرة وبعض مسقفات، ومزارع، وأبقار ترعى طليقة وأغنام، يمر وسطها قطار

له محطة تحمل اسم القرية، يتوقف كل نصف ساعة رواحاً ومثلها في المجيء.

أبطأت في الكلام وكأن فكرة جديدة وردتها، من أن البقاء في هذه القرية النموذجية سيكون مستمراً حتى ظهور الموافقة على طلب اللجوء، تمنت الاستعداد لبدء حياة جديدة، مواطنون لهم حقوق الألمان.

تذكرتُ أيهم، وافتراق حصل أول مرة، بعد الابتعاد القسري أيام السجن في ليبيا الجماهيرية العظمى، فشعرت قدراً من الوحشة، رفضتْ المشرفة اقتراح قدمته ودياً لانتقاله الى قريتها الهادئة، اعتذرت بلطف لمحدودية العدد، قَدَمتْ اقتراحاً مقابلاً إجراء زيارة لقريته بين الحين والحين، حتى القبول النفسي لفكرة الافتراق، أعطتني خريطة للمنطقة مؤشر عليها موقع تلك القرية، وباص يحمل الرقم (٧٣) يقصدها من مركز المدينة، وقرى أخرى في الاتجاه نفسه؛جج، يصلها بعد ساعتين من التجوال الهادئ، فكان اليوم الثالث موعداً لأخذ القطار الى مركز المدينة في ساعات الصباح الأولى، ومنه صعوداً الى الباص المذكور.

كان الباص خالياً من الركاب، الا ثلاثة يبدو متقاعدين، جلسوا على كراس متفرقة، وجلست رابعهم على كرسي هو الأول من الجانب الأيمن، تحرك في الوقت المحدد له الساعة التاسعة صباحاً، تجول بين حقول لعباد الشمس، تشتعل زهورها بالصفرة النقية، ومزارع فراولة.

صعد مرتفعات وتلول، دخل غابة، كانت القرية على حافتها قائمة، تؤكد هويتها الريفية، أدرك السائق غربة القادم اليها، قال

موعد وصول الباص القادم، الساعة الخامسة عصراً، هكذا هو النظام، وصولاً لها هي المحطة الأخيرة، الانطلاق والعودة مرتين في اليوم.

كان أيهم في الانتظار، عبر مكالمة جرت بين المشرفتين، دخلتُ الكامب المخصص في هذه القرية، بيوتاً متجاورة، يختلف نظامها عن ذاك الذي غادرته في الصباح، عمارة مملوكة الى سيدة شيدتها مركزاً لممارسة الدعارة، أفلست قبل عام، فغيرتها بناية سكنية، أجرتْها الى البلدية لإيواء اللاجئين.

هناك يودع اللاجئ في غرفة، يستقل بها عالماً لوحده لا ينازعه أحد، هنا يشارك أيهم الغرفة أربعة، لا يبدو الوئام على وجوههم.

كانت النافذة تطل على مدرج تحط عليه طائرات عسكرية، مطلية بلون داكن، قال عنها قاعدة أمريكية في الأصل، أضحت قاعدة لحلف شمال الأطلسي، بعض موظفيها من الأمريكان يسكنون القرية مع أسرهم، أقرب محل للتسوق يبعد عنها سبعة كيلومترات، لا تشكل لأهلها مشكلة، إذ يمتلكون جميعاً سيارات، وبعض معمرين يمَتعُون أنفسهم بركوب الباص.

وافقت المشرفة هنا قبول الانتقال الى مجموعتها مشروطة، بموافقة الشاغلين الأربعة للغرفة، والنوم على أريكة لعدم وجود سرير، ووافقت المشرفة هناك عبر الهاتف بلا شروط، فزاد شاغلي الغرفة الأربعة عربياً واحداً، تعادل على إثره الوجود العربي، مع الوجود الكردي، اثنان وبقيَّ التركماني أقلية تمتلك الصوت الحاسم عند الاختلاف.

تشاركنا الحياة نظاماً مختلفاً عن نظام القرية الأولى، لما يتعلق بصرف الراتب، ومخصصات الطعام (٢٥٠) ماركاً على شكل قسائم مرقمة (كوبونات)، مشكلةٌ، حلّها أنس المغربي، حيث دلنا على صاحب بقالة تركي، يمكن التسوق منه وتحويل الباقي، مبالغ نقدية بخصم يصل الخمسة بالمئة، ساعد حلها على توفير مبلغاً كان كافياً لتسديد ديون فريد من أيام النمسا، صار يطالب تسديدها سريعاً بعد عملية القاء القبض عليه مع صديقه، قبل دخولهما الحدود الألمانية، وسجنه ستة شهور، أعادته الى نقطة الصفر، وأضافت كلف مالية أخرى، أوصلته ألمانيا في نهاية المطاف.

.....

صار وقع الحياة رتيباً في أول شتاء مر هنا، في هذه القرية النائية، نزل الثلج بارتفاع متر ونصف المتر، رأيته من النافذة وكنت مبهوراً بمنظره، خرجت لأتعرف على مقاطع منه تطرز شوارع القرية وهضابها، وأرض أضحت صفحتها بيضاء، ورجل جاوز التسعين عمراً، يكافح بمجرفة ترتجف في يده، جليداً تكدس على عتبة بابه، يُسمع لهاث أنفاسه مجسماً من أمتار عدة.

تقدمتُ منه خطوات، وبحركة تلقائية امتدت يديَّ الى المجرفة لتلقفها، تمنْعَ كبرياءً في البداية، أعاد النظر بتمنعه، حسبه أمراً وارداً في نظام القرية الاجتماعي، فناول مجرفته ممتناً، ووقف مشرفاً يتأمل الحركات الشبابية مسروراً، حتى اكتمال الازاحة عن الباب الخشبي، وزاد عنها فتح ممر منها سالكاً الى الشارع.

سلمتُ المجرفة بعد إتمام المهمة بقصد الانصراف، دعاني الى بيته كان يسكن وحيدا، قال: لنشرب معا قدحين من القهوة الساخنة، عبر عنها بكلمات انجليزية ركيكة ثم أضاف، أنها مفيدة في هذا الطقس البارد، عرّف عن نفسه ضابطاً متقاعداً خدم مع رومل في معارك شمال أفريقيا، كشف عن خاصرة، ما زال أثر الإصابة باد عليها، إطلاقة إنجليزية، قال لقد أنقذه البدو العرب من مصيرها موتاً محتوماً، عن طريق الكي بالنار علاجاً قدموه في الوقت المناسب، ختم حديثه عن الموضوع تأكيد مديونيته لهم، ستون عاماً إضافية الى عمره الافتراضي، اقترح أثناء التوديع استثمار الزمن في تعلم اللغة الألمانية.

شرعتُ بلهفة في تعلمها، والمرور عليه لتبادل أطراف الحديث، ومساعدته في تشذيب أشجار حديقته بعد الاقتراب من التفاهم بشكل مقبول ألمانياً، صرت من بعدها مترجماً متطوعاً، لمجموعتنا في الطريق وأثناء التسوق، وفي التعامل مع المشرفة ومساعدها، تكلمت مع إيڤا بألمانية متعثرة أنعشت مزاجها المكتئب، صارت تكلمني بلغة ألمانية واضحة طوال الأسبوع، نوهت في آخر مكالمة، عن عدم وجود تحسن في حالة وسن، بل ساءت ذاكرتها أكثر من ذي قبل.

ألمت بيَّ بعد تلك الاخبار المحزنة نوبة اكتئاب، خرجت على إثرها الى شارع القرية الرئيس أسير على غير هدى، كانت هناك أكوام من الأثاث والملابس والأجهزة، مكدسة أمام البيوت بطريقة عرض أنيقة، تثير الاستغراب.

سألت صديقي الضابط الألماني عن سرها، ضحك بداية، ثم قال

لقد جئت في وقتك، لم تعد له حاجة بهذا التلفزيون وذاك السرير، وكرسي لم يستخدمه من سنين:

- خذ وأصحابك ما تحتاجون منها، ضعوا الباقي على الرصيف، عسى أن ينتفع بها آخرون، هي عادة لأهل القرية، التكافل مع غيرهم، وما يتبقى آخر النهار تتخلص منه البلدية.

قال أيهم لنبدأ بالتلفزيون هو الأهم، وهو الأثمن في هذا الوقت الممل، ومن بعدها حملنا على المشاركة، فكانت فرصة لإكمال تأثيث البيت، وفرصة التخلص من الدكة، نوماً على قاعدتها الخشبية عدة أشهر.

لكن الطموح الواسع فنياً لأيهم لم ينته، عند تلفزيون يسحب قنوات ألمانية، اقترح في المساء تدبير (ستالايت) مستعملاً، فاز اقتراحه بأغلبية صوت التركماني، حتم الاستقطاع من ميزانية الفرد الواحد عشرة ماركات، نصبّهُ في اليوم الثاني، فبدأت القنوات تتوالى مئات وأكثر، الا أن الجهاز الذي أراده أيهم رفاهاً، ومعرفة وفناً، حسبه الآخرون حقاً للتواصل النفسي مع الأصل، كل يريد العودة الفكرية من خلاله، الى المجتمع الذي فارقه عمداً، فبات تشغيله استثارة لمعالم الفرقة، بين الخمسة شاغلي هذه الغرفة، التي مثلت مكونات المجتمع العراقي المتفرق أصلاً. إذ يريد الكرديان متابعة قنوات كردية، ويريد أيهم متابعة قناة لبنانية تبث أغان لنجوى كرم، كان في تلك الأيام عاشقاً صوتها، ويصر التركماني أخذ الفرصة لمشاهدة قنوات تركية، فأصيبت الغرفة بخلل التوافق، زاد من مصاعب العيش في القرية، ومع هذا فإن التوافق بين

المعوزين بمعزل عن السياسة أمر يسهل حله، فكان التقشف المعيشي عامل حل مثالي، إذ نتفق الخمسة على المشي انسجاماً، سبع كيلومترات ذهاباً ومثلها إياباً، لشراء نصف كيلو طماطم من التركي، صاحب محل البقالة مشاركة، فيوفر لنا المشي توافقاً خمسة ماركات، ويبدد من الوقت نصف النهار، ونتوافق كذلك على الاكتفاء بكيلو من الباذنجان، وجبة غداء نبقي من بعضها الى العشاء، توافقٌ توج في احتفال خاص بمناسبة مرور أربعة شهور، على التواجد في هذا الكامب، اتفاقاً للمشاركة في شراء دجاجة مجمدة، تطوع التركماني إعدادها وجبة غداء، كانت هي الأدسم والأشهى مذاقاً، ما زالت بقاياه موجودة على أطراف اللسان حتى اليوم.

احتفل في اليوم الثاني لاحتفالها، الطرف الكردي في الغرفة باحتكار البث كردياً، قدموا وجبة غداء متبلة بمناسبة غياب أيهم يومان في المستشفى، لإجراء عملية ربط عصب في اليد، قطع قريباً من اصبع الابهام في ضربة وجهها له السجان البدين، في سجن الجديدة أيام ليبيا.

.....

وصلنا الخمسة موقف الباص قبل الساعة التاسعة موعد انطلاقته الى المدينة بعد توافقنا ليلاً، كان قد سبقنا أنس المغربي، من نزلاء البيت المجاور، قال بلهجته المحلية (توه نروح المدينة صحيب).

بدأنا السير في المدينة ثلاثة تعقبها ثلاثة، وكان أنس يسير بين

الكرديين في الثلاثة الأولى، توقفا عند محل يعرض أحذية رياضية من أشهر الماركات العالمية، تأملوا الأسعار غالية، زاد بعضها عن مائتي مارك للحذاء الواحد، ضحكا لعدم القدرة على الشراء مشاركة، وقبل مغادرة الواجهة الزجاجية سأل أنس واثقاً:

- ما قدرتكم؟
- ماذا تقصد؟
- في مقدوري الحصول على واحد هذا اليوم، وغداً بعون الله أحصل على الثاني.

كيف؟

سأل دلاور.

- (وانت مالك بالكيف، يا صحبي).
- أدفع عشرين.

لا تنفع، رد أنس باقتضاب، ثم رفع السعر الى ثلاثين، أوحى أنه سعر نهائي غير قابل للمساومة، لكنه خضع الى مساومة عنيدة، وخفض السعر الى خمسة وعشرين ماركاً لحذاء (أديداس). بعد انتهاء المساومة والقبول بنتائجها تراضياً، طلب تركه أمام المحل، والتوجه الى موقف الباص القريب بقصد الانتظار.

دخل أنس المحل، غاب عشرة دقائق عاد منه بخطوات عادية، وقف الى جانب المجموعة، طلب المبلغ كما هو الاتفاق، ثم دس يده داخل سترته من جهة اليمن أخرج فردة حذاء، ومن الجهة اليسرى الفردة الثانية.

التفت ليواجهنا الثلاثة الثانية، وسأل وكأنه يضمر شيئاً:

- ألم تكن لكم حاجة، تودون شراؤها، ملابس، ساعات،

هواتف نقالة، أي شيء؟

- لا، لم نود شيئاً، فالفعل سرقة، وناتجه حرام.
- سرقة الإفرنجة الكفرة ليس حرام.
- كيف ذلك؛ وانت تنوي ان تعيش بينهم؟
- للضرورة احكام.
- اللعنة عليك وعلى الضرورة.

لم نجادل في موضوع الحلال والحرام، بعد أن اقتربت المسافة الفاصلة بينهما عند قسم من المهاجرين، حدود عدم التفريق، وهو من جانبه اكتفى بتلك الإجابة، غيّر الموضوع في طريق العودة الى موقف الباص، صار يقص قصته فخراً ببطولات تحدٍ للشرطة الألمانية، ومن قبلها المغربية، هناك في مدينة فاس، حيث النشأة وحيداً لأم تعمل في السحر، كانت ترسله الى المقابر بحثاً عن عظام موتى، والى قرى أبعد لجمع أعواد نباتات محددة، تعلمَ بسببها الجرأة.

شـكا معاملتها ضرباً بعصى الخيزران، وامتناعاً عن دفع المصروف، فصار يعوضها بالسرقة، التي وجد فيها لذة انتقام أدخلته عالمها، حتى أتقن فنونها. قال لقد حاول مرة سرقة بيت في أطراف المدينة، تطورت غصباً الى قتل صاحبه بعد مقاومة أبداها، كانت لحظة يعرفها الشيطان وحده، ويعرف تفاصيل يتذكرها جيداً حتى اللحظة، هرب من عواقبها الى فرنسا التي رفضت لجوءه، ومنها الى ألمانيا التي رفضت أيضاً، فتزوج ألمانية لضمان البقاء، تبين إدمانها حبوب كبسلة، وإدمان والدها الكحول.

توقف أنس عن قص حكايته في محاولة الخروج من موضوع بات

يؤلمه، أخرج سيجارة حشيش، عرض واحدة لمن يرغب، قال عن نفسه يتاجر بها، وفي كل صنوف المخدرات، وقبل الوصول الى موقف الباص، توقفتْ الى جانبنا سيارة حمل نصف طن، خلف مقودها رجل ألماني ضخم، شعر رأسه الأبيض غير نظامي، والى جانبه سيدة ألمانية، لم يتبق من ألمانيتها سوى العينين الزرقاوين، وبقايا شعر أشقر تبعثر على كومة لحم مدورة تنتصب على ثديين يتدليان الى مستوى البطن، قال عنها زوجته، اقترح إيصالنا الى القرية لأنهم في الطريق اليها. صعدنا الى بدن السيارة، وصعد هو الى الكرسي الخلفي، واستمرت زوجته جالسة الى جانب والدها أشعث الشعر.

سارت السيارة بطيئة في طريق غير الطريق التقليدي للباص بحدود الساعة، توقفت عند حقل فيه خراف تسرح طليقة، نزل أنس من مكانه سريعاً، قفز من على السياج الخشبي كأنه بطل أولمبي بالوثب العالي، مسك خروفاً أبيضاً حمله على كتفه، وعاد به يركض منتشياً، رماه بيننا نحن الجالسين الى الخلف، ورجع الى مكانه.

جاءنا ليلاً مع كيلوين من اللحم الطازج، قال احتفلوا شواءً مجانياً هذه المرة، وفي المرات القادمة ستجدون لحماً أبيع الكيلو منه بخمسة ماركات، كما أبيعه لعموم اللاجئين في المنطقة.

ستة أشهر انتظار، دب آخرها الملل، في منتصف الشهر السابع لاح موظف البريد قادماً صوب البناية، لوّحَ حال توقفه بأطراف ظرف رسمي أزرق اللون.

رسائل الهجرة تصل ظرفاً رسمياً أزرقاً.

نزلنا ثلاثة من الخمسة ساكني الغرفة جرياً، كل يتأمل الظرف خاصته.

قرأ الاسم، قال يخص أحدكم هو أرشد، توقف عندها الآخرون عن الجري، وزادت من جانبي الخطوات سرعة. نظرت الى عدد الأسطر المكتوبة، كانت أربعة، أعدت النظر ثانية، أفتش عن الرقم (١٦) فلم أجده، قلت لجوءاً إنسانيا.

هنا تنبه أمجد لسير الحديث، وتعدل على سريره، وسأل:

- كيف عرفت ذلك؟

من رسائل سابقة، كنت ألاحظ المكتوب في متنها، وجدت الممهورة بالرفض تتكون من سطرين، واللجوء الإنساني أربعة أسطر، أما السياسي، فبين سطوره الأربعة، رقماً هو (١٦)، وعدت الى القاموس، وأخرجت معاني الكلمات جميعها لمجرد التأكد، تبين صدق القول، ومع هذا لم أصدق ترجمتي، اتصلت بإيفا قرأت عليها الأسطر الأربعة كلمة بعد أخرى، قالت مبروك انه قبول اللجوء انسانياً، ثم أضافت لقد انتهت مراحل صعبة، وبدأت مرحلة جديدة، ثم سألتْ عن الخطوة القادمة.

قلت بثقة عالية هامبورغ.

.....

(١٤)

وضعت الظرف الأزرق مع مقتنياتي المهمة اعتزازاً بقيمته المعنوية، قلبّتُ الرسالة ثانية، فأحسست كأن في داخلي مخلوق لا يهدأ، يتسابق مع الزمن لتعويض ما فقدته في الأشهر الستة الأخيرة، نظرت الى الساعة كانت تقترب من الواحدة ظهراً، تمتمت مع نفسي، هناك أمل في اللحاق إذا ما أسرعت، لم يسمعني أحد، ولم يسأل.

رفعت اضبارة الأوراق الثبوتية والرسالة، وضعتهما معاً في حقيبة الظهر، وتوجهت صوب القرية المجاورة جرياً، لألحق بالقطار المتجه الى المدينة. لم تكن هذه المرة الأولى التي أقطع فيها المسافة سبعة كيلومترات مشياً لتقليل الكلفة، الا إنها المرة الأولى التي قطعت أغلبها هرولة، لقهر الوقت، أو لتقصير أمده كي أمسك بالقطار في الوقت المناسب، تمنيت حال ركوبه كسر روتين السرعة التي اعتادها، كأني أحس بطئها، ولما تذكرت أن القطارات الألمانية ثابتة في سيرها، مثل الساعة عدلت عن التمني.

كانت الموظفة الستينية في دائرة العمل، بالمدينة التي وصلتها بحدود الساعة الثالثة، كأنها مبرمجة تعمل مثل الساعة، إذ وحال ادراكها القلق الذي تلبسني، من ضيق الوقت لحظة وصولي اليها، اشعرتني انها لن تغادر قبل ان تنجز عملها، واستمرت تطلب الأوراق حسب تسلسلها، تسأل أحياناً، حتى منحتني هوية العمل قبل خمسة دقائق من انتهاء الدوام.

تلمست الهوية بنهايات أصابعي أحسست وكأنها، أزالت ذلك القلق الذي لازمني طوال الأشهر التي قضيتها أنتظر هنا في ألمانيا، وأزالت كذلك الغشاوة عن عشرين سنة من العمر قضيتها في العراق، تخيلت وأنا أمسك بها بين أسناني، وكأن آلام تلك العشرين قد كتبتها على ورقة، لففت بها حجراً، قذفته من أعلى الوادي، إيذاناً ببدء صفحة جديدة وحياة جديدة، لن تكون كما كانت آلام خوف من كاتب تقرير في المدرج الدراسي، أو من جلسة أصدقاء ينتقد فيها أحدهم حكم الرئيس، أو من آمر قاطع في الجيش الشعبي أطلق عنان رجال، يجمعون الشباب قسراً، لحرق أجسادهم في حرب يخوضها الرئيس من اجل اشباع حاجته لتعويض فقر قديم.

وقفت أمام الموظفة واثقاً، سألتها عن الطريقة التي استطيع فيها دراسة اللغة. ألم يكن هو الاتفاق المبرم مع وسن قبل فقدانها الذاكرة؟

لقد تغيّر شكلها، حال سماعها الطلب، قالت متوترة، لا نخصص منحاً لدراسة اللغة مجاناً، لمن كان لجوئه إنسانياً.

لكني أريد الدراسة الجامعية، والقبول فيها يتوقف على دراسة اللغة، قلتها بصوت مكسور، فردت بعبارة حسمت الموقف:

- ما زلتَ صغيراً في العمر وصحتك جيدة، يمكنك العمل.

مدت يدها قوية الى رف يجانب طاولتها، أخرجت ورقة مطبوعة، قالت إنها الأعمال المتاحة في المدينة، اذا أحببت وكنت راغبا في العمل عليك ان تكتب لهم وسيرسلون لك التفاصيل.

مع قليل من الشعور بالإخفاق الا ان ما تحقق اليوم كان خطوة جيدة باتجاه المستقبل، لم يكن الظلام قد اطل برأسه، لكنه كان يوشك وكان يتحتم علي العودة سيراً على الاقدام.

في الطريق كانت الثعالب وحدها تتقافز هنا وهناك ربما كانت تبحث عن مأوى أو فريسة كما كنت أفعل.

تغير شكل الثعالب في منتصف المسافة قريباً من الغابة، مستقرها في النهار، صارت عيون بعضها تبرق مع اشتداد الظلام، وغيوم تمنع ظهور الشعاع الآتي من النجوم، زادت من قوة الوحشة.

كان الليل على هذا الطريق الريفي يختلف عن ليل بغداد، وطرق كنت أسلكها في العودة الى البيت آنذاك في أوقات متأخرة عندما أكون مضطراً، الطريق هنا مسلك واحد، وأشجار تتمايل، وثعالب لم أكن آلفها، وجدت بسببها، وكأن خطواتي تتسارع آلياً، تحولت الى الركض خمسة كيلومترات هي المتبقية الى باب البيت، تخيلت عند وقوفي على عتبته لاهثاً مقادير حبي لبغداد، وقسوة سنيها الأخيرة، وطعم الطفولة. اتكأت على حافة الباب فأخذني الشوق بعيداً، وكأني أشم روائح زهر القداح من أشجار النارنج في حديقة بيتنا الذي تركناه الى السلطة احتجزت موجوداته. أعادني الى الصحوة أيهم في نزوله مسرعاً، يسأل عن النتيجة. قلت في هذا اليوم شعرت جدياً، وكأني خسرت بغداد الى الأبد، تركتها لغيري، وتركت العراق بلا أمل العودة.

.....

التئم شمل الخمسة على مائدة العشاء، بقايا مرق من البطاطا، ادخر من وجبة الغداء، قلت لقد سدّت الموظفة المختصة في دائرة العمل جميع الطرق، المؤدية الى دراسة اللغة مجاناً، فأدخلنا هذا القول في دوامة الإفتاء، راح كل واحد يغرف من خزينه مقترحاً لرأب الصدع، من غير الحصول على مقترح منطقي.

قلت بشيء من الضجر، ينطبق علينا المثل العراقي الذي يقول (واحد يجر بالطول وواحد يجر بالعرض).

لم يبق وقتاً للجر بالطول أو بالعرض في ذلك الليل الذي امتد فيه السهر، واشتد النعاس. قال دلاور، اتركوها الى الصباح، اليس انتم العراقيون من يقول (الصباح رباح).

ثارت ثائرة أيهم، رد غاضباً:

- ألم تكن أنت عراقي؟

أنا كردستاني قالها، ودخل فراشه ببرودة أعصاب، كأنه يتعمد اغضابه.

جولة الصباح اتصالات عبر الهاتف، قالت الدكتورة افتخار جارتنا السابقة في الحي الفنلندي، وجدتها.

- ماذا وجدت؟

مدينة هانوفر هي الأنسب، للدراسة المجانية والعمل. ولتأكيد صدق كلامها، قالت أنها وزميلتها يدرسان بالمجان، ويعملان أربعة أيام في الاسبوع.

وداعاً أشرت باليد الشمال للزملاء الأربعة نزلاء الغرفة، وفي اليد اليمين تفرغت لوضع الأثمن من الحاجات في حقيبة الظهر التي عادت الى الخدمة سريعاً، علماً أن لا حاجات ثمينة لديَّ سوى

الملابس التي تتناوب على جسمي، منذ الوصول الى المانيا والى اليوم.

جمع أيهم حاجياته أيضاً، التفت الى دلاور قال وهو يضحك استلطافاً:

- مع أنك تنكر عراقيتك، لكني سأوكلك عني كعراقي لاستلام بريدي، سأجمع أغراضي أنا أيضا، وأبدأ من هناك، بعد ان اختل توازن المكونات هنا، وخشية أن أُضْطَهد.

هانوفر، أو مدينة المعارض، من كبريات المدن الألمانية، عاصمة لمقاطعة ساكسونيا في الشمال الألماني، قديمة نشأت قرية على تل يحاذي نهر اللاين، وصارت بتقادم الزمن مدينة تحتضن النهر، دمرها الحلفاء في الحرب العالمية الثانية تدميراً، لكن روح أهلها لم تُدمر، فاستعادوها بهمتهم بعد الانتهاء مباشرة.

مدينة عصرية أسست أكبر معرضين في العالم، أحدهما للحواسيب والبرمجيات، والآخر للصناعة، أهلها مثل باقي الألمان يؤمنون بأن الروح الفخرية لحضارتهم الألمانية لن تموت، بل خُلقت في الأصل من أجل البقاء، وهي مدينة مثل غيرها مدن أوربية، أضحت مستقراً لأبناء الرافدين، وقد لا أكون مبالغاً إن قلت لا توجد مدينة أو منطقة أو قرية إلا فيها عراقي من تلك الأجيال التي مسختها الحروب، وأعمال الحصار، وكتابة التقارير، جعلته إنساناً في مواطنته الجديدة، منقسم الولاء، تائه، أو غارق في نوع من التيه، نصفه مشاعر ابتعاد لم يعد فيها العراق يعني له سوى البقاء مستودعاً لهياكل الأجداد، ونصفه الآخر حنين اقتراب يداري

وجعه تسكعاً جل الوقت أمام التلفاز، يتابع أخبار البلاد عن بعد، كمن لا يريد قطع الحبل السري الموصول مع مدافن الأجداد.

كلاهما لم يحلا مشكلة تيّهه، بل وأبقى كثيراً منهم نفسه معلقاً بين عمودي القدر، لا المكان هنا يطمئنه كما يجب، ولا العودة الى هناك تأتيه كما يكون.

عراقيو هذه المدينة في تيههم تكدسوا، وكثير منهم تجمعوا في عمارة، تشاركوا غرفها التي تشبه نظام العنابر، يسمح مالكها التركي المشاركة سريراً، لقاء خمسين ماركاً في الأسبوع لمن يملك هوية.

لا أملك هوية، قال أيهم، فالنتيجة لم تظهر بعد.

رد زياد الأكبر عمراً في الغرفة، طالباً التزام الصمت، وعدم التطرق الى موضوع الهوية، واعداً التسجيل معهم مشاركة بهوية افتراضية، فاستوت عندها الحمولة، خمسة شباب من أهل العراق تجاور خمسة أخر، خليط من المتأسلمين، جوار متأوربين، الى جانب يساريين تاهت بوصلتهم، وسطهم أيهم لا يتزحزح عن عناد تلبسه منذ الصغر.

.....

مركز التدريس المؤهل للغة، الذي اقترحته افتخار وزميلتها نافعاً، قالت عنه المديرة، لا يعطي شهادة يعتد بها في القبول بالجامعات، يُعَلمُ فقط لغة التعامل والعمل، واشارت في الدقائق التي خصصتها من وقتها الى معهد مجاور، يمنح تلك الشهادة، أجور الدراسة ألف مارك في الشهر، إشارة أعادت موضوع الكلفة المادية مشكلة الى الواجهة، ودفعت الى قطع شوارع المدينة طولاً وعرضاً للتفتيش عن الحل.

وجدت الحل عاملاً في مطعم سرچنار الكردستاني، حدد كاكا شيرزاد العمل في مطبخه الشرقي، وجبة تبدأ عند الساعة الثانية عشرة ليلاً، لتنتهي في التاسعة صباحاً، أعطى المجال متفضلاً عشر دقائق مسموح بها، تغيير الهيئة من عامل مطبخ الى طالب لغة، كانت هذه العشرة زمناً مضغوطاً له قيمة، مطلوب خلالها أخذ حَمْام، والتخلص من روائح اللحم النيء وما يعلق من بقايا توابل، الشاورمة المطلوب تهيأتها كل ليلة، وتغيير الملابس ثم الجري سريعاً لدخول المحاضرة في وقت، لا يتجاوز الساعة التاسعة بنصف دقيقة، فالألمان أكثر شعوب الأرض التزاماً في تقييدات الوقت.

كنت في موضوع الوقت وكأني عسكري، يعيد وقع التهيؤ ليومه نهوضاً، وحلاقة وترتيباً للسرير، وارتداء القيافة العسكرية كاملة، بعشر دقائق.

علمتني هذه العشر بالإضافة الى السرعة أخذ نصف حاجتي الى النوم في الاستراحات الواقعة بين الدروس، وعلمني الراتب الأول للمطعم الاستمرار بسياسة التقشف، إذ كان مجزياً لتسديد أجور الدراسة واستحقاقات الغرفة، وزادت منه مائتي مارك مصاريف شهر كامل.

لا توجد مصاريف بالمعنى الدارج، فالاشتراكية هنا أكثر قساوة من اشتراكية القرية، والعمل ستة أيام في الأسبوع، مع وجبة طعام مجانية، قلص المصاريف كثيراً، ووضعَ أبو ذنون أميناً لصندوق الغرفة، ودائناً حسب الحاجة يساعد في تنفيذ سياسة التقشف حسب المطلوب.

كان المنهج الدراسي المعد في المعهد، منهجاً لإتقان اللغة في سنة تقويمية، ومعد لاجتيازه امتحاناً شاملاً كل ستة أشهر، أيامه الأولى صعبة، فالتأقلم الى نوم النهار مناف لطبيعتي البشرية، والليل نوماً تعودناه منذ الصغر، كان زميلي الافغاني، يستر زلات نعاسي في درس القواعد المملة بجسمه الخشن، تلك التي لم يكتشفها المدرس، حسب الظن في وقتها، وان تبين فيما بعد تغاضيه العمدي تفادياً لأحراجي أمام باقي الطلبة، ثم أن ساعتيّ النوم المقننة بعد العودة من المعهد، لا تكفي وسط الصخب النافر في الغرفة، ونقاشات زياد عن الجمال ومدينة الثورة، ولا تكفي الأخريات بعدها الى إتمام الدراسة في أجواء صعبة، ذللها بعض الشيء جهاز التسجيلات الصغير الذي حصلت عليه مستعملاً، للاستخدام أثناء العمل عند البقاء وحيداً في الساعات الأخيرة من الليل. ومع هذا كنت أردد أمام ساكني الغرفة، عندما نجتمع بالصدفة أيام العطل، أنني قد تعودت العمل والدراسة في هذه الظروف الصعبة، كأنني ولدت في أحضانها أصلاً.

اقترب الامتحان الأول بعد انقضاء الأشهر الستة الأولى، نصحني المدرس المشرف عدم تأديته، إلا بعد ستة أخرى ضماناً للنجاح، لكنه صفق بقوة عند تسليمه النتيجة ناجحاً أثناء توزيع الشهادات.

قال لم أكن أتوقع النجاح، كنتُ اشهدك وانت تغفو في الفصل بعد تعرفي على ظروف العمل الليلي، أُقر أنك مقاتل.

لا أحب أن أكون مقاتلاً، لقد فقد آلاف المقاتلين حياتهم في بلادي، طوال حروب لم أعي بدايتها، ولم أدرك نهايتها بعد، قلتها بود ومجاملة.

رد بالقدر نفسه من المجاملة، من أنه لا يقصد المقاتل على وفق المفهوم الشرقي، بل المقاتل في ميادين العلم، فهي الأحوج الى مقاتلين من نوع خاص.

وقفتُ الى جانبه عند استلام الشهادة، شكرته على ما تحمل من وزر وعلى جهد بذله، ووعدته بذل ما في وسعي لتغيير المفهوم الشرقي الراسخ عن طبيعة المقاتل.

.....

تكدست على طاولة التلفاز عشرات الاستمارات، مُلئت بيوم وبعض يوم، أرسلتها الى عشرات الجامعات طلباً لقبول في مجال الهندسة، والى جوارها كتب فيزياء ورياضيات مطلوب اجتياز امتحان كفاءة، في موضوعهما شرطاً للقبول، لأن أغلب الجامعات الألمانية تفرض الامتحان، شرطاً أساساً.

أجابت جامعة برلين قبولاً، ورفضت هانوفر، بينما اشترطت ميونخ، وسكتت جامعة هامبورغ، التي صار عليها التركيز، لكنها لم ترفض، وفي خضم المفاضلة والمتابعة، وفي أخر أسبوعين من السنة، جاءت رسالتها إعلاناً بالقبول، شرط اجتياز امتحان الكفاءة، وحددت الدوام بعد أسبوع من تأديته ناجحاً في الرياضيات بمعدل لا يقل عن خمس وستين درجة.

مسكتُ الهاتف حال قراءة النص، ردت إيفا كما عهدها برحابة صدر، وسيل من الاستفسار. قلت هامبورغ.

لو كنت أعرف الزغرودة العربية، لزغردت فرحاً، قالت مستبشرة على الرغم من الوجع في داخلها، قلت لهذا اتصلت على الرغم من علمي، عدم معرفتك بفعل الزغرودة.

سألت عن وقت الوصول، فأنبأتها أرزم حوائجي، قالت سنكون في الانتظار.

كنت بعد هذه المدة، وكثر التنقل كما قلت في السابق، خبيراً في لملمة المفيد من الأشياء ورزمها في حقيبة ظهر، تستحق وسام تقدير على طول الخدمة، وبنطلون جينز هو الفاعل صيفاً وفي الشتاء، يستحق هو الآخر وساماً، فكنت معهم في قطار الظهر متجها الى هامبورغ.

.....

قصة الجامع في حياة اللجوء لم تنته بعد، عاودتْ الظهور الى الواجهة ثانية، إذ لا معارف هنا في هذه المدينة من أهل العراق يمكن اللواذ بهم، ولا الرصيد المالي المحمول في خزينة الجيب، كافياً لتبذيره على فنادق وإن كانت مصنفة نجمة واحدة، فكان جامع النور هو الأقرب على طريق السير تجوالاً، من المحطة، حلاً ليس دونه حل، كان الجامع شبيهاً حد التطابق مع جامع مدينة سالزبورغ النمساوية، بفارق وحيد ظاهر للعيان إمام جزائري هنا، ومصري هناك.

قبل الإمام الجزائري نوماً مؤقتاً جوار المنبر، شرط الحضور

الحصري لمحاضرات يلقيها، بعد صلاة العشاء... حضرت مساء اليوم الأول كانت عن فقه الاختلاف، تستثير وقع الماضي في عقول أهل الحاضر، تُعمقُ مسافة التيه باتباع أفكاراً هجينة، لا تعود الى ماض بعضه نقي، ولا تمثل حاضراً بعضه صحيح.

بعد الاطمئنان على الاستقرار في الجامع توجهت الى زيارة وسن في بيت أسرتها بمنطقة بلشتد، حسب موعد اتفقت عليه مع إيڤا قبل يوم.

فتحتْ الباب مرحبة، عانقتني بود، هي هكذا تعانق كل مرة، وكأنها تلتقي ولدها العائد من الحرب، راح الحديث هذه المرة، عن الماضي شريطاً سينمائياً، وضعت مقدمته في طرابلس ليبيا، ومتن له مر على محطات اللجوء، وحاضر لم يعد التقليب في صفحاته نافعاً، والتخطيط كما كان مفترضاً أن يكون.

ابتسمتْ بألم ارتسم على حركة شفتيها الذابلتان، قالت، ما كنا عليه طوال حياتنا، وما فعلناه في سنيها المتعددة ماض، لا داع أن يقرر مستقبلنا، بإمكاننا الاختيار.

- ماذا تعنين؟
- انها الحقيقة التي لا يراها العشاق.
- أين وسن؟

سألتها، وكأني أفتش عن ماض مفقود.

دمعت عيناها، قبل الإشارة الى وجودها في الغرفة المجاورة، لم تخرج منذ مدة.

استأذنتها دخول الغرفة، فزادت دموعها جرياناً.

قالت لا أنصح، إذ لم تعد وسن، تلك الانسانة التي عرفتها.

ومع هذا زاد إصراري على زيارتها في مكانها، فقد كانت بالنسبة لي ماض، وحاضر لا أريد فقدانه.

فتحتُ باب الغرفة كانت مظلمة، مدلاة ستائرها، أنارت إيڤا مصباحاً أبيضاً، ظهرت وسن مستلقية على سريرها، بانت تحت الأشعة الخافتة وجه شبح صامت، ظهرت عظام الوجه ناتئة، قرَبتْها في أشهر قلائل هيكلاً عظمياً، تغير لون عينيها الزرقاوين، وتغير لون جلدها الأبيض المخلوط بسمار الصحراء الليبية الى أصفر باهت.

بررت إيڤا الاصفرار لرفضها التعرض لأشعة الشمس، قالت تعيش على السوائل، وكأنها تتعمد الموت، نوهت عن رغبتها الموت لأكثر من طبيب ألماني، بل طالبت أحدهم عاينها بالأمس، زرقها إبرة الموت الرحيم.

وضعت يدي على رأسها، تحسست جبهتها، كانت باردة مثل قطعة من الجليد، لم تستجب ولم تأبه، قبلتها من وجنتها التي غابت عنها الحمرة، دمعت عيناها دون التفوه بكلمة واحدة.

قلت سأكون قريباً منك سأجلب لك "المحلبية" التي تحبين، لقد وجدت محلاً ليبياً يبيعها وسط المدينة.

لم تستجب، وكأنها باستثناء الدمع قد تبلدت كل مشاعرها.

قالت إيڤا قبل الوداع، إنها هكذا تذبل يومياً، حتى باتت تراها اليوم شكلاً، وفي الغد تراها مختلفة في الشكل.

خرجت مكروباً وفي ظني العودة في أقرب وقت، عدت بعد يومين على عجل بالاستفادة من استراحة طويلة حصلت بين المحاضرات، اشتريت في طريقي المحلبية التي تحب، متأملاً

إطعامها بنفسي، كما كنت أفعل في طرابلس بين الحين والحين، دخلتُ غرفتها، وعينيَّ على السرير، فتحت المصباح، لم أجدها مستلقية كما كانت من قبل، رحت أفتش في ناظري بين الأرجاء، وجدت جسدها ساقطاً في الهوة الموجودة بين الحائط والسرير، متشنجة، وكأن نوبة صرع هاجمتها.

طلبت إيقا سيارة إسعاف وصلت بعد دقائق خمسة خلتها زمناً، نقلتها بعد فحوص أجراها طبيب مسعف موقعياً، أعلن قبل الوصول الى المستشفى موتها، كتب بعد وصوله شهادة وفاة، أنها فارقت الحياة في تمام الساعة ١٤٢٠، ولم يكن أي من أجهزة جسمها في حال يستوجب الوفاة.

.....

كانت المسافة بين الجامع والكلية تقطع سيراً، وكان الدوام فيها نقلة حياة من عالم الى آخر، يصعب وصفه، راح العقل طوالها بعيداً، الى جامعة بغداد، الى المقارنة المحتومة في أساليب التدريس والمواد.

ركزت في الأسبوع الثاني على زملائي الحاضرين، لم أجد بينهم لاجئين، كان الغالبية ألمان، تصفحت وجوههم واحداً بعد الآخر، وضعت نتائج التصفح مع خبرات السنة الماضية، وجدتهم يختلفون، جادون كأنهم مبرمجون على الدراسة، نادراً ما ينفعلون أو يضحكون، وإن ضحكوا، لا يضحكون على تلك الحوادث، والطرف التي نضحك عليها، ولا يهتمون باهتماماتنا، كأنهم من عالم آخر يصعب العيش وسطه، دون جهد يُبذل مضاعفاً، لكن

عمومهم يتقبل الغرباء، يتعاملون تعاملاً انسانياً، قليل منهم ما زالوا يرون الأصل الجرماني متميزاً، كان هناك من الطلاب الحاضرين عربي واحد، هو البدر جاء من المغرب يدرس على حسابه الخاص، فصارت المسافة النفسية بيني وبينه بحكم الأصول العربية وتقارب الاهتمامات قريبة، وأضحينا من بعد المحاضرة الأولى أصدقاء.

قال الامام الجزائري نهاية الأسبوع الأول من الاستقرار في جامعه، خذ حقيبتك وأغرب.

- هل خالفت الشريعة الإسلامية كي أغرب؟
- لا أراك تحضر سلسلة المحاضرات المسائية.
- أن محاضراتك عن الجهاد، واتهام الأوربيين بالكفر، والدعوة الى عودة الانسان الى الخلافة الراشدية غير منطقية.
- لا بد وأنك رافضي.

هكذا كانت إجابته اتهاماً سافراً، وكانت اجابتي، أني لا أتفق مع طريقتك في المحاججة، ثم ان فعلتك هذه ستقتل الإسلام والمسلمين.

استشاط غضباً، وزاد في الاتهام بالقول، أنتم أهل العراق أهل شقاق ونفاق.

ضحكت بوجهه ضحكة استهزاء، تعمدت وضع أعصابي في ثلاجة، وأجبته لقد أغلقتَ أبواب المناقشة أيها الشيخ الجليل، سأرحل وقبل الرحيل أود إعلامك، أن اسلامك هذا لا ينفع واحداً من المسلمين، كما أني لا أنفعكم.

قال البدر، بعد آخر محاضرة لذاك اليوم، هناك تجمعات للعراقيين يعيشون في شقق رخيصة في المنطقة التي يسكنها، يمكن البحث على سكن مؤقت، والى حين الحصول على آخر دائمي في القسم الداخلي للجامعة، بعد شهر على أقل تقدير، وصلنا السكن المقصود، فتبين عدة شقق في عمارة قديمة، يسكنها شباب عراقيون في الغالب، وبعض عرب محشورون وسطها في تراصف، يشبه نظام السردينة في سجن الجديدة الليبي.

تجولت بينها أفتش عن سرير، كانت الأسرة موزعة على غرف حسب القومية، والدين، وأخرى تبعاً الى المحافظات، سألت وكيل المالك عراقي، عن إمكانية الحصول على سرير، أجاب لا يوجد سرير شاغر، في صف الغرف هذه، ومن بعد الإجابة سأل:

- من أي محافظة أنت؟
- بابلي يسكن بغداد.
- ومن أي طائفة تكون؟

لا أؤمن بالطوائف، كما أني في الأصل خليط متجانس من طائفتين، أجبته على سؤاله بالقدر الذي أراد، وسألته مستغرباً:

- لم هذه الأسئلة؟
- لأن هناك سرير واحد فقط مع أهل الأنبار في آخر غرفة لهذا الممر، لا يعلم فيما إذا كان يمكن العيش وسطهم؟
- لم لا؟
- اليس هم عراقيون وبشراً مثلي ومثلك؟
- لكنهم يصلوُن صلاة مختلفة.
- لا يهم، فأنا أصلي الصلاتين.

امتعض الرجل من هذه الإجابة، ومع هذا طغى الجانب الاقتصادي النفعي على توجهاته الطائفية، فهداني الى الغرفة التي يسكنها الأنباريان، وقبض حصته مقدار إيجار شهر كامل، ومن جانبهم لم يحتجا، على ثالثهم بابلي.

تعجبت من وصولهما لاجئان من أهل الأنبار، أو بالأحرى اكتشفت حديثاً وجود لاجئين من هذه المحافظة في ألمانيا، كنت معتقداً أن كل اللاجئين هم من الأكراد وأبناء الوسط والجنوب.

نوه عبد القادر أنه من أقارب محمد مظلوم، ذلك الضابط الطيار الأنباري، الذي حاول الانقلاب على صدام، مع رفاقه، وخشية إعدامه بجريرة الغير من أبناء العشيرة، فر الى هنا طلباً للأمان.

قال عمر أنه في الأصل جبوري، من صلاح الدين يسكن الأنبار، والده عميد في الجيش، أعدم في محاولة الجبور اغتيال صدام حسين، وتفادياً للتعميم، وامتداد الإعدام اليه كبير الأخوة، هرب الى تركيا، ومنها الى هنا بقصد الأمان، وأضاف أنه وزميله يشكلان أقلية في هذا السكن الذي يهيمن عليه الأكراد وأبناء الجنوب، مازال وصاحبه يفتشان عن سكن آخر فلم يجدا أرخص منه، وأقرب الى وسط المدينة، وبسبب هذا تحملا التنمر على شخوصهم، وانتقاد أسمائهم، وذم محافظات جاءوا منها، فصارا يتجنبان الاختلاط بالآخرين.

في الليلة الثانية انفتحت القرائح، واشتد النقاش بين سكان الغرف، إبان سهرهم على تلفزيون في الصالة الكائنة وسطاً، اختلف الحضور حول النظرة الى اللحم الحلال في أوربا، وأعمال الفن والغناء. غضب البعض، وارتفعت أصوات البعض الآخر، وكأنهم

في جلسات أهل الريف مفتوحة الفضاء قبل عشرات السنين، يظنون أن الليل يعزلهم عن غيرهم، ويحجب الأنظار عن صخبهم. وفي ليل الجمعة الأولى من شهر محرم اشتد النقاش بين أهل النجف، وبين أهل كربلاء، تعالت الأصوات، داهمت الشرطة البناية فجأة، وما زال النقاش صراخاً بأعلى الأصوات.

سأل آمر دورية الشرطة عن شخص يجيد الألمانية، فركض كربلائي الى غرفة الأنباريين، أيقضني من النوم مترجماً لهم عند الألمان.

لم العراك؟

سأل الشرطي.

- لا يوجد عراك.
- بل كان صوت عراك سمعته جارة مسنة، فأبلغت عن حصوله.
- انه نقاش عن أفكار في الدين، والتاريخ.
- ما أوجه الخلاف التي تؤدي الى هذا الحد من العراك بين أصحاب الدين الواحد.

بل طائفة واحدة، قلتها عرضاً، وأكملت القول أنه ليس عراكاً وانما اختلاف في الرأي عن طقوس عبادة في الدين، إذ يرى الكربلائيون التابعون الى الشيرازية، ضرورة اللطم والتطبير، أساساً في العقيدة الاثني عشرية، ويسعون الى إحيائها هنا في هذه العمارة، والشقة طوال أيام عاشوراء، بينما يرى النجفيون المقلدون للسيستاني، أنها طقوس دخيلة على المذهب، ولا يجب التوسع في ممارستها، حفاضاً على السمعة والدين.

ليفعلوا ما يفعلون ضمن الأصول والقانون، وإذا ما أرادوا احياء شعائرهم، عليهم أخذ موافقة مسبقة من الشرطة، وحساب راحة الجيران وتحديدات الصخب، قال الشرطي، فأيدته بالقول، نعم، لقد فهموا التبليغ، وسيلتزمون بتطبيقاته.

ختم آمر الدورية جولته متسامحاً هذه المرة، ناصحاً عدم النقاش بصوت يزعج الآخرين، وضرورة التخاطب بهدوء ودون صخب، مشيراً الى أنه في المرة القادمة، سيضطر الى إخلاء السكن، وربما توجيه غرامات تحت طائلة قانون منع الازعاج.

.....

قارب الوقت في هامبورغ من انتصاف الليل، قلت وأمجد مستلق على سريره يسمع بشغف:

- عند هذا الحد، اكتملت القصة.
- هل لك أن تنام؟

وبدل من وضع الإجابة في مكانها، سأل بنشاط وحيوية:

- لمَ لا نذهب الى بابل نعود الى الجذور، كي لا نتوه؟
- بابل والعراق قصة أخرى.
- وما هذه القصة؟
- دعها الى يوم آخر.

أصر على سماعها هذه الليلة حتماً، فقلت:

لقد قررت العودة الى العراق بعد حرب أسقطتْ عام ٢٠٠٣ من تسبب في هروبنا، حاملاً شهادة التخرج بامتياز، ونوايا رد الجميل، وأفكاراً في مجال الطيران وهندسة المعمار، وبعض مشاريع.

وضعت أعلى حقائبي الشهادة، ومخططات عملتها لمشروع التخرج، ومجموعة مقترحات. وصلت براً، قبل تحليق الطيران التجاري في الأجواء. مررت على الدار التي غادرتها مكرها، وجدتها مشغولة من عائلة غير العائلة التي إذن لها النظام اشغالها بعد هروبنا مباشرة، كأنهم تبادلوا الأدوار في استباحة الحقوق والممتلكات، لم يسمحوا باجتياز عتبة الباب الخارجية.

- لكنها دارنا، يشهد الجيران أننا بنيناها بسواعدنا ومن مالنا الخاص.

أجابني الساكن الذي توحي الهيأة واللهجة أنه ليس بغدادياً:

- لقد دفعنا فيها مبلغاً لمن كان شاغلها رسمياً بأمر الدولة، لا نغادرها الا على جثثنا أمواتاً.

خرج صباح جارنا القديم من داره الملاصقة الى دارنا، على صوت الحوار، أخذني جانباً، قال إنه يكذب، إذ جاء وأسرته لاحتلالها بعد مغادرة شاغلها الذي شغلها بأمر الحكومة بعد هجرتكم وتركها في اليوم الأول للسقوط، ثم سأل:

- هل لديك ألف دولار؟
- لم الألف؟
- لتعود اليكم داركم في الغد.

لم أقتنع بالإجابة، بل ولم أفهما، فسألت باستغراب:

- كيف؟

سأعطيها الى أولياء الله، جيشاً تأسس من خريجي سجون، أطلقهم صدام في عفو منه قبل السقوط بأيام، سيأتون ليلاً الى

مغتصبي البيت، يجبروهم على الخروج بملابسهم العادية، واذا رغبت إخراجهم عراة، زد المبلغ الى النصف.

لا أؤمن بهذا الخيار، لنتركهم الى حالهم، مع الثقة المطلقة أن الخيارات من أمامهم ستقل كل يوم، وستجدهم يتركونه، وان لم يفعلوا فالقانون هو أسلم الخيارات.

أجاب باللهجة البغدادية وهو يضحك: (لعد جيب ليل واخذ عتابة)

تركت صلاح والبيت، وعدت الى بيت جدي لأتفرغ الى مؤسسات الدولة المعنية بالصناعة، والمواصلات، والطيران، لم أجد من التفتت الى الشهادة، أو قرأ حرفاً من المشاريع التي أحملها.

طلب مدير عام تنسب حديثاً في وزارة المواصلات، عن حصة الحزب السني دفتراً لإصدار أمر التعيين في مؤسسة الطيران المدني، فهي الأحوج الى الاختصاص، أكد أن نصف الدفتر الى الوزير القادم من حصة الحزب الشيعي، ليتغاضى عن التزكية الحزبية شرطاً للتعيين.

وما حاجته الى دفتر كي يصدر أمر التعيين؟

سأل أمجد مستغرباً.

الدفتر بالمصطلح العراقي الجديد يعني عشرة آلاف دولار.

هكذا هو الوضع الذي كان سائداً، وأجبرني العودة الى هامبورغ مطوياً على ذاتي، وبعد عودتي قلت علىّ ان أقوم بإلغاء الذاكرة والبدء من جديد، الخروج من الرماد مثل شاهين، لا النظام السياسي الذي كان يخترق أحلامي ويزرع الخوف في كل مفاصلي، ولا الحبيبة التي فقدتها دون أن اعرف السبب، ومن غير أنْ اشرب

من ماء عينيها الجميلتين، لا أيهم ولا السجون ولا القضاة الذين هزموني ذات يوم... وقد بدأت فعلاً من جديد مؤمناً بأن الماضي لا يجب أن يقرر المستقبل، بل في هامبورغ أنا من سيرسم خطوط المستقبل الزاهرة.

هامبورغ
٢٠٢٢/٢/٢